هيلدا . . نَوْرَسَة النَّهر، وأُنْثَى الأَبَنُّوْسْ والنَّخِيْلْ

(الرُّمح المُقدَّس)

الناشر ويلوز هاوس للطباعة والنشر
جمهورية جنوب السودان جوبا - كاتور - مربع ٨ جوار مركز جيران

www.jubabook.com
www.willowshouse.net
gatawillwo@gmail.com
willowshouse3@gmail.com
+211927302302

اسم الكتاب: هيلدا.. نَوْرَسَة النَّهر، وأُنْثَى الأَبَنُّوْسْ والنَّخِيْلْ
نوع المؤلَف: رواية
اسم الكاتب: أحمد ضحية
حجم الكتاب:14× 21 سم
عدد الصفحات: 292 صفحة
رقم الإيداع: ؟؟؟؟ / 2020
الترقيم الدولى : 7 - 8 - 85711 - 977 - 978

.....

حقوق النشر محفوظة للمؤلف والناشر©

ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو اي جزء منه، أو تخزينه كنسخة الكترونية أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر

.....

دار ويلوز هاوس غير مسؤولة عن اراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء والأفكار الواردة في هذا الكتاب عن وجهة نظر المؤلف ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار.

هيلدا.. نَوْرَسَةُ النَّهر، وأُنْثَى الأَبْنُوسْ والنَّخِيلْ

(الرُّمح المُقَدَّس)

(قصة الحُب والحَرب في البلادِ الأَسِيْرَة)

أحمد ضحية

هـذه الرِّوايَة:

إذا قُرِئت قراءة جيدة: ستنتهي الحرب الأهلية بالسودان، تماما كما فعلت رواية (ذهب مع الرِّيح) لمارغريت ميتشل- وإذا قُرِئت قراءة رديئة: قتلت صاحبها -تماما كما فعلت قصائد المتنبئ.

وإذا لم تُقرأ على الإطلاق، نسفت نفسها فينا جميعاً، وأكدتنا في إرشيف المأساة.

عبد العزيز بركة ساكن

كوستي 1998

***

الإهـداء

إلى الرِّفاق الغُرباء.. في (قِبَلِ الأرض الأربعة)،

طوبى لكم جميعا..

أحمد

***

معجم مصادر إلهام الرواية:

جِنْ: منطقة شمال شرق أثيوبيا -يؤرخ المورَّلي بهذه الأُغنية التي ذكرت فيها (جِنْ) لأصل منشأهم.

الدَمْورِّية: قماش خشن نوعا ما، منسوج من القطن. المشيش: مشيش الوديان: هو المياه القريبة جدا لسطح الأرض. بالإمكان الحصول عليها بمجرد إزاحة الرَّمل باليد.

الرَّث: بمثابة الملك لقبيلة الشُلُك، التي تعتبر واحدة من قبائل أعالي النيل الأساسية (النوير، الدينكا، الأنواك، المورَّلي البرون و الشُلُك).

فشودة: من حواضر أعالي النيل، وتُعتبر العاصمة الروحية للشلك بعد (تورو).

الأُنشُودة: (أجاك أقرع الطبل ليدوي، على أرواح أجدادنا، إلخ.. يرددها الشُلُك في احتفَالات نتويج الرِّثُوث، وهي أيضاً – كانت– ضمن معزوفات قوات الشعب المسلحة في العهد المايوي.

نيكانج: البطل الروحي الذي أسس مملكة الشُلُك في 1500 والذي ينتسب إليه الشُلُك، خاصة الرِّثُوث الذين تعاقبوا على حكمهم، وكل قبائل شعب اللَّوَّة العظيم تنتمي لنيكانج.

داك: لا يمكن تتويج الرَّث إلا باحضار تمثال داك ومباركة روح نيكانج.

فودي: إسم مُستلهم من (عثمان دان فوديو) عثمان بن فودي. هو عالم ديني ومجدد نيجيري، مالكي المذهب وأشعَّري العقيدة، ومتصوفا على الطريقة القادرية، أُشتهر بنبؤته حول ظهور المهدي في السودان.

المهدي: المعني هنا هو محمد أحمد بن عبد الله بن فحل، شخصية دينية قادت الثورة المهدية ضد الحكم التركي المصري في السودان. و(يُقال) أن من أقنعه بمهديته هو عبدالله بن محمد "تورشين" التعايشي الذي أصبح خليفته. و(يُقال) أن الشيخ النيجيري عثمان دان فوديو، قد تنبأ بظهوره قبل أن يُعلن عنه الخليفة عبدالله بن محمد التعايشي بوقت طويل. و(يُقال) أن الخليفة التعايشي قد فشل في إقناع تاجر الرقيق الزبير باشا رحمة بأنه المهدي المنتظر، لكن نجح فيما بعد باقناع محمد أحمد بن عبد الله فحل. تعاطف مع الحركة المهدية مفكرون اسلاميون كجمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده .

البول: تشبه في أدائها رقصة الروم بني (رقصة إجتماعية من رقصات النوير تبدأ بعد مغيب الشمس) لكنها لا تؤدى إلا في المناسبات الكبيرة عند قبيلة النوير).

اللاوو: الزَّي التقليدي للشُلُك؛. عبارة عن قطعة من القماش تُربط في الكتف الأيسر للرجال والأيمن للنساء. ويفضل الشبان صبغ اللاوو بالأحمر، ويضيفون لهذا الزَّي عقداً جميلاً من الخرَّز يسمى (تيتو) يلفونه حول الرَّقبة، ويتدلى في الظهر.

المريسة: خمرَّة بلدية تُصنع من الذرة الرفيعة وهي تُعادل (البوظة) في مصر.

اللوّاك luak: يبني النيليون قُراهم على الأراضي العالية، وهي تتكون من عِدَّة قُرَّى، وتبني كل أُسرَّة عِدَّة أكواخ، ومعها حظيرَّة كبيرة للماشية تسمى باللواك، وتطلق ذات المفردة على السمك المجفف عند النوير.

شجرَّة اللحم: يعني بها المورَّلي المنطقة ذات الصيد الوفير. التنباك: نوع من التبغ يسمى العماري؛ يستخدم كعجينة بماء العطرون توضع في باطن الشفة السفلى أو العليا أو في الأنف أو خلف الأذن.

كض: كناية عن الرَّب وتطلق على كل ما هو روحي لدى النوير. كذلك كض هو: إلٰه الرعد والصواعق (الخصب) عند النوير.

ريو: الٰه الحرب عند النوير.

أجِن تُوك ناتْ: يعتقد النوير أن ليس ثمة غيرَّهم يعرف الكلام، وهذا من فرط اعتدادهم وثقتهم بأنفسهم، وإحساسهم بالتميز عن الآخرين.

كواريث kwarireth: عند الشُلُك تعني أبناء وبنات الملك/ نيارث: -nyareth وهم أحفاد الرَّث من بناته وأولاده/ كوانيريث:-kwanyireth تعني أحفاد الأحفاد.

أبودوك: المرأة الوحيدة في تاريخ الشلك التي تقلدت منصب الرَّث، وذلك قبل تأسيس العاصمة فشودة.

الأبانو: تلبسه الفتاة من الشُلُك التي لم تكتمل أُنُوثتها، وهو قطعة من القماش مزينة بالسُكسُك أو الخرَّز في أطرافها، وتربط حول الخصر بشريط.

المُنْدُكُورُوْ: مفردة يطلقها الجنوبيون عموما على الشماليين (الشمال المعنوي أو السياسي لا الجغرافي -العربي).

جوك كولانق: (جوك): هو الروح الساحرة عند الدينكا، وكولانق تعني إنزال اللعنَّة.

آتيبب: يعتقد الدينكا، أن لكل واحد منهم روحاً (آتيبب) تؤدي وظيفة الأحلام (التخاطر) والكشف. كما تطلق أيضاً على روح الميت حديثاً، وبذلك الروح آتيبب هي أضعف من روح الميت قديماً (جوك).

أشيك: الخالق عند الدينكا.

بنج وت: رئيس الحربة.

تيت دي راج: خبير صيد السمك.

تيت دي رب: الساحر الذي يحارب الطيور الصغيرَّة. حتى لا تأكل الزرع .

الأشينو: عندما تكتمل أنوثة الفتاة من الشلك، تلبس قطعة من القماش، تلف حول الخصر وتتدلى حتى الركبتين، تسمى الأشينو.

الأقونو: يطلق الشلك هذا الاسم على نوع من الذرَّة المفضلة لديهم، وهو نوع أبيض اللون.

لا أحد يتكلم عند هطول المطر، حتى لا تحل عليه اللعنة. فوقت هطول المطر هو وقت مقدس.

الجمَّالة: هم راكبي الجمال. يظن الأطفال في النيل الأبيض بوضعهم كفوفهم على أثر خف الجمل أنهم سيجدون نقودا؟! المانجاكيلو -والمانجافوتو: طعام شعبي مشهور عند الشُلُك واجادة صنعه شرط أساسي لزواج الفتاة.

فروخ: (ج) فرخ، وتطلق على المذكر من الرقيق. المؤنث فرخة. وهو تعبير مجازي قد يطلق المذكر منه على الإناث أيضاً.

الجلابة: تطلق على تجار الرقيق (الذين يجلبون الرقيق). وهي لفظة تعادل لفظة المندوكورو إلى حد كبير.

(لا): المفردة (لا) لا توجد في أصل خطاب الحجاج بن يوسف الثقفي إلى زعيم الخوارج قُطري بن الفجاءة.

الكانو: مركب صغير يستخدم للصيد.

كوَل: رقيق.

الخليفة العباسي المتوكل: (861-47 م) بدأ حكمه بالعودة إلى التمسك بشعائر الدين بصورة رسمية، وأصبح مؤسس أضيق المذاهب (إبن حنبل) إماما للعلماء في عهده، ففتح الباب

واسعاً لإرهاب ديني صُودرت فيه الكتابات الفلسفية للكندي والنظريات الموسيقية.

الزهرة الساحرة: هي أديس أبابا عاصمة إثيوبيا.

المرفعين: الضبع

العناقريب: أسرة خشبية شعبية تنسج بالحبال أو رقائق الجلد المدبوغ حديثاً.

الهمباتة: هم قطاع الطرق الذين يعادلون صعاليك العرب.

***

الفصل الأول

أوه يا (جِنْ)،
فمن جِنْ جاء أسلافنا إلى الأرض،
وقبضوا الماشية السوداء!
فتت التبَّاكو،
ففي جِنْ كان التبَّاكو لذيذاً،
مثل الماشية.. اللعنَّة على العَّدو،
الذي وجدناه هنا..
فهم لن يتركوا عجُولنا تهرب من أرضها..

تحرَّكت الباخرَّة. تعمَّقت في مجاهيل النِّيل الأبيض الهادّر. صَّوت دوائرِ الماء الموجيَّة وهي تتكسَّر على جسمها المتمايل، يأتي عنيفاً عُنف الخوف من التيّه في الصحراء والبحر والغابة، الذي تتعبأ به ذخيرَّة المدافع الطائشة، والجلالات والهُتاف!

هدير الأمواج يعلو على صوتِ المُحرِّكات، وأصوات الرُكاب وصرخات الدواخل تطغىٰ على كل صَّوت.. حنين جارِف للدفءِ والشَّوق والرِّيد المستفيض، إلى جلساتِ القهوَّة النَّهارية.. حَفنَّة من أحلامٍ مجلوَّة بالفضَّة، وقوارِير من النَّدىٰ لا يُعكّرها العرَّق الصدئ.. الصابئ من الذكرياتِ المبهمَّة. سطح الباخرَّة، السياج. المقاعد المتناثرة على السطح. الذِّكريات..

التابوت المتحرِّك، المنفّي وسط النَّهر الغاضب.. تلك النُقطة يَعرفُها جيداً، ذاتها التي انطلق منها الطائر النَّهري. تُرَّىٰ أيخرج مرَّةً أُخرىٰ من الأعماق البارِّدة؟!.. يُحلّق، يَسْقُطْ، يُحلّق، يَسْقُطْ، يُحلّق شاقاً بجناحيه عباب الرِّيح والأنواء، فتنهزم أمامه البداياتِ والنهاياتِ.

يخترق الأُفق إلى عُمقٍ سحيق، إلى مدى يلتقي فيه النَّهْر بالشمس، الغابة بالصحراء. تلفت انتباهه جزيرَّةً لم يرَّها من قبل. تبدو صغيرَّة، نائية. تُقاوِم الموج بضعفٍ، كالأُنثى تَتيْهُ تِيْهَاً، وتمنح جسدها لفحولة هذا النَّهرالزِّنجيّ المجنون!

تحسر شهوَّته عنها وهي رَاغبة، في الفناء على حُضن مُويجَة تتجشأ التوتر الأزَّلي للمدّ والجزْر.. أنوار الموانئ والمدُنِ البعيدَّة، تبدو متلألئة كحزنه البِكْر لكنها باهتة كأعقاب السجائر.

تنبثقُ أشعَّة الشمس البُرتقاليَّة خلَّل السُّحُبِ السُّهبية. سوريَّال يتشكَّل وسط النِّيْلِ الأبيض المجنون.. تقوده عوالمه إلى المجهول في تداخلٍ غامضٍ ولكن حميم. لم تكن الشَّمس هيَ الشَّمس. اختفت بعض شُعاعاتِها خلف نتؤاتِ الغيوم الشرنقيَّة، وغابت داخله!

أدنَّت سوزَّان وجهها.. شوق مسحوق الخاطر، تتجدد فيه دماء ألف شَهْرَزَّاد شبِقَّة. صبَّت رِدّتَها على المسيح، والمساحة الواسعة من الصَّبار بيننا ينسحب عنها ضُّل الضُّحى فنرتعش من أدنانا إلى أقصانا، وتنتفض سلسلتينا الفقاريتين، في لحظة هائمَّة في أرواح عشاق أُسطورِّيين، تسلَّلوا خلسة من طروادة بليل ألْيَّل!

وكالمصابين بصرعة صرخنا صرختنا الأخيرَّة، قبل أن نخمد كبركان منطَّفي!.. نمنا غائبين عن الوَّعي، وفي الصبَّاح كانت لا تزال بقايا الويسكي البوربون، والبيرَّة والصودا على المنضدَّة. ورَّماد سجائر وأعقاب كثيرَّة، متناثرة على الأرضية، المُغطَّاة بالسجاد العجمِّي.

منفضة عاجية تبدو ملامحها فارغة، إلا من خيوط العنكبوت. منضدَّة أبنوسية أنيقة تراصت عليها كؤوس فارِغة، وأُخرىٰ نصف ممتلئة. أوراق من شجرَّة المانجو المعمرَّة حملها الهواء خلسة، فتساقطت على السجاد الفاخر. شجرَّة المانجو المتكئة على النَّافذة، لا تمهل الرِّيح أوراقها.. في كل فصل تخوض معركتها الأزَّلية، فتتجدد أُسطورَّة الاله الآتِ من إفريقيا جنوب الصحراء، عند الشروق في يومٍ مشَّمِس، غائظ بالمغامرَّةِ والجنون، بعد عراك مستميت مع الصحراء والغابة، في طريقهِ للخروج من الامبراطورية، التي لا تغيب عنها الشمس.

ضوء الفجر يطل متمدداً من بعيد.. متسللاً خلَّل الأغصان الجرداء، إلا قليلاً لشجرَّة المانجو متشابكة الفروع، ثم متكوراً على النَّافذة وهو يتمطىٰ علىٰ الغُرفة، مشيعاً فيها شيئاً من روحه الصبَّاحية النزِّقة.

الغُرفة كما هي مُنذ عام، لم يتغيَّر شيء: غزَّال محنط على الجدارالأيسَّر، تبدو عليه علائم الموت حديثاً، ينتصب قربه تمثال لغُردون باشا في رحلته الثالثة، نظرات الغزَّال باردة، مشنوقة، لكنها عاشقة رغم كل شيء!.. تُرىٰ أيحن للحيَّاة في هذه الغابات المتفحمَّة، وبين أكوام الجماجم والعظام؟

احتوت الغُرفة التابوتية عبد الله المُنْدُكُورُوْ تماماً. أثارت فيه ملامحها السحرِّية أشواقه لسوزَّان المتمدِدَّة جواره، بعد أن يئس تماما من ابعادها عنه، كأنها بملامحها الذائبة في حُضنِ المدىٰ البعيد، تُحاوِّل إشعال نيران الجحيم، التي يدَّخِرها لوقت ما!

"لايزال عبد الله يقاوِّم الموت على طريقته!"

وسوزَّان تستمر في ملاحقتهِ بعرِّيها في كلِ مكان، لا تنام إلا وقد قتلها اليأس!.. كان يَقْسُو علىٰ نفسهِ بِشِدَّة، حين يُلامِس جسمه المديد، جسد سوزان العارِّي. مُحتملاً عبء قرون من الرَّهق الجنوني لظمأ الربع الخالي.

دَوَّامة من الأحلام السريَّالية التي لا مُنتهىٰ لها، تمدد بداخلهِ، مختلطةً بحُلُمِ العَودَّة، لرؤىٰ قد لا تستقبله.. دائرة من عشق مرفوض. مرفوض!

تتشنج أنامل سوزَّان، وتنغرس أظافرها في لحمه، وأنفها يتحسس صدرَّه في جنون.. والمَدىٰ الذي بينهما تتسع فيه ذِكّريات البحث عن دُرِّيَّة، بكل القلق الأزَّلي للبحث المحمُّوم، والهروب المسكون بالتوتر، والإحساس باللاجدوىٰ.

كان البحث عن نقيض النقيض: هنا حيثُ الأدغالِ تفتقد اتجاه البوصلَّة.. لم تكن أزّمة مكان فحسب. كانت أزِمة النَّفي الوجودي للمكان وإنسانه!

أصوَّات اللُّغات المختلطة تزكُم خلاياه بالغموض والتعب. يحس فيها اليومي المُعاش، وتفاصيله المقيتَّة المُهلِّكَة.. أصوَّات مُشرَّبة بالاغتراب والغُربة والتغرُّب، لا تُرجع سوى صدىٰ الأُغنيات القديمَّة والبعيدَّة واليتيمَّة عن الشوق والريد، ولمسة يد سوزان من طرف الحبيب!

أُغنيات الحنّين الجارِّف، والحرب التي تعلو سُقُوف البيوت الواطئة، وتطأ النَّاس العُزَّاز.. بعيداً، بعيداً عن العمارَّاتِ التي سمقت دون مرؤة!

خواطر البارحة -الآن- لم يزول عنها تأثير النيكوتين بعد والسُكر، والتعبيرَّات هي ذاتها، لا تزال مشبعَّة برائحة الخمر وتعتعته، أنه الواقع black out يُفرِز مخلفاته على النَّاس والأشياء والمكان والزَّمن: الواقع..

النيل وبحر الهواء والغابات الجافة، التي تُحيط برِسغِ المُدن. التهيؤات جميعها تشير إلى إنفجارٍ ما، لا يبقي ولا يذَر.. قالت سوزان:

"من أنتَ يا عَبد الله؟"

"... ... ..."

"الحُزن الذي لا يفارق عينيك"

"لا شيء سوى دُرِّيَّة"

"أُحبك؟"

"لا أكرَّهك. لماذا لك اسمان؟"

"سوزَّان هو إسمي الذي منحني له العالم المتحضِّر"

"وهيلدا"

"أنه إسم ينتمي لجذُّوري هنا، مألوف في ثقافة قومي المحلِّية"

"هيلدا مألوف؟ أنه إسم أوروبي!"

"وماذا في ذلك؟"

"طالما أنتِ مُغرَّمة بجذُّورك فلتتخذي إسماً ينتمي حقا لهذه الجذُّور"

"لا تُغيِّر الموضوع"

"أي موضوع؟"

"حقيقة حبنا"

"حبنا؟"

"سأنتصر عليك في النّهاية، بالحبِ والحب وحده، مهماً طال جفاءك، ورغم أنف كل هذا الغموض، الذي يُغلِّف صمتك" الملامح هنا.. في جوبا عاطلة عن الفرَّح، خلية نحل مرَّ بها التتار، ولم يمر بها سُليمان الحكيم، فلم تتكرر حدوتة النَّمْلَّة، وبقى السيد الهُدْهُدْ وإبن عمه الأرقم، شعاراً رَّسمياً لثقافة تحتفي بالجواسيس وأجهزة الأمن!..

ضد من؟!

النَّمل الذي يسكِن الخلايا والأنسجة، يُمارِس بياته اليومي. ثمَّة نكهة خاصة لحياة متضادَّة، تتجذَّر في الوجدان، أجاد أنكل سام تكريسها، وثمَّة حُزن مقيم!

جاء صوت سوزَّان عميقا، لا يخلو من اللَّوعات والأسى:

"عبد الله.. عبد الله"

"........."

"كم أُحبك.. كم أُحبك"

لكنه كان لا يسمع، سوى زرقةِ الغَصَّة التي في الحلق، لا تفتأ تخزه.

سوزَّان هذه الأُنثىٰ الخِلاَسيّة الجميلة، تُحبُك أنت الآخر.. المُختلِف، القادِم من هُناك على صَهَوَّات الرِّياح العَاتية والبرق العبادي.. أتيت لتركب معها الثَّور الذي يحمل الكُرَّة الأرضية على عاتقه، قالت:

"لطالما أمسك قومي ببقرَّة التبوسا من قرونها، وظلَّ الفضائيون المزروعون في هذه الأرض، يحلبونها.. فلم يحصد قومي سوىٰ قبض الرِّيح، ونطح البقرَّة"

وتتحد فيك.. أنتَ وسوزَّان. تتحدان على ظهر بقرَّة التبوسا المقدسة، وثور (اللُّوَّة) الأسطوري، تموتان وقوفا كفرسان (التبوسة). مقاتلان يحترق نيرون أمام أعينهما.. يموت، وتبقى (روما) حيَّة كفرسان التبوسة! هذه الأُنثىٰ الخِلاَسيّة.. هجين (المورِّلي) وأنكل سام. هذه الأُنثىٰ القادِمة مع أفَواج الإغاثات والمنظمَّات الطوعيَّة، تُحبك أنت؟!

تأمل جسد سوزَّان الفارِع، المتمدِّد جواره وتنهد. تسلَّل ببصره النَّافذة المُغطَّاة بأغصانِ المانجو، محاولاً إحتواء ملامح (جوبا) من النَّافذة.

كانت جوبا تبدو كنقشٍ في القلب.. كدُرِّيَّة.. اختلجت خواطره وهي تصطدِّم بسقفِ السماء. قال مخاطباً سوزَّان:

"يبدو أنها تشعر بالغثيان"

"عبدالله"

"الحُب مثل البطولة؛ أكذوبة محض"

"آخيرا"

".. ... ..."

"هل تُهت في خواطرك النَّهِمّة مرَّةً أُخرَى؟"

"لم أتُه بعد"

المُدن المتورِّمة في البلاد الكبيرَّة الأسيرَّة، تأخذ خواطر عبد الله بأحلامها السرَّابية، الضبابيَّة..

"كم أُحبك عبدالله"

أزاح شفتيها المثقلتين بجمرٍ لا يخمَّد..

"لا زلت محملاً بأشواقِ سنوات عجاف، لحرائف مثمرة"

"لماذا تبعدني كلما اقتربت؟!"

"سأرحل يا سوزَّان.. سأرحل"

لا تزال دُرِّيَّة بعيدة عنِّي. بعيدةً بُعد مدائن البُهار والمَّن والسّلوى. بُعد مدائن الحنطَّة، التي هبطت بنا إلى الأرض! رَمى بنظّرهِ خلَّل أغصانِ المانجو، المتكئة على النافذة المشرَّعة.. بنايات عالية تُطل بين السُحب المتكاثِفَّة، عبر قطار يقطع السكك الحديدية دون توقف، وحين يخرج القطار عن مساره في 1956 يغني النَّاس سِفر الغُربة والحنين. والسكك الحديدية تجرفها السيول والفيضانات، ووريح الهبباي والأمطار الغزيرَّة تقتلع البيوت من جذورها، ليفترش الجميع العرَّاء:

وطن بكامله في العرَّاء!..

حتى ما تبقى من أسلاك التِلغرَّاف التي قطعها الأنصار، لم ترحمها السيول، وظلت الهجانَّة هجانَّة.. حصاد لضبابٍ متوحش، يُشرِّع النَّوافذ وأبوابَ المُدنِ والقُرىٰ والفِرقان لحروب الرؤى الطاحنة، حول سؤال يتيم:

من نحن؟!..

فتتسع دائرَّةِ الفرَّاغ.. و...

وسوزَّان، تعرُّجات لسحبٍ رَّملية مشحونة بالهجير. تختفي ملامحها الغائرَّة بين تلافيف الأُفق الشفقي، المشقق بأخاديد الدَّم.. تؤدي الصَّلاة الأخيرَّة، مُنذرَّةً نفسها لأول قادم من كواكب التاريخ المجهولة، الكواكب التي ليس لشعوبها أشجار نسب! فاشترى لها أحد الهمباتة شجرَّة نسب من شريف مكة، فمدت كأبي حنيفة قدميها الأبنوسيتين، على جذع النخلة اليتيمة في قلب البلاد الأسيرة!

تذوب الحدود بين الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشَّمس، فلا تشمل الغابات والمنَّافي فحسب، بل أكوان أُخرَّى غامضة، مليئة بالفضائيين العجيبين، الذين يعيشون بيننا وفي دَّمنا!

المسيح لا يأتي وود النَّمير لا يزال يقطع بسيفه سواعد العِربان ليعطيها للحكامات، كي يضرِّبن بها على الدلوكة، ثم يفرش على الدَّم الحرير.. وما الدنيا يا سوزَّان سوى بحر ضب خرِّب، و(المشي بالبيوت والكلام بالخيوط) والجلابة جلابة وشين ودشن، تور الحلا المكَّادي، كاشف المقانع، وآكل عشا البايتات، أنه زمن الجنجويد!

صدر سوزَّان على كتفه، ورائحة البُّهار الإفريقي والبخور، تهمس في العَرق المطعم بخور أزمنَّة الرَّحيل!

***

تترىٰ على خواطرِه ذَاكرَّة المكان، وهو يغّذ في السير مُخترقاً زقاقاً تلو آخر، إلى أن تراءى له بيت الشيخ وَلِيّ الدّين الغرِيق في نهاية الدرب، يُلقي عليه الفجر ضياء أشبه بظلال أشباح قتلى الحروب الأهليَّة الطاحنة في البلاد الأسيرَّة!

بَكّرَ سُعود بالمجيء خشية الزِّحام على بابِ الشيخِ. دخل من الباب الموارَّب للدَّار، وتوقف بخشوع لدىٰ سماعه صوت الشيخ، يأتي من داخل غرفته التي يستقبل فيها الضيوف:

"باسم الله الأعظم.. بحق آج، أهوج، جلجلوت، هلهلت، صمصام، طمطام.. وبحق مِهْرَّاش الذي به النَّار أُخمدت.. بحق شماخ وأشمخ."

كان ضوءً شفيفاً يتسرَّب دواخل سُعود، فيما أُذنيه ترتخيان.. تتحسسان طقوس الشَّيخ. تلاشى عن سُعود الحذّر فيما الشَّيخ يُكمِّل توسلاته.. استأذنه. فأشار له الشَّيخ برأسه إيجاباً دون أن ينطِّق بحرف. فتقدم سُعود ووقف بناحية قصِيَّة من الغُرفة، ذات الإضاءة الشاحبة!

كانت الغُرفة تتوشح بظلالٍ رَماديَّة كثيفة، تشكلَّت من الأبخرَّة مُختلفة الروائح -صندل، مزيج من القرفة والقرنفل.. طلح- التي كانت تتصاعد في شكلٍ لولبي. يرتد على الجدران، التي توزَع

على جنباتها الأربعة، في نظام فوضوي غريب، جسد دراكولا المُخَّط، وجلد أصلة طاعنَّة في السن يُغطي منحوتة لفخذي الدّون جوان، ومُصلاة من جِلدِ القنفذ أبوشوك، ثبتت في منتصف جلد تمساح برّي مُعلَق على قرنِ خرتيت جبلي متوحش، ورأس ورَّل مخنث.. وقدح سلحفاة بدئ واضحاً أنها كانت عذراء عندنا أسرت وأغتصبت، ودياصور مخنث متناهي الصغر.

فيما كان يقعي كالكلب طفل تنين شقي محنط حديثا، إذ كانت لا تزال ثمة أبخرَّة للهبٍ ذَّاوٍ تنبعِثُ من فمِه وعينيه ومنخرَّيه، اللذان بدوا كفوهتين معتمتين، أشبه بعتمَّة ثُقبٍ أسود!

***

وفيما كان سُعود في العلَن يُقدِم نفسه في برنامجه الديني التلفزيوني، كمجدد صاحب رؤى جريئة، جعلت الآلاف من شباب وشابات البلاد الأسيرَّة المحبطين، والذين أنسدَّت أمامهم آفاق المستقبل، معجبين به ومتحمسين له، لدرجة الاعتقاد في أنه صاحب كرامات خارقة، كانت حياته السرِّيَّة على النقيض تماما!

ورُغم الستار الحديدي، الذي علَّمه الغَريقْ كيف يُحيط به حياتهِ الخاصَة، إلا أن قُدرَّاتِ عُتاة الفضوليين، الذين تجذرَّت

أُنوفِهم في تاريخ هذه المَدينة الضَّالة، لم يكن ثمَّة ستار بقادرعلى حجب حساسية شهوَّة الشَّم الأسطورية لأُنوفِهم، التي أنِفَت مِنها الأُنوف!

ولذلك لم يكن غريباً أن تتسرَّب شائعات مجهولة المصدر من آن لآخر، تُلقي بصيص ضوء على واقعة بطلها الغَرِيقْ، أو حادثة كومبارسها سُعود ذات نفسه!

حتى أن بعض المعاشيين المصابين بالزهايمر -الذين يَحنُون بصورةٍ غامضة، إلى ماضيهم الذي يبدو كثيفا، في غمرَّة معاناتهم أمراض الضغط والسكري والمصرَّان- من جلساء وندماء أولئك الفضوليين العُتَاة، كانوا يتجرأون دون حَذَر على السُخرِية المُرَّة من سُعود والغَرِيقْ، عندما يَرون الأول يستضيف الثاني، في غالب حلقات برنامجه التلفزيوني البائس! وهم يتساءلون عما يُخفيه هذا التكرَّار المُمِل، من أجندة، لا مُحالة ستُغطّس حجر البلاد الأسِيرَّة الآخير، بعد أن شيد الغَرِيقْ، قصره العشوائي الفاخر، من أنقاض الحجارة تلك نفسها، التي شُيِدت بها البلاد الأسيرة، عبر تاريخها الطويل الضَّال المضلِّل!

***

سارا تجاه البحر ليلاً، وسلمى تُضيء كنجمةِ سُّهْبُ تُرشد السارِّي. حبها معالم لطريقٍ موحش، وبلسم لجراحاتٍ متعددَّة!

تتعرى سوالف سلمى، تُغطيها برائحة طين الجروف وعشب النِّيل!.. كان حديثها كرزاز.. حبات مطر شارد.. يحكي عن ظمأ المفاوز وقلق الوِّديان في (المشيش) ليروي قلبه بالحنين.. ينسى عذاباتهِ.. جراحاتهِ.. وقلبه الذي كالنَّافذة المغلفة بالعتَّمة ينفتح لوجهها المنوِّر.. تفتح قفله الصديء.. تُشرِع أدرَافه على مصراعيها، لتعبُر الرِّيح، فيطلان معاً على عوالم تسبح في بحر من النُّور!

كان همس سلمى كوقعِ الأُنشودات الربيعية.. وكانت حياته معها في ميلاد هذا الحب، حُلُم لا أول له ولا آخر! ينطلقان متشابكي الأيدي، والحي الشَّعبي البائس يختفي خلفهما.. تتلاشى معه ملامح البلاد الأسيرَّة فلا يبقى إلا وجه النِّيل ذو الايحاءات والشجن!..

القمر المُتَرَّع بالصفاء، والاحساس الرَّخوِ بالليَّالي المخمليَّة! ومتوكل وسلمى/ هِبَة الآلهة.. هذا الطائِر مهيض الجناح.. ويبرز وِليَّم صديق الداخلية القدِّيم، خارجاً من دمعةِ البوح الحانية، التي تسلَّلت من عينيَّ الرَّث باناو خلسةً، متكورةً على جفنيهِ، منطوِّية على بوح الأُبْنُوْس والنَخِيْلْ، في هذا العالم المجروح!

"ترى كيف بدأ كل شيء يا وِليَّم!"

كان ليل أفريقيا الآسي لحظتها، بكل ما يَعتمِل في إفريقيا من عتَّمة وغرّبة، يفيض من أعماق باناو، ليُحاصر لانجور، فتتداخل فيه علاقة شائكة بمشاعرها الغامضة، وتنمو كنباتات السدود والمستنقعات في أرخبيل جونقلي..

كيف يصحو كل هذا الألم الدفين، الناتج عن إحساس طفل فقد أمه -بيدبا التي هربت أو أُختطفت أو قُتلت: سيان- هكذا فجأة دون مقدمات، يكتشف -الطفل- وعلى نحوٍ مباغت بعد وقت طويل، أن كل قطرَّة حليب رضعها، لم تكن من صدر أمه! وأن من كان يظنها أمه هي زوجة الأب!

تنهد لانجور بعمق:

أُمي ماتت في مجزَّرَةِ جيش الحكومة ضد أهلي.. أنها حكايتي انا -لانجور إبن الرَّثْ باناو.. عندما أعود بذاكرتي الآن، إلى تلك السنوات البعيدة، أرى كل شئ بوضوح، حيث تنهض سلوى في قلب مخيلتي، منداحة عن حكايا عالم طفل، وأصدقاء خلفتهم وراءها، كأنها لا تزال تركض هربا من (اليَمَّنِيْ) صاحب الطاحونة، بجلبابه (الدَّمورِّيَة) الذي لا يُغَيِّره أبداً!

هذه الحكايا التي حدَّدتها بلدة (وادي النِّحاس) وأمكنة أُخرى، تتجدد في أسى ولوعة!.. عوالم عديدة عشتها كأنها حُلُم، وربما لم أعشها، لكنها انتقلت إليَّ تواتراً.. ربما من ذَّاكرَّة مستر واطسون أستاذ التاريخ الأوروبي.. ربما من ذَّاكرَّة الرَّثْ باناو، التي تداخلت فيها ذَّاكِرّات عدة تعود لآلاف السنين!

وكذلك ذَّاكرَّة عبد الله المَنْدَكورُوْ، التي صاغت الوجود الحَيْ لكتلة الشمال، داخل المقاومة الجنوبسودانية، فغيرَّت مسار القضية: قضية البلاد الأسيرَّة!

المَنْدَكورُوْ ذاك رجلٌ استثنائي غير مجرىٰ حياتي، بزجه لي في عوالمه المدهشة! التي يصعب الامسَاك بتلافِيفِها، إذ تتفلت كلما أحكمت عليها الحصار..

هذه العوالم الجريحة والمنهوبة.. عوالم البلاد الكبيرة الأسِيرَّة التي تتبدىٰ طاردة، غريبة، لا ينتمي إليها أحد! لكأن من يولد فيها ويعيش، فِي كل يوم يَمُر، كأنه يراها للمرَّة الأولىٰ. فينزوي على نفسه وهو ينزلِق إلىٰ قاعها، الذي لا قرَّار له! أنها عوالم المَنْدَكورُوْ وزوجته سوزي -أعني هيلدا- اللذان شكلا معاً قصة الحب والحرب -أو السياسة في البلاد الأسيرَّة- الحب والحرب.. بمعناهما الإنساني الكوني الأزلي!

المَنْدَكورُوْ هذا الرجل الذي كنت أشعر به دائماً، يُخفي بين جنباته أسراراً تنوء الجبال عن حملها، فسعيت لأعرف هذه الأسرار، مدفوعا بقوى خفية تشدني إليها شداً!.. وقادني سعيي إلى ذَّاكِرّاتٍ عِدة..

حكيتُ لها عن المَنْدَكورُوْ، الذي عرفته طفولتي، فحكت لي عن عبد الله الذي عرفته صبياً ومناضلاً وتاجراً وعاشقاً، تعذبه مأساة تشتبك فيها قصة البحث عن مكان.. عن وطن! هذا المكان/ الحب الذي حملته (ابودوك) على هدَّبِ الخوف، والقطار يرحل بها إلى مُدنٍ تنام على العتَّمة والمخاوف والهواجس والظنون!

هذه التراجيديا الكونِيّة، التي لطالما حاول الإنسان بقوة فعله الانساني السيطرة عليها، خاتماً رسالته إلى الطبيعة: ها أنا أضع قوانيني المستقلة ها هنا!

نعم -ومع ذلك- انفتحت على تراجيديا كونِيّة كبيرة، قلبت حياتي رأسا على عقب، ولم أعد أعرف هل أنا.. أنا لانجور إبن الرَّث باناو. أو أنني شخص آخر يدعى المَنْدَكورُوْ، أم أنني فكرة بين بين، تحاول أن تُهدِئ خاطر الأحلام والكوابيس، التي لا تفتأ تطارد كل الذين كُتبت عليهم أقداراً عظيمة، فكانت عزائمهم تشتد وتضعف، في اللحظات الإنسانية الفارقة؟!

قادني بحثي في حياة المَنْدَكورُوْ إلى عوالم أُخرَىٰ، ارتبطت به جذرِياً.. عالم عامر الذي دَارىٰ طعم إحساسه بالخيانة، بالغُربة الطويلة عن النَّاس والأهل والوطن..

عالم (مولانا الغريق) الذي مثَّلَ نقطة تحوُّل كبيرة إلى الخلف، في تاريخ البلاد الأسيرة، إذ أعاد عقارب ساعتها مئات السنوات إلى الوراء!..

و(تقي ود زهرة) ذراعه الأيمن الذي تولىٰ مهام الأمن، مسترداً من غور التاريخ، أساليب القرون الوسطىٰ، وأسوأ عناصر التعذيب في عصور الظلام..

وسلوى.. هذا الطائر الغرِّيب الذي يُحلق في الذِّكريات، ملاذاً من فداحة الواقع البائس الرَّث! عالم سُعود..

عالم وادي النِّحاس، الذي انفتح فجأةً كرعدة تحطم حصون المعاناة، لتضمد جُرحاً قديماً في الآن ذاته!.. فالتقى سُعود بسلمىٰ على أنقاض حبه الذبيح لسلوىٰ، فكان الميلاد لحرائف مثمرة على الأرض، التي أجدَبَها طول الإنتظار والمحل!

تنمو في علاقتي الخاصة بباناو ووليم، لتشكل حزننا المشترك.. تتسلل الصمت المشوَّه بالصمت! وتذوب كالنغم المضاد للغم، فتبدأ رحلتنا معا في اللانهاية!

أحيانا أحاول استرداد نفسي من هذه الذَّاكرة المعذِّبة: المَنْدَكُورُوْ فابدأ في استرداد طفولتي، التي تفتح وعيها الأول على اللحظة التي أصبح فيها أبي رثاً..

هؤلاء الذين تشابكت مصائرهم المأساوية، مع مصيرالمَنْدَكُورُوْ الغامض:

"كيف؟!"

"لا أدري"..

أصبحوا كالقدر الذي قاد حياتي!

***

منذ إغتيال باناو (للرَّث) السابق، أثناء الإحتفال بعودته من الحج في (فشودَّة) وموجة الحُزن والأسى، التي عمَّت شعب القرية، لم تفارق ملامح النَّاس وقسماتهم!

كان جُثمان الرَّث السابق قد بقى مُسجىً في عُشته الخاصة، إلى أن أُقيمت طقوس الجنَّازة، بعد ذلك، ونُقل من عُشته إلى عُشةٍ أخرى، حيث دفن وأغلق عليه باب العالم الآخر، إلى الأبد!..

ومن ثم صارت عُشته القديمَّة قُبةً مقدسة.. ثم أخذ النَّاس يستعدون لتنصيب باناو رَثاً!

***

تنهد الشيخ وَليْ الدِّين الغَرِّيق، وهو يحكي لأنصاره الملتفين حوله في خشوع مهيب.. كنت دون الأربعين، في ذلك الزَّمان الموغِل في البُعد، عندما أخذتني تلك الحورِّية إلى مُدُن مائية ساحرَّة، ما أن رأيتها حتى غِبتُ عن الوَّعي، ولم يُرَدْ لي وعيِّي، إلا وأنا أعي به كل شيء حولي. خاصةً سلطة الجسد! فللجسد سلطته التي تبدأ منها الأشياء، وتنتهي إليها.

الجسد –جسدي.. جسد تلك الحورِّية. جسد المكان والزَّمان والأشياء، و.. وعندما كنت غائباً عن الوَّعي، كان ثمَّة إحساس خفي بسرَّيان الرُّوح في جزيئات دماغي، تستوطن مُخي وتتجاوزه تسرِّي في دَمي!

أطياف شفيفة أحسست بها تسكن خلاياي، تُحيِّ الجُمود الذي ظل حيناً من الدَهر جاثماً على كياني!.. عطَّست على نحوٍ أراحني، فأدركت أن الرُوح تجاوزت اليافوخ إلى الأنف. وكان صدري قد بدأ يشهق.

حرَّكت يديَ وأعلاي حيث بدأت تنتظم الحيَّاة.. أغمضت عينَّاي.. وكرَّرت فتحهما وإغلاقهما على نحو آلي، أشعرني بالإرهاق والتعب.

أرخيت جزئي الأعلى برفقٍ، واتكأت على جذع شجرَّة مُرجانية، ذات أثداءٍ نافرَّة. كُنت قد شاهدتها قبلاً باحساسي القُزحي..

بَدت لي الشجرَّة متقوسة على نفسها، وظلالها تُلقي عليَّ نُوَّارات وردية.. دافئة ولزجة!.. ثم رأيتُ فيما يرى الغافي شيئا يشبهني. لكنه كان أروع.. إنها الحورِّية!

أحسست بألم خفيف في جانبي الأيسر يحولُ بيني وبين النَّوم، كأن شيئاً ما قد أُنتزع من جسدي انتزاعا! حرَّكت جسمي المستلقي تحت الشجرَّة، ليأخذ جانبي الأيمن مكان الأيسر، ففوجئت بالحورِّية التي رأيتها في غفوتي ماثلةً قُربي، تتأملني في ارتباك!

كانت فاتنَّةً أكثر مما قدَّرت، وكنت مَسجياً على عرائشٍ من الألوَّان البحرِّية الفضفاضة.

اعتدلت في استلقائي، ولاحظت أن تبدلاً قد طرأ عليَّ!.. أنها المعرِّفة!.. كانت المعرِّفة.. المعرِّفة تتوالى على ذِهنِّي، مُشرِّعةً نوَّافِذَهَا كلها.. فاتحةً أدرَّاف عقلي درفاً درفاً ومتدفقةً كسيل عارِّم..

رأيت فيما يرى الغافي أبنائي جميعهم. أخيَارَّهم وأشرَّارهم، ولم يؤرقني بينهم سِوَىٰ النخاسة والجنجويد، فسيكونون الأحب إلى نفسي، لكنهم مارقون!

انتبهت إلى سني.. لم أعد دون الأربعين.. هِمتُ في وَجهِهَا، وأنا لا زلت أتأمل سِحرَها:

"أنت حورِّية جميلة!"

حملقت في وجهي بدهشة:

"أنا ضلعٌ منك"

تحسست جانبي الأيسَّر، حيث شَعرتُ بذلك الألم الطفيف. أحنيت رأسي، وركنت إلى الصمت. لم يهاجمني إحساس بالجوعٍ أو العطش أو الإرهاق. كنت قد عدت نشيطا، ولكن مذهولاً حتى النُّخاع!

"لابد أنك."

سألتني، فأجَبت بسرعة:

"لا. لست مريضا.. أنني."

لم تترك لي الفرصة لأُكمل. إذ مدَّت يدها تتحسس فروَّة رأسي في رفق. تشنجت أعصابي وأنا أشعر بخيوط رفيعة سوداء تنمو على فروَّة رأسي الأقرع. قالت غاضبة:

"ألا تريدني أن ألمس رأسك؟"

اصطدمت راحة كفها المتشنج بفخذي، فمددت إحدى يدي بخوف وأنا أُشير باليد الأخرى إلى رأسي:

"لا ستَنمو خيوط كهذه."

لكن رِدَّة فعلها كانت أسرع. فقد مَسَّت راحتها الفخذ والنِّهايات الدَافئَّة، الرَّطبَة. أبعدتُ يدها بسرعة، وأنا أتراجع إلى الخلف. التقطت شعرَّة سقطت من شعرِها الأليل الطويل – كانت في شعرِها الغزِّير حالك السوَّاد، أجمل مما كانت عليه– تعاظم انبهاري بها. فتلاشى الصداع! وارتخَت ملامحها الغاضبة!

بدت سعيدة. سقطت شعرَّة على حِجرِها، فامتلأ ما بين فخذيها بالشَّعر.. رفعت يدها تُتكئ راحتها على خدِّها. سقطت شعرَّة أُخرَى أعلا عينيها، تبعتها أخرى فنَمى لها قوسان جميلان أعلى العينين. رفعت رأسها إلى أعلا، فرأت وجهها على صفحةِ الفضاء اللامتناهي الزُّرقة!

أحسست بها أروع شيء تراه عيناي في الوجود، الذي بدأتُ أُدركه حولي! مسَّت وجهي على نحوٍ مفاجئ، فتغطى وجهي بشعرٍ كثْ..

"ماذا تريدين مني؟"

"منك؟!"

رَدت باستنكار، والأطياف التي تمتد من ذوائب شعرِها إلى الشجرَّة، تتناسل فتنمو للشجرَّة أوراَّق عريضة بحجم الكف. لاحظت أن خيوطاً قزُّحية شفيفة تتماوَّج في حلقةٍ هَندسِيَّة مُتشابِكَة، تصل بين جَسدِها والشجرَّة ورأسي فقلت:

"لابد أن التَغيُّرات التي حدثت لنا، بسببِ الشجرَّة. أنها زيتونة مُهجنَّة بالتِّين"

فضحكت.. أردفَت:

"علينا أن نشكرها"

"وكيف نشكرها؟"

"أن نشرب من عصير ثمرِّها.. أن نأكل منها"

"نشرب.. نأكُل؟!"

اصدمَت نظرَاتي بصدرِها. فأطرَّقت في حياءٍ ماكر..

"رُبما هي شجرَّة سِدّرٍ أو حرَّاز!"

ثُم التفتت نحو الشجرَّة، وهي تُلقّي برأسها بعيداً.. رَفعت عَقيرَتها بصوتٍ كانطلاقِ العصَافيرِ في الصباحاتِ الحَالمَة، الحَافلَة بالظّلال الملوَّنة. صَعدت من بين أنغامِها نَوْرَسَة وحمائِم وهُدْهُدْ. تسلقت ساق الشَجرَّة، فصرَّخت فيها:

"ماذا تفعلين؟!"

فأخذت تبكي بحُرقة. فبدأ النَّهر يفور وتصطرِع أمواجه في عنف! كانت لا تَدرّي أن بإمكانِها أن تجعل هذا النِّيل، ينكفئ على ظَهرِه! وكُنتُ أُراقبهَا إلىٰ أن كَفَّت دموعها عن الجرَّيَان، بعد أن شَكَّلَّت في المَدىٰ اللانهائي غضب النَّهر!

"يجب أن نشرَّبَ من عَصيرِهَا!"

قالت، وكنتُ أخشىٰ تَجَدُدَ صِرَاخهَا، فقلت:

"على شرط أن تشرَّبي أنت أولاً!"

قطفت ثمرَّة. ضغطت عليها بخنوٍّ مُحدِثَةً فيها ثُقباً رَفيعاً.. وضعت شفتيها على الثُقبِ تمتصُ العَصّير.. ثم مدَّتها لي.. وضعتُ شفتيَ

على شفتيها المُرتسمتين على الثُقْبْ. لم يكن هناك عَصير كاف، فأدخلتُ لِسانّي ولَعَقْتْ. شَعَرَّت بجُزئي الأسفل يَتنَّملْ ثمٍ يَصحُو، وتسرّي فيه الحيَاة!

كلانا لحظتها كان يشعر بدوار خفيف وغَليَّان في عُروقه.. شيئاً فشيئاً تقلَّصَت أعصَابنا، مشدودةً كالوَتر.. هتفت بإحساس أُنثوي حالم:

"ألم أقل لك!"

وَقفت قِبالتها كالمسحور:

"أنت أُنثى رائعة!"

"أنا منك"

قالت بلهجة قاطعة، وتلاقينا. كنا نرتفع وتلامس أقدامنا سطح النّيل الهَادِر.. وكانت تلك هي المَرَّة الأُولىٰ التي تطأ فيها قدماي (أرض البلاد الكبيرة).

***

اكتملت استعدادات حفل التَتَوّيج. ثَمَّة جَيشين رَمزِّيين: جيش (الرَّث باناو)، وجيش (نِيْكَانْجْ).. كانت مُقدمة الجَيش تحمل تمثال نِيْكَانْجْ وإبنه (دَاَّكْ)، وقد مضىٰ علىٰ جَيشِ نِيْكَانْجْ الرَّمزي أيام وهو يسير، والنَّاس يتراكضون على جانبيه بحِرابهم في صفين، خِشيَّة ألا يعود الرَّث حتى يموت. وفي كل نُقطة من النّقاط الأربعَة، التي أرتاح فيها الجَيش ذُبح ثوراً أسوداً.

وكان النَّاس آخيراً بجرِهم للثَّور الأسود الآخر من ذَنبه، قد أعلَنوا بذلك وصولِهم إلىٰ محَطتهِ الآخيرَّة! حيث ستبدأ المعركَّة الرَّمزِّية بين الجَيشين. التي يُعلّن عَنها كالعَادَة، ببطحِ الثَّور علىٰ الأرض، ليتخطاه الرَّث باناو، مُلاقياً في شجَاعةِ جَيش نِيْكَانْجْ الذّي يَستهّل المَعرّكة، بضربِ جَيش باناو بسعَفِ النَّخيل، لينفض جيشِه عنه!

ومن ثم تدوِّي الطُبول، ويَرفع المحاربون عقائِرهم بغناءٍ حمَّاسي عذب:

"أجاك أقرع الطبل ليدوِّي،

على أرواح أجدادنا..

والطبل يدوِّي عنيفاً يا رفاقي،

وهأنذا أُلَوِّحُ برُمحي في يدِي،
وأرفعُ الصَّوت جهوراً، ثُم أُصلي..
وقُلْ، لقد عَادَ الرَّثُ إلينا..
وقُلْ، لقد عَادَ الرَّثُ إلينا..
لقد نجا الرَّثُ وعَادت البهجة..
وأنا أرفع ساعِدي قوياً..
فتولني إلٰهي وقوِّي ساعدي.“

ومن ثَمَّ تتقدمُ مفرزَةً من جَيشِ نِيْكَانْجْ لإعتقالِ الرَّث باناو، وهكذا يُصبح باناو منذ هذه اللحظة جُندياً في جَيشِ نِيْكَانْجْ، فيما يستمر جُزءٍ من جَيشِ نِيْكَانْجْ في تَعقُبِ ما تبقىٰ من جيشِ باناو، الذي تفرَّق وتبدد تحت ضربات السَعف!

***

ذهب الرَّث باناو بعد إنتهاء مَرَّاسِم التَتوِّيج، إلىٰ البُحيرَّة الجَافة، ليدور حولها أربعة مَرَّات، بصُحبةِ تمثال نِيْكَانْجْ الذِّي يَحمِله علىٰ كتفهِ. وقبل أن يرتد رَاجعاً، تبعته الفتاتان الجميلتان (ينادي) و(أوديت) لتصيرَّان زوجتيهِ المُحبتين إلىٰ الأبد!

تَنفست البِلاد الأسِيرَّة نَسيم الصَّباح البَاكِر مع الآذان، وَسط تَسكُعَات النَّاس الكسالىٰ، وصِياحِ الدَّيكة التي تناهبها الأرَّق، والعصَّافير التي خَلدَت إلىٰ وَكَّاتها مُبكِراً، واستيقظتُ قبل أن يُسفِرَ الفَجْرُ عَن نفسهِ، ليحمِل في زَقزَقاتِهَا أشِعَّة شَمسِ الصّبَاح الهَادِئة.

فيمَا كانَت وَقتئذ، الفَضَّاءات الرِّيفيَّة للبلاد الأسِيرَّة، مُنذ حلَّ بها الشَّيخ وَلِيِّ الدِّين الغَرِّيق في ظُهورِه الثَّانِي، بعد غياب طوِيل، قد تغيرَّت وما عَادت هِيَّ ذَات الفَضَّاءات القَديمَّة. كُلُّ شيءٍ بات يَستمَّد نُورَّه مِن نُورِ الغَرِّيق! الذِّي كَانَ النَّاس يشَعُرون به وكأَنَّهُم يكتشفونَه للمَرَّةِ الأولىٰ، جُزءً من جُغرَّافيا وتارِيخ المكان!

بيته الشَّامِخ الذِّي تُحَاصره الشُعب المُرجانيَّة مِن كُلِ جَانب، وتنتصب أمامه شجرَّة غريبة! لم يستطِع أحد إكتشاف سُلالتِها وأُصولِها بالضَّبط. ظَل مَثار رَهبَّة في نفوسِ الأهالي البُسطاء!

في البَدءِ البعيد لم يهتم أحد. وشيئا فشيئا ملأت حكاية الغَرِّيق عن نفسهِ الأسمَاع، وعندما عَاد مؤخراً، استيقظت في النَّاس كل الحكايات القديمة، التي حكاها الأسلاف عن الصَّبي الغارِّق في أعماقِ النِّيل.

وهكذا أخذوا يَتقرَّبون إليه، وكلٌ يَسعىٰ أن يكون له صفِيٍّ أو نَديم! ولم يكن الشَّيخ يفتأ يردد في قيلولاته المُهيبَة:

"كنتُ دون السادسة، عندما غرقت في (بحر أبوروف). لم أشعر بما يشعر به الغَرْقَىٰ. كل شيءٍ تَمَّ حسب المشيئة الإلٰهيَة."

ثم يتوقف ليُتَمتِم متلفتاً بعينيه، مستقرئاً الوجوهِ الضَائعة بعيونها الجاحظة حوله، قبل أن يواصل:

"ربما كُنت والحورِّية في بطنِ حُوت."

ويتلَمَس القرَّعة أمامه..

"أخذتني تلك الحورِّية إلى مدنٍ مائيَة بَعيدة.. ساحرَّة. حفظت فيها على يديها عُلومِ الآخرَّة، ولم يَفُتني من علم الدنيا شيء!.. علمتني أسرَّار الزَّمان والمكان، وذات يومٍ سألتني:

"ماذا ترىٰ في أمرنا؟!"

فأجبت دون تردد:

"حبيبتي ونور عيني. أنت مني وأنا منك"

"وبعد؟"

فعلمت مرماها وأدركت أن آوان رحيلي إلى البَّر قد أزِف، وأنني للبلاد الكبيرَّة خارج مَرَّة أُخرَّىٰ لا محالة!

"سأفعل"

"إذن يمِّم وجهك شِطر عطبرَّة"

فمضيت، ودلفت إلى دارٍ أُلهِمت أن فيها بُغيتي. دخلت إحدى غُرفها، تُحيطُني وتَسبِقُني هالة نورانية، يتقدمها شُعاع قادني إلى فتاة شاحِبة تغط في نومٍ عَميق..لا أدري ما خَطبُها، فقط وجدت نَفسي أنقاد.. أتحسس أنفها، فاستيقظت..

وخفتت هالة الضوء التي تُحيطني، وعاد للمكان اظلامه. فلم أشعر بنفسي إلا وأنا خارج عطبرَّة!.. بدت لي عطبرَّة، كأنني لم أطاها أو أدخل أحد بيوتها من قبل!.. ولم تمض على هذا الإحساس، سوى هُنيهات، حتى وجدت نفسي، قد عُدت إلى أعماقِ النَّهر مَرَّةً أُخرَى! فسألت الحُورِية:

"ما بها.. تلك الفتاة؟"

"تشكو من ألمٍ شديد في أنفها. تحسنَّت الآن"

وفي الليلة الثانية خرجت من البحر على مشارفِ عَطبرَّة، دخلتها وتكرَّر مني ما حدث في الليلةِ السابقة. كُنت مذهولاً لهذه القُدرَاتِ التي فجَّرتها الحورِّية فيَّ.

"والآن سترحل إلى وادي النِّحاس"

قالت الحورِّية بصوتٍ قاطع، وهكذا أفترقنا!

انقضت أيام وادي النِّحاس ووجدت نفسي بهذا البيت، أعيش كأهل البَّر، منذ فارقت تلك العوالم المائية الساحرَّة!

كان الخشوع والصمت المهيب قد رانًّا على أنصَّارِ الشيخ، وعيونهم تلتمع في إيمان تام.. وكانت الشمس وقتها.. شمس الصَّباح، في طريقها لمغادرة البِچلاد الأسيرَّة!

***

كان باناو الذي لم يُفرِّط في طَبل القرّية المقدَّس مُطلقاً، قد امتلك الشِّعار الملكي royal emblem مُنذ وقت مبكر. إذ قاتل لوقت طويل، في سبيلِ الاحتفاظ بالطَبلِ والشِّعار الملكي، وتنامىٰ حلُمه بالسُلطة، وهويرَىٰ الرَّث السابق يمُعِن في ظُلم الأهل والعَشيرَّة.

جلس باناو على عَرشِه، وقد التف حوله الشيوخ يُقدمون له النُّصح، كما جرَّت العَادة في أول كل عهدٍ جديد:

"لن تقف مع الحكومة ضد أبناء جلدتنا أيها الرَّث"

"نعم يا أبتي"

"ولن تظلم أحداً"

"قطعاً يا أبتي"

"وستحكم بشريعةِ الأسلاف"

"أجل يا أبتي"

واستمرَّت إحتفالاتِ تنصّيب باناو رثاً، برقصة (البَول) بلبسها المُمَيز، حيث ارتدت الفتيات جِلد العِجل فوق (اللاَوْو)، وتحلَّين بالخرَّز الملوَّن. فيما بدت أجسَاد الشبَان والشابَات لامعة بالزيوت وزَاهِيَّة بالأصباَغ..

وقد وَضع الشّبَان -دون غيرِّهم- على رؤوسِهم الرِّيش الملوَّن، وحملوا العصّي والحرَّاب اللامعَة، المُزينَة بالرِّيشِ والصُّوف الأبيَض. وكانت رائَحة (المَرِيْسَّة) قد ملأت الجو بعبَقِها الزَّنخ! فيما صَوت الطبول وصيحاتِ الشبان وتلويحاتهم بالعِصِي والرِّماح، تُضفِي على المكان طقساً رائعاً. يتداح فيه كل فتىًّ مع فتاتهِ وهو يُراقصها، فترفع يديها معه إلى أعلا في حرَكة مُثيرَّة، وهما يدوران في إيقاعٍ مُتسِق، تكاد فيه أجسادهما تلتصق.

***

يقول الذين يدَّعون إمتلاك ناصِية العِلم بالأنسابِ في البِلاد الأسيرَّة، أن حكاية الشيخ وَلِّي الدِّين الغَرِّيق عن نفسه، لا تشوبها شائبة شك. فهو في الأصل إبن تُرب الدِّين فودي، الذي جاء في القرن التاسع عشر إلى البلاد الكبيرة من غرب أفريقيا. عندما

كان في طريقه إلى الأراضي المقدَّسة، مثل كل الذين يحجون من غرب أفريقيا وقتها، يعبرون البلاد الكبيرة عن طريق درب الأربعين!

وهو في منتصف المسافة في درب الأربعين، سمع بالمهدي، وكان قبلها بأكثر من عقد من الزَّمان، قد رأى رؤية تفيد أن مهدي آخر الزمان، سيظهر في البلاد الكبيرة، وهكذا ما أن سمع بمحمد أحمد إبن عبدالله، يعلن مهديته، التي كان عبدالله التعايشي، قد أقنعه بها، بعد أن فشل في إقناع تاجر الرقيق الزبير باشا، الذي كان قد كاد يقتله نتيجة هذا الزَّعم، حتى أصبح تُرب الدِّين فودي، أحد أكثر مريديه المتحمسين!

قال البعض أنه سكن إلى جوارِ الأمير أبوروف، في أرض اقتطعها له من ريعه الشاسع، وزوجه من إحدى سرَّارِّيه، اللاتي جاء بهن بعض رفاقه من تجار الرقيق، الذين كانوا قد خاضوا مع الزبير باشا رحمة، غزواته في خط الاستواء.

أنجب تُرب الدِّين فودي من تلك الاستوائية تُرب الدِّين الثاني، الذي وَرِّث أباه وحل محلَّه بعد أن قُتل الأخير في مكة لإدعائه النبوَّة!

وعندما كبر تُرب الدِّين الثاني، تزوج من إحدى بدويات حي العرب، التي انجبت له وَلِّي الدِّين الغَرِّيق، هذا الذي كان يعشق نهر النيل منذ زغب طفولته -قيل- حتى أنه كان يُمْعِن في التصريح بمقته للتعايشي، تيس الخلاء المكَّادي، سليل الوِديَان والقيزَّان والصحارى، (عشا البايتات كُحل السراري)، كلما وردت سيرَّة البحر وأولاد البحر.

كان ثمَّة حنين جارف يدفعه لعشق البحر والنخيل، وكان دائم الجلوس القرفصاء أمام النهر، إلى أن أخذه الهدَّام في إحدى الصبيحات الموغِلَّة في البعد.

لكن ثمَّة رواية أخرى تفيد أن أباه ثمرَّة زواج جَدَّه من جِنّيَة، وثمَّة رواية أخرى تعارض هذه الرِّواية، إذ تؤكد أن جَدَّه فودي إنما أتى به الانجليز فيمن أُتيَ بهم من غرب إفريقيا، للعمل بمشروع الجزيرَّة، بدلاً عن العمالة الهندية الكسولة ومرتفعة الكُلفَة، وهكذا تنقلب الرِّوايتان رأسا على عقب في إنكفاء مبهم تضيع تحته التواريخ والأزمنة والحقب!

ولكن الثابت أنه شيخ واصل -كما يؤكد كثيرون- حتى يقال أنه (يروِّب) الموية، ويحوِّل اللبن إلى خمر معتق!

***

مرَّت شهور الحزن الثلاثة، وشعر الرَّث باناو، بإحساس عميق بالراحة، فآخيراً أنهى أولى واجباته كرَّث جديد، بتقسيم ميرَّاث الرَّث القتيل، دون مشكلات تعترضه مع الورَّثة!

وفي تلك الصبيحة الهادئة، تمطى باناو وهو يقف أمام كوخه. تفقد (اللَّوَّاك) ليطمئن على الماشية، ولم يفته أن يلتفت إلى العشش التي تحيطها، وتحوِّي زوجاته التسع. وفيما هو غارق في خواطره، قَدِم إبنه الأكبر مجوك، ليرفع التقرِّير الصباحي اليومي عن أشقائه، خاصة الصغير (لانجور) الذي كان باناو يحبه كثيراً. لما رآه فيه من علائم الذكاء الحاد دوناً عن أخوته الآخرين!

هزَّ باناو رأسه وأشار إلى مجوك بأن ينصرف، ثم قفل راجعاً إلى عُشته. جلس على جلد الجاموس الذي دُبغ في كمبالا بعناية، ومدَّ يده ليأخذ آنية الفخار، فسبقته زوجته الصغيرَّة الجميلة (يينادي) التي لفرط جمالها لقبها على بقرته السمراء، التي هي أكثر ما يحب في هذه الحياة بعد صغيرِه لانجور وأشقائه.

مدَّت له يينادي طبق اللحم المجفف، الذي أتى به الصيادون من (شجرَّة اللحم) الموسم الماضي:

"كيف ستسَوي أمر مجوك؟"

بادرته فيما كان يلتقط قطعة كبيرَّة من اللحم المجفف، ثم قال:

"تقصدين زواجه؟.. لاشيء سوى أن نبدأ بعد الأبقار منذ الآن"

"لا أعني هذا، أقصد هل تأكدت أن لاقرابة تجمع بينها وبيننا؟"

"أن قبيلتها مختلفة فلا تقلقي، لقد تأكدت أن لا قرابة تجمعهم بقبيلتنا. فهي مثل هيلدا. منْشأها يرجع إلىٰ جِنْ"

"حسناً، لماذا لا ينتظر مجوك حتى نصل إلى الأرض الجديدة؟"

"الرَّحيل إلى الأرض الجديدة ليس مؤكداً بعد"

"هناك أمر آخر.. مجوك يريد بعض أبقار قريبنا الميت"

"أنه لا يُطيعني!.. أخبرته عن رغبتي في تزويجه بإسم قريبنا الميت فرفض! قال أنه يُريد أن تكون أول زوجة خالصة له، وبعد ذلك سيفكر في أن يقبل بزوجة ثانية بإسم قريبنا الميت"

"لكن هكذا لن تهدأ روح قريبنا الميت يا باناو؟"

"أعلم ذلك.. أعلم، لكن ماذا ترين؟"

"طالما مجوك رفض، يجب أن تعرض الأمر على شقيقه أويل، فقد يقبل، وإلا ستحل علينا اللعنة!.. لكن لماذا قُلت أن الرَّحيل إلى الأرض الجديدة ليس مؤكداً.. ما الذي تخفيه عني؟"

"أنت تعلمين يا بقرتي السمراء، أنني لا أستطيع إخفاء شيئا عنك، حتى لو رغبتي في ذلك، كل ما في الأمر أنني لا زلت أُفكر مع الشيوخ، في البحث عن مكان أفضل. لقد عاد بالأمس (لابساً جلد الفهد) الذي أرسلته خلف الثَّور. الذي لاحظنا على روثه حبوب الذُّرَّة"

"لقد غاب طويلاً!.. أين أنتهت مراقبته للثَّور؟"

"لقد قطع الثَّور مسافات طويلة، تتخللها الغابات والوديان والجبال، إلى أن وصل إلى أرض خضراء خصبة كجنة دينق.. مثلما توقعنا.. كان الثَّور يختفي حيث المزَّارع الخضراء و(الدوكات) الكبيرة"

"وإذن هل ستكفي تلك الأرض عشيرتنا كلها؟!"

"نعم، ستكون للجميع مزارع كبيرَّة أكبر وأخصب من مزارعهم هنا. وسنتمكن آخيراً من زراعة (التنباك) والقطن والذُّرَّة واللوبيا"

"لكن هل تأكد لابساً جلد الفهد، أن تلك الأرض لا تخص عشيرَّة أُخرَّىٰ، وهل أن ثَمَّة من يسكن قريبا منها أم لا؟!"

"نعم.. نعم، لقد رأى قريباً منها بعض القوم لكنهم قِلَّة"

"ماذا لو حاولوا منعنا؟!"

"سنقاتلهم ونقتلهم أونطرُدهم مثلما طرد نِيْكَانْجْ الفونج"

***

وادي النِّحاس.. هذه البلدة التي شَهِدَّت صباي، بقبابها المسطحة المصنوعة من القش والطين، وخلاويها العارِّية من الجدران والأسقف، وشيوخها الغلاظ المغرمين بالغلط في أتفه الأمور إلىٰ درجة الفجور في العدَّاوة!

في وادي النِّحاس اليوم بألف سنة!.. وفي وادي النِّحاس يُعبد الله وفقا للمزاج والصدفة، وبطريقة خاصة جداً، خالية من أي مشاعر دينية صادقة.. طريقة ابتكرها النَّاس مزيجاً من تراثهم الغابر، وتداخلات عناصر الثقافات الأخرى التي مرَّت على وادي النِّحاس عبر العصور.

ربما يرتلون القرآن ويصلون وهم سُكارىٰ.. وربما تُفتَضْ بكارة البنت دون عقد فلا يقال سوى (البنت كُسِرَّت). في وادي

النِّحاس لا قصاص، فلا أحد يُجلد أو يُغرَّب لعام أو بعض عام، حتى لو شاهده أكثر عدداً من الأربع العدول، فقاعدة المِرواد في المكحلة، لا وجود لها إلا في المتواتر الذِّهْنِّي دون جُغرَّافيا بعينها.

لا أحد يُرجَم بأي نوع من الحجارة، فالشيخ هو الحاكم بأمر الله، الذي دائماً تكون عقوبته غرَّامة يُلقيها على مسامع الحضور، ويمضي كلٌ إلى حال سبيله، سواءً ألقىٰ التحية أو لم يلقِها.. كأن الأمر لا يعنيه! وربما يُنسب المولود لكاسِر البنت في حال قبوله الزواج منها، وقد يحمل المولود إسم غيرِه إذا تزوجها دون غضاضة! فعلى العموم مثل هذا الأمر ليس من الأمور التي تُهدد مستقبل ومصير وأمن شعب وادي النِّحاس، أو أيٍّ من الشعوب المجاوِرَّة التي تربطه بها صِلات الدَّم.

في وادي النِّحاس ليس ثَمَّة شيء إسمه السُكْر! فالخمر البلدي (المَرَّيْسَة) هو الغذاء الرئيسي لشعب وادي النِّحاس. فشعب وادي النِّحاس ينتمي لحضارة عرِّيقة لا تجد من يتفهمها! فالديار المجاوِرَّة التي رُغم صِلات الرَّحِم ضاربة الجذور، بعد أن تقمصَّت ثقافة بدو الصحراء، الذين يعيشون خلف تخوم البحر الملوَّن، حيث تُشرق الشمس مكتئبة، فتنكَّرت لثقافة أسلافها البائدين، تمرَدت على حضارة وادي النِّحاس، ولم يعُد لها هم سوى محاكمتها!

أول واقعة جلدٍ في وادي النِّحاس بسبب الجنس -أو الحب أو الرِّيد- وما أصبحَ اسمه المعاصر في وادي النحاس (زنا) حدثت عندما وفد من تُخوم الصَحراء ما وراء البحر الملوَّن، شيوخ أقحاح معممين، موشومين الجباه، يتبخترون في عباءات زاهية ترتج تحتها أردافهم المكتنِزَّة!

كُنت في أوج مراهقتي وأنا أُشارف على خَتم القرآن في خلوىٰ الفكي إبراهيم قرض، وفي ذات شبقٍ عارم تآمرت وصديقي الغَرِّيق على صُغرى زوجات الشيخ، الذي كان قد اعتاد ارسالنا لجلب طعام الحيرَّان من بيته، الذي يُلاصق الخلوىٰ!

في ذلك اليوم عندما دخلت تعمدت الاحتكاك بجسمها اللدن، فارتعشت من قمة رأسها حتى أخمص قدميها، كان جسمها الغض منفعلاً، كأن تياراً مائياً عنيفاً يغادر وادي أزوم الهادر، ليعبر متخللاً شرايينها. الأمر الذي شجعنِّي على مباغتتها بجُرأَة، أدركت بعد وقت طويل أنها إنما كانت وقاحة مني:

"يجب أن نفعل ذلك"

فردت كالمسحورة التي لا حول ولا قُوَّة لها:

"تعال عندما ينشغل الشيخ بدرسه"

وهكذا بدأت اتغيب عن حلقة الشيخ، إلى أن فوجئت به يوماً يقف عند رأسينا!.. وأنا وزوجته الصغيرَّة الجميلة شبه عاريين! هتف بالحيرَّان مزبداً ومتوعداً وتكالب معهم علىَّ[1].

ربطوني على جذع شجرَّة قاسية الساق، وجُلِّدتُ كما لم يُجلد أحداً من قبل. وعندما أُطلِق سراحي لم أرتاح للأمر، فبحثت فيه وعلمت أن الغرِّيق الخبيث هو من وشىّ بي، وكشف أمري. فأزمَعت في نفسي الانتقام.

كَمِنْتُ للشيخ وأنا أترصد مجيئه وذهابه في الوَّادي، إلى أن انفردت به ذات يوم وهو يمشِّي وحده، يتقدمه حمارَّه الهَرِّم، فهجمت عليه وأوسعته ضربا مبرحاً. وظللت بعدها أكمن للغرِّيق حتى استفردت به.

ما أثار دهشتي اكتشافي أن الغَرِّيق كان غُلام الفكي قرض.. في البَدءْ روَّعَنِّي هذا الاكتشاف، إذ لم أتصَوَّر يوماً أن الفكي قرض، على علاقةٍ سِرِّية بالغرِّيق وأي علاقة!

تنهد تَقِي وَد زَهَرَّة، رَيثما يبتلع غَصَّةً اعترضت حلقه!

***

كان الأطفال يجلسون وحدهم، وكذلك الشّبان والشّابات والنسَاء والرِّجال. في تشكِيلٍ بَديع. كلٌ كان يأكل مع بَنِّي جنسه أو أقرانه، ويناقش هموم سِنهِ أو نوعهِ. وبعد أن فرغ الشّبان من سردياتهم الحميمَّة، التِي لا تخلو من سعة في الخيال لمغامراتهم الملتهبة مع فتيات القبيلة، بدىٰ عليهم التحفز حالما انحرفت المسامرَّات تتناول سيرَّة رجال المقاومة.

كان أكثرِيتهم يُفكرون في اللحاقِ بأصدقائهم، الذين سبقوهم للانضمام إلى رجال (حركة وجيش الرُّمح المقدس) التي بدأت معسكراتها تنتشر في مجاهيل الغابات.

فيما كانت مسامرات الرجال مختلفة، فالحديث عن الأرض الجديدة التي أصبحوا يحلُمون بها، كان الشاغل الذي يتصدَّر أحاديثهم ويستنفدها، فلا يمرُّون إلا مرور العابر على الهموم الأخرى، التي تؤرِق بال القبيلة. قال الحكيم شُول:

"آن أوان وضع العلامات المميزَّة، على جبين الصبية الذين على أعتابِ سن الرجولة"

قاطعه الرَّث باناو:

"ماذا لو أجلنا هذا الأمر إلىٰ ما بعد ذهاب الشّبان بالماشية"

"لكن هكذا سيطول الأمر إلى أن نلحق بهم"

منذ غادروا (دَوك غُودِيت) وهم يتنقلون من مكان لآخر. عندما كانوا يُقيمون في ﴿دوك فَانوِّيل)، كانت الأرض خصبَة والمياه وفيرَّة. وبسبب المياه المتراكمة، كانوا يضطرون إلى رفع منازلهم على أعمدة الأشجارعن سطح الأرض، إلى أن قرر الزعيم (أكوّي كَاكَاب) الهجرَّة بهم.

لم ترحل روح الزَّعيم أكوّي كَاكَاب، إذ أخذت تنتقل إلى سلالته جيلا فجيل (كَوَّارِيثْ، نَيَارِثْ وكَوَّانِيرِيثْ)، حينها كان الزَّعيم (قرنق) قد قرر تقسيم الماشية على إبنيه (دِينجْ) رَّب الخير والمطر والعشب، و (أَبيونِيقْ) الشرِّير، فأعطى دِينجْ بقرَّة صغيرَّة. وأعطى أَبيُونِيْقْ بقرَّة عجوز، وكان لكلٍ منهما مناصريه على الآخر، وكانت تلك هي بداية انقسام القبيلة. وكان أكوّي كَاكَاب يحب أخيه الاصغر دَينْقْ، فلم يشأ تركه خلفه، وهكذا بدأت أيام الرَّحيل المُزمِن!

تنهد الحكيم وانْدِينْقْ بِينْقْ، وهو يحكي عن رحلة الأسلاف مضيفا:

"الآن ها نحن مرَّةً أخرى نكرِّر رِحلة أكوّي كَاكَاب إلى أرض أفضل ودَوْكَاتَهَا أكبر"

كان الوقت قد مرَّ سريعاً، دون أن يشعر به أحداً، إلا بعد وقت ليس بقصير من تسلل خُيوط الفجر الأولىٰ، عندها انفض الأطفال والنساء والشّبان. فيما ذهب الرِّجال إلى صيد السمك، وتناثر الشِّبان على ضِفاف النَّهر، يصلون نهارهم بليلهم، وهم يتغنون في إيقاع متسق، ويراقبون من مرَّاقِدِهم الماشية التي كانت تَرْعىٰ في دَعةٍ وحُبُور.

بينما كان باناو في هذه اللحظة، جالسا في عُشته، يُدخِن بلذة كبيرَّة، وأمامه السَّمك واللبن والعصِّيدة، مستغرقاً في تصَّورَّاتٍ وأحلام مخمّلِّيَة بعيدة، لا تفتأ تتخللها حكايات الأسلافَ، والمسامرَّات التي تجلى فيها الحكيم وانْدِيّنْقْ بِيّنْقْ ليلة البارحة!

وعلى نحوٍ غير متوقع، دعا نانخ القرن أهالي القرية، إلى العودة من مخادعهم، لأداءِ رقصة (الرَّوْم بِنِيْ). حتى تكتمل الاحتفالات بالعهد الجديد.

كان صوت القرن الحاد الذي ملأ فضاءات القرية الوادعة، قد تسرَّب إلى مسامع أحلام من ناموا من تعب ليلة البارحة، فاستيقظوا نشطين كأنهم لم يلبثوا في نومهم سوى وقت قليل، قبل أن يخترق صوت القرن، قِيعانِ لا وعيهم فيدفع بكل شيءٍ إلىٰ سطحِ الذَّاكرة!

وفيما تجمع الشِّبان والرِّجال، الذين لم يخلدوا إلىٰ مخادِعِهم بعد، وتحلقوا جميعاً حول النُّقارة، كان الأطفال الذين لم يكفوا عن الحرَّكة لأيام، يحاولون في استماتة النُّهوض من عناقريبهم، دون جدوى، بعد أن ضرب عليهم النُّعاس بكلكله غطاء من الرَّهق المقيم، سلبهم القُدرَّة على الصَّحو التام، فظلوا عالقين بين اليقظة والأحلام الطفولية الشقيَّة!

ومن ثَمَّ شرع قائد الغِنّاء يُغنِّي بصوت مرتفع وجميل، وهو يتقافز داخل الدائرَّة التي التف حولها النَّاس، من جانب لآخر، ملوحاً برمحه في الهواء!

ثم لم يَلبَث أن شاركه بعض الشِّبان والرِّجال الغِنّاء، وهم يتقافزون حوله في ايقاع موحد. فيما كانت النساء تتوسطهن (أبودوك) في ثوبها (الأَبَانْو) السَّاحر والمثِّير، الذي كشف عن مفاتنها الكارثية! يُرَدِدْنَ خلف الرِّجال بصوت عذب، الغِنَّاء المحموم، فتُصاب الطبيعة حولهِنَّ بالغبن والخَدَرِ اللذِّيذ!

وبقدر ما كانت جَاكْلِّين إبنة الرَّث بانَاو فرحة بمشاركة أبودوك لأهل قريتها فرحتهم، كانت في الوقت نفسه فرحةً للفرح ذاته، فَبدىٰ واضحاً أن الطرَّب وربما المَرّيْسَّة أيضا قد استخفا بها أيما استخفاف!

وعلى نحوٍ مفاجئ نهضت أبودوك من مجلِسِها وسط الفتيات، ودلفت إلى الحلقة وأخذت تُراقص مَجوك، الذي فوجئ فأُخذ بها، ولم يتمكن من التماسك إلا بعد مضي وقت خاله حينا طويلاً من الدَّهر، فتجرأ وأخذ يعدّدَ لها صفاته وميزَّاته، ما دفعها للتوقف عن الرقص، والتَّراجع نافرةً من حلقة الرَّقص لا تلوي على شيء.

وكعادتها ستندم بعد مضي وقت قصير، فمن منغصات حياتها أنها لا تستطيع التحكم في ردود أفعالها، ولا تدري لماذا يكون النَّفور بالذات هو رَدِ فعلها تجاه المحاولات الدؤوبة، للشّبان للتقرُّبِ منها مأخوذين بجمالها الساحر، وجسمها الفاتن الذي لا يستطيعون مقاومة سطوة إخضاعه لرغباتهم، وإطلاق شياطين الجحيم الجنجويد والجن الهمباتة في دمائهم، فيصبحون كالمسيرِّين لا يعون لأنفسهم شيئا!

وكالعادة عندما يفيقون من غيبوبَاتهم المؤقتة، يكتشفون -كما هو متوقع دائماً- أنهم لم يحصلوا من أبادُوك سوى على قبض الريح.

***

يحكي الثُقاة من أهل البلاد الكبيرة في حديثهم عن تقي ود زهرَّة، أن الأخير إنما كان متيماً إثر غانية رمّته بلحاظها، وأضنى طيفها مرقده، لم تُقِل عثرته وأومقته وأصبته. بكى صدودها وساءه من الصبر مساء، إذ أن الزهراء كان عاشقاً لزوجة الشيخ شفه التبريح!

وفي الليلة الأولى التي تآمر فيها مع الغرِّيق، وصار ما صار. تبيَّن في أصحابه عوازل ووشاة، فأحزن الأمر أمه وأصحرها..

وقتها لم يرى (ود زهرة) في الآخرين سوى الجحيم: غربان بين ودعاة نأي وحسدة تداني -قال- وانصرف عنهم غير مبال، ولما ضاق به الحال تغرَّب عن دياره، لا يعرف له وطناً ولا أهلاً ولا صاحباً.

من قائل أنه مات وهو يُمعن السُرَّى في مسالك الصحراء غرب وادي النِّحاس، غير هياب لسباسِبها ووِهادِها أو مسترشدا بصوىٰ ساريها وعلامات طريقها!

ومن قائل أنه اعتزل النَّاس مثلما كان بعض أسلافه في الربع الأخير من كل قرن: يغيب ولا يظهر إلا بعد إثني عشر حولاً -العهدة على الراوي- وعندما يعود يكون جبينه كالقمر الأزهر ليلة أربع عشر. والثابت بين هذا وذاك، أن الفتى إنما كان صرِّيع هوى ما أفاق، وقريع جوى مُنِّيَ من أحبابه بالفراق!

عندما بدأت الأمطار في الهطول، كان باناو يمسح الرَّماد الذي بكفه على ظهر ثوره المحبب، وهو يشعر بروحه تصفو وتتسامى، وتغيِّبه في خدرٍ لذيذ هاديء كالضوء، يسحبه بِبُطءٍ شديد..

كان لحظتها يتصل بالآلهة، ويقول بصوت متوسل خافت: "(كَضْ) ساعدني في زواج مجوك، واجعله مباركا وأطرد اللعنَّة عنا."

وعندما كاد باناو أن يُنهي توسلات طقسه الدِّيني، كان مجوك لحظتها قادما من الخلاء، يحمل بعض الجذور والحبوب والفواكه..

"آمين"

قال مجوك وهو يقترب من باناو الذي بادره بالسؤال:

"هل نظفت اللواك يا بُني؟"

"نعم يا أبي"

"وهل ألبست البقرَّة السمراء حُلِّيها؟"

"ليس بعد"

"إذن لابد أنك ستفعل في الصباح؟"

"نعم، سأفعل يا أبي.. أثمة أخبار جديدة عن الأرض الجديدة؟!"

"أنها أرض يعتني بها (كَولْ) جيداً"

"فليباركها الرَّب كَولْ.. إذن سنمضي قريباً؟"

"فليكن الرَّب (رِيو) معنا يا بني"

"عرفت أن ثَمَّة قوم يعيشون قُرب الأرض الجديدة؟"

"ماذا سنفعل معهم؟!"

"سنعرض عليهم الاندماج في عشيرتنا، فنحن أكثر"

"وإن رفضوا"

"أجن توك نات؟"

وضحكا بانشراح. فبانت أسنان باناو الأربعة الأمامية فراغاً فاغراً. فيما كان لانجور في هذه اللحظة يتجه نحو اللواك، ليحلب البقرَّة، وما أن رآه مجوك حتى صرخ فيه:

"لانجور.. توقف يا لانجور لن يشرب أحد الشبان حليبك لو فعلت"

لحظتها مرَّ ثعبان بسرعة بين قدمي لانجور، فأخذ لانجور يطارده ليقتله.

"اه لانجور، لا تفعل.. أنه مقدس"

هتف فيه باناو مؤكدا:

"اسمع كلام أخوك الكبير يا صغِّيرِي"

فزمجر لانجور:

"لكن ساحلب البقرَّة."

التفت باناو إلى مجوك:

"دعه وشأنه لقد ركب رأسه"

"كيف ذلك يا أبي أنه صغير لا يزال يأكل الدجاج؟!"

"أنت أيضاً كنت تأكل الدجاج مثله"

"لكنني أصبحت رجلاً الآن"

"رجل؟ آه لقد ذكرتني أيها الرَّجل، هل أرسلت رأس حربتك والخرزَّة البيضاء إلى والد البنت التي اخترتها للزواج؟"

"أنها صديقة اختي جاكلين. أبدُوك إبنة العم جوزيف، أرسلتها ولم يردها لي. لكنها تنفر مني. كما أنها لم تعد تأتي إلى جاكلين!"

قال باناو محذرا:

"لن تتزوجها دون موافقتها، صحيح؟"

ابتسم مجوك في قنوط:

"لو كنت أريد لفعلت، كما أنها لا تزال صغِيَّرة"

"لكنها سرعان ما ستكبُر"

"عندما تكبر لن تنفر مني"

"إذن انتظر ودع ذلك للزَّمن"

"وددت لو أعلمها أنا أو يعلمها الزَّمن وهي عندي"

ضحك باناو:

"حقا أنت حفيد نِيْكَانْج العظيم. هناك أمر آخر."

تساءل مجوك مستفهماً:

"ماذا؟"

"بقرة جَدَّتك الميتة"

"ألم تهبها للانجور؟"

"أعني كيف حالها؟"

"لانجور يعتني بها جيداً"

"سرعان ما تنقضي العُطلة ويمضي إلى دراسته. أُريد منك أن تتولى رعايتها له في غيابه"

زمجر مجوك متذمراً:

"منذ دخل المدرسة ولم يعد هو لانجور ذاته الذي نعرفه يا أبي، صار لا يأبه لمواريثنا ولا يحب النَّاس ولا يسمع كلام أحد. يعيش لوحده باستمرار"

"لا تقلق عليه يا بني. دعني أنا أقلق حياله"

"أنه يداوم على الذهاب لزيارة صديقك (المُنْدُكُورُوْ)"

"تعني عبد الله؟"

"هو"

"ربما تعلمه زياراته له أشياء مفيدة. دعه يتعلم"

"لكن؟"

"لا تقلق يا بني، لانجور مثلك حفيد نِيْكَانْج العظيم.. أخبرني المزيد عن فتاتك أبدوك.. ربما المدرسة هي التي جعلتها نافِرَّة هكذا مثل لانجور؟!"

"لا أعني ذلك."

"إذن؟!"

"علمت أنها وُلدت بعد موت جَدَّتها"

"إذن بعد أبقار المَهَرْ لن نُعطيها بقرَّة تخُصَّها؟!"

"نعم"

"إذن احرص على ألا تحتوي أبقار المَهَرْ على ثور ببيضة واحدة"

***

فوجئ باناو عند دخوله عُشَّة زوجته أوديت، بأنها كانت تستفرِّغ. رآها تتلوى أمامه في ألم، فقفل راجعاً بسرعة إلى مجوك الذي بادره بارتياع وقلق:

"ماذا هناك يا أبي؟"

"اذهب إلى الرَّب وانْدِينْقْ بِينْقْ، أخبره أن زوجة الرَّث مريضة، ولا يستطيع حملَّها إليه"

كان باناو يخشى أن يكون الأسلاف غاضبين عليه، لقتله الرَّث السابق، فارسلو له (جَوك كُولانق) ليقتص منه في زوجته الصغيرَّة التي يحبها كثيرا.. كان قلقاً. موتوراً. وهو ينتظر خروج وانْدِينْقْ بِينْقْ على أحرَّ من الجَمر.

تغولته فجأةً موجة من الصفح، فهام في داخله. كانت (أتّيِيبْ) تخرج منه تتحوَّل إلى آمال بعيدة، تلتقي بأتّيِيبْ جَدَّته التي ماتت حديثاً التي تبتسم له:

"لا تخف باناو ستكون أوديت بخير"

وتشير إليه وإلى البعيد:

"لقد طمأنتني أتّيِيبْ جَدَّك عليها"

فتح باناو بعدها عينيه في بطءٍ وهو يشعر بارتياح..

"(أشِيْك) هو السبب أيها الزَّعيم"

ألقى وانْدِينْقْ بِينْقْ كلماته وهو يهم بالانصراف، فيما دخل باناو على زوجته. حملها من الجلد الذي تنام عليه وهو يشكر الرَّب وانْدِينْقْ بِينْقْ..

ارقدها على السرِّير الخَشَّبِي، وخرج مسرعا يتبرك بقبابِ الأسلاف. انتابه شعور عميق بالرَّاحة، وهو يتأمل القباب. كان

يثق أن الأجداد ليسوا غاضبين عليه. لقد أخبره الرَّب وانْدِينْقْ بِينْقْ، أن أشِيك هو السبب، وهذا يعني أن ثَمَّة مولود مرتقب!

منذ دخل لانجور المدرسة الأولية، لم تعد القرية تمثل له تلك الحياة السابقة، التي كان يحياها. كان عقله الصَغِّير يعمل بطاقة جبارَّة في عزلته المحببة، التي يحاول أن يتأمل فيها كل شئ حوله، ليكتشف هذا العالم الجديد الذي يحيط به.

تمخضت أوديت عن مولودها، وكعادة العشيرَّة أخذته إلى منزل جَدَّته، وكان على باناو ألا يرَّى مكان الولادة لثلاثين يوما قادمة، حتى لا تتسبب رؤيته مكان الولادة، في موت الطفل الوليد.

جلس باناو أمام عُشَّتِه. تحت ظل شجرَّة الباباي الضخمة، حيث يقضي قيلولاته السعيدة في اطمئنان تام، وهو يشرب المَرِّيْسَة من الآنية الفَخارِّيَة التي أمامه.

فيما كان (بنج وَت) و(تِيْتْ دِّيْ رَّاجْ) و(تِيْتْ دِّيْ رَّبْ) قادمون شطر الرَّث ليهنؤنه بالمولود الجديد، ويجتمعون به في بعض شئون القبيلة.

تجاذبوا أطراف الحديث حول الشؤون العامة للقرية، والتي كالعادة تصدرَّها الحديث عن الأرض الجديدة..

"يجب أن نبعث فريقا من المحاربين لاستِطلاعها"

قال رئيس الحربة الذي لم يستطع الاستطراد، إزاء صوت بَاروت الضَّاج وهو قادم يجر إبنته خلفه. هتف به باناو:

"ماذا هُناك. لماذا أنت غاضب هكذا يا بَاروت؟"

"لقد اغتصب أبْيوك إبنتي أكِيديا"

"كيف حدث ذلك؟"

"هاجمها عندما كانت تُنظِّف الحقل من الحشائش"

التفت باناو ناحية تِيْتْ دِّيْ رَّاجْ:

"اذهب واستدعه حالا"

***

ختم باناو حديثه مع من حوله، ملتفتا إلى أكيديا مرَّةً أخرى، وهو يتفرَّسها بتمهل. كانت رغم ملامحها المنكسرَّة ونظراتها الشارِّدة، بِرِّية الأُنوثة تحت (الأشِينو) الممزَّق، الذي يلتف حول خصرها ويتدلى بين ركبتيها..

"قلت كيف حدث ذلك يا إبنتي؟"

قالت بعد تردد حسمته نظرات والدها القاسية:

"كنت أُنظف (الأقُونُّو) في الحقل عندما هجم على أبيوك دون أن أشعر به. وقتها كان المطر قد بدأ في الهطول"

"وهل تكلم أبْيوك؟"

"لقد تم كل شيءٍ في عُنفٍ صامت. لقد قاوَّمته فمزَّق الأشِينو!"

حينها كان تِيْتْ دِّيْ رَّاجْ قد عاد يجر خلفه أبيوك..

"أكيديا تقول أنك اغتصبتها في وقتٍ مقدَّس؟"

حنَّى أبيوك رأسه في خنوع، ونظراته تنكفئ على الأرض. ثم قال بعد فترَّة من الصمت الحاد:

"سأدفع الغرَّامة"

التفت باناو تجاه بَاروت:

"كم تريد؟"

"ستون بقرة"

هَتف أبْيوك:

"لكن هذا كثير؟!"

حسمه باناو:

"إنها عذرَّاء، وأنت اغتصبتها في وقتٍ مقدس.. إذن فليكن المجموع مائةِ بقرَّة"

"لكن!"

حسمَّه باناو بنظرَّة متوعدَّة، تحمل الكثير من المعاني، فلم يجرؤ على إضافة شئ. بعدها التفت باناو إلى أكيديا غامزاً:

"أكان ذلك ممتعاً"

كسرَّت أكيديا نظرَّاتها في حياء، وهي ترمق أبيوك خلسة بنظرات لا تخلو من رَّغبة!

***

كانت أبودوك تضع رأسها على حِجر جَدَّتها، وهي تصطنت في اهتمام لأحاديث الجدَّة عن الأسلاف..

"لقد وُلدت جَدَّتك الأولى (أبودوك) هنا.. لقد اختلط دَّمنا بدَّمِ هؤلاء القوم. كانت جميلةً مثلك. فاتنةً وشرسة، وتقاتل كما يقاتل لابسو جلد الفهد. الجميع يهاب سطوَّتها. لم يتمكن أحد من هزيمتها قط!

وبعد اغتيال الرَّث (قَوْلْ) تم تنصيبها ملكةً. لم يكن ثَمَّة من هو أجدَّر منها.. وقتها لم تكن (فَشُوّدَّة) قد ظهرت على سطح الوجود، فاتخذت من (تَوَّرُوْ) مقراً لحكمها.

أُحضِرَّت حجارَّة تتويجها من جبال النوبة المقدسة، وصُنِعَت حرَّاب المرَّاسِم في جِنْ.. في جِنْ بالذَّات يا حفيدتي. وأُحضر جرِّيد النَّخيل من هناك.. حيث أقاربنا في أسافل النَّهر. وساهمت كل القبائل في زخرَّفةِ العَّاج وإحضَّار الخشَّب المقدَّس، لتتويج جَدَّتك (أبودوك).

يجب أن تدرسي لتصبحي عظيمة مثلها. لن تستطيعي إعادة مجد الأسلاف إلا بالدَّرس، فقد تغَّير الزَّمن يا حفيدتي، كما يقول الرَّث باناو. أتفهمين ما أعني يا بنيتي؟"

"أفهمك يا جَدَّتي. أفهمك"

كانت أبودوك مشغولة الخاطر، بما رأته و(آتيِبّب) تخرُّج منها وتطوِّف! ترددت في أن تُخبر جَدَّتها ثم حسمت أمرها:

"رأيتني وآتِيّب دائمَّة الحركة هنا، وما أخاله الشمال، حيث أقاربنا النَّافرين، ورأيت أحدهم في مثل سِنِّي"

"وليم؟"

"لا. ربما يشبه مجوك"

"وبعد؟"

"يبدو أنني أحببته"

"كيف تُحبين ميتاً؟"

"هل يعني ذلك."

أطرقت الجَدَّة في تفكير عميق، الأمر الذِّي جعل أبودوك تقلق كثيرا:

"ما الأمر يا جَدَّتي؟"

"لا شئ يا بُنيتي. لا شئ، فقط ربما ترحلين بعيداً عنا، وربما لا نلتقي بعدها أبداً!"

***

سوَّت أوديت اللاوو على جسدها الفارِّع، وحملَّت طفلها الصغِّير وهي تتجه إلى الحقل خلف زوجها. كانت كأنها لم تنجب للتو! ممشوقة، متمايسة.. ترتج تكورَّاتها الفاتنة في إيقاع مثير!.. بَدَّت في اللاوو بعد أن أنجبت، مثيرة أكثر من أي وقتٍ مضى.. قالت تخاطب باناو:

"لقد راقبت أبْدوك جيدا كما طلبت مِني"

"ألم تشعر بمراقبتك لها؟"

"كلا أنها لا تزال صغيرَّة"

"لكنها ذكية"

"رُبما.. أنها فتاة جيدة تجيد صُنع (المَانْجَاكِيلّو) و(المَانْجَافُوْتُو) وتخدِّم أهلها بِهِمَّة ونشاط"

"ليباركها الرب.. إذن لا تنقصها سوى بركاتي"

***

الفصل الثاني

بَسْ مُسْتَحِيلْ.. أن تَجْبِرْ الأَبُنُوسْ
غَصُّبْ يَصْبِّح نَخِيلْ...
حُمِّيدْ، نَّص: الرَّجْعَّة للبيت القَدِّيمْ

كانت المحطَّة على غير عادتها، تكاد تكون خالية إلا مني، يبدو أن الرُّكاب قد خلَّت أجسامهم تماما من الطَّاقة اللازمة، ليكونوا قادِّرين على الوصول إلىٰ هنا!

كُنتُ قد اتخذتُ قرَّاري بمقابلةِ سلوىٰ، علَّني أنجح فيما فشل فيه سُعود، على الرُّغمِ من تحذِيرِه المستمر لِيْ:

"لا جدوى من ذلك يا متوكل، فلا تفعل"

وأنا في انتظارِها -بعد أن اتصلت بها في العيادة- طافَت بخاطِرِي ذِكريات الطفولة. كيف مضى مسرعاً ذلك الزَّمن، الذي كنا نتساقى فيه الود والحنين البريئين، ونَصنعُ الشِّرَاك للطَّيرِ من شعر ذيول الخيُول..

نُغرِّيه بحبات الذُّرَّة، التي نسرِّقُها من طاحونة اليَمَنِيْ، ونلعب عروس وعروسة.. أحيانا -وقتها- كُنتُ أشعر بالغَيِّرَة، عندما لا تخفي سلمىٰ رَغبتِها في اللَّعب مع سُعود، الذي لم تكُن سلوىٰ تتركه أبداً!

جاءت سلوىٰ من بَعيد تتهادىٰ في مَشِّيتِها، وبَدَّىٰ لِيْ وجهها للمرَّةِ الأولىٰ كأنه وجه آخر، لم يَعُد هو ذات ذلك الوَّجه الصَغِّير النَحِيل، لتلك الطفلة التي عندما كَبُرَّت، وصارَّت ترتدي زَّي

المدرَّسة الثانوية العامة المميز بلَوْنِهِ القشر-بصلي.. أو السماوي عندما بلغت الثانوية العليا.. وقتها كانت تتهادى هكذا، وهي في طريقها إلى المدرسة!

كأن قوامها محصَّناً ضد سَرَّيانِ الزَّمن وأحكام السِّن. عندما عادت من الجنوب، كان وجهها هو ذاته ذاك الوَّجه الطفولي البرئ النَّاحِلْ. المألوف بضحكتِهِ المميزَّة الوَّاسِعة، التي تفيض على كل أفرادِ الشُّلَّة، وتتسع متمدِدَّة لتملأ كل فضاءات البلاد الأسِيرَّة، وأزقتها وحواريها.

وبعد أن سافرت لتكمل دراستها في الخارج، لم تَعُد هي ذَّاتها، فقد إمتلأ وجهها، واستحالت عينيها الضَّاحكتين إلى عينين عميقتين مبهمتين، ينطويان على طيف حزن غامض!..

ومع ذلك أصبحت أكثر رواء وألق. بنظراتها سحيقة الأُلفة.. تلك الأُلفة التي طوَّاها الزَّمن خلفه، فلم يَعُد لها وجود..

ثَمَّة حافلة تلوح في الأفق الأسفلتي المتبعج..

"أهلا سلوى"

"كيف أحوالك يا بعيد.. زَّمن طويل والله"

"وربما يمضي زَّمن أطول بعد هذا اللقاء"

سحبتني طقطقة الكُمساري من حَدّيثي معها. هذا الحَدّيث المستبطِّن لتأملات خفيَّة.. انتبهت إلى أنها أصبحت تومئ رأسها بتسليم إثر كل كلمة. رَّدَت يدها عن حقيبتها..

"ربما تُدرِّكين لماذا طلبتُ مقابلتك؟"

"أكيد بخصوص سُعود؟"

"نعم"

"ما قلته له كان واضحاً"

"لقد تغرَّبت طويلا وآن لك أن تستقرّي، قلت لنفسي ربما تكون الغُربة قد ألانت موقفك تجاهه قليلاً"

"الغُربة لا تُغيِّر المبادئ.. بل تصقلها"

ساد صمت عميق بيننا. انتبهنا إلىٰ أنها المحطَّة الأخيرَّة. وكانت الحافلَّة تكاد تخلو من الرُّكَاب. قامت من مقعدها. فبدَّت لِّي كصَّبية مراهقة، تنوء بحَملِ تكورات جسمها المجنّون.

اصطدمت نظراتي -التي كان جسدها يحجبها- بالنافذة. تسللت عبرها إلىٰ فضاء المحطَّة. ونزلنا نأخذ منعرَّج الطرِّيق إلىٰ أن دخلنا كازِّينو المدينة اليتيم. قالت بتوتر:

"لقد اشترى الغرِّيق كل شيء، حتى الكازِّينو الوَّحيد في المدينة"

فلم أُعقِب بشئ. كنت متوتراً. لا أدرِّي لماذا. ربما للقائِها الفاتِر. جفاء ردودِّها. جلسنا. أحضر الجرَّسون زجاجات المياه الغازِّية.. فابتسمت سلوىٰ للمرَّة الأولىٰ في هذا اللقاء:

"أعمل حسابك الخدمات هنا سياحية"

أخذتُ أمُصُ الميَّاه الغازِّية ببطء، وتوتِّري يخف قليلاً قليلاً. علىٰ نحوٍ مفاجئ شعرت بشيءٍ ما يتحسس ساقي -لا أدري لماذا خامرَّني ذلك الاحساس، الذي خامرَّ سُعود تجاه ذلك الصَّرصُّور.

ربما شعرت في هذه اللحظَّة تحت تأثير حكايته لِّي عن الصَّرصُّور، الذي داهمه ذات ليلة -فنفضت قدمي بذُعر ويدي تدخل في سرعة خاطفة، عبر فتحة البنطلون من أسفل!

لم يكن ثَمَّة صَرصُّور كما تخيلت، إذْ نظرتُ إلىٰ أسفلِ المائدةِ. فرأيتها، لم تكن سوَّى قشَّة بارِزة داعبها النَّسيم فأدخلها وجعلها تتحسس ساقي بخبث.

دارت سلوى ثغرِّها الضاحك بأناملها:

"كما كُنت دائماً لم تتغيَّر"

تبدد شئ من ذلك المُنَّاخ المتكلف الذي رافق لقاءنا، فتجرأت مرة أخرى:

"كان سُعود ينتظرُّك لسنوات بشوقٍ مستبد"

"أنه يعلم تماماً أنني لا أرفضه لشخصِّه، بل لارتباطِّي بشخصٍ آخر"

"أيحبك أكثر من سُعود؟"

"ليس هناك مقياس اسمه (حبوميتر) لأقيسَ بهِ"

ردَّت بجفاء:

"ظننتُ أن سبب رفضك له بسبب علاقته بالغَرِّيق"

"لا، ولكن بما أنك جئت بسيرَّة هذا الأمر، ثَمَّة أقاويل عن علاَّقة سرِّية غير سوِّية تجمعه بهذا الدَّجال الأفاق!"

"تعنين جنسية؟!"

نخفضت عينيها إلىٰ الأرض في حياء..

"الشائِعَّات تظل محض شائِعَّات إلىٰ أنْ يَثبُت العكس"

"على كل حالٍ سُعود لا يهمني إلا كصديق طفولة"

"هل أعطيت نفسك فرصة كافية لتبين حقيقَّة مشاعِرِّك نحوَّه؟"

"مرَّةً أُخرىٰ أجد نفسي مضطرَّة للتأكيد لك، أنِّي على إدراكٍ تام لطبيعة مشاعِرِّي تجاه الآخرين"

"أواثقة أن علاَّقته بالغرِّيق ليس لها تأثِيرْ على موقفك"

"أفهم تماماً أن تكون الغيبيات ميل فطرِّي، أو حافِز بَشَرِّي أو دافع من دوافعنا عندما نعجز عن إمتلاكِ أدوات الصِّرَّاع، في مثل واقعنا المقيت. لكن ما لا أفهمه هو كيف تكون هي نِظَّام تفكير، لشخصٍ يُفترَّض أنه تلقى تعليماً مدنياً كافياً!.. أنها حالة فُصَّامِيَّة هذه التي يعانيها الباشمهندس سُعود في علاَّقتِهِ بالغَرِّيق،

ومع ذلك لا تَهُمَنِّي علاَّقتِهِ هذه إلا بالقدر الذي أهتم فيه لأمرِ صديقٍ قَدِّيم"

"ربما حياته المُمَزَّقة. المشوَّهَة."

"دائما كان أضعف من تخطِّي أزِّماته! إحساسه المتعاظم بالفقر مُنذ الطفولة، وحيرَّته أمام لُغز الحِرمان وشعورَّه العميق المؤلم بالعجزِ والوَحدَّة، وتركه للجامعةِ واتخاذهِ من الاغترَّاب حلاً لكلِ مَشَّاكِلِهِ.. كل هَذِه الأُمور أعرفها جيدا كطبيبة وصديقة قديمَّة له. لكن لن يستطيع أحد تغييرَّه ما لم يُغيِّر نفسه، ولن يتمكن من ذلك دون شحذ إرادته. وهناك مشكِّلَّة أساسيَّة في علاقتِهِ بي، أنا بالنِّسبة له جزء من طفولته الضائعة يرغب في استردادِّه لا أكثر"

"والدته تُحبُكِ كثيراً"

"أنا أيضا أُحِبُها.. أنها أم طيبة"

بَدىٰ عليه الامتِعَاض وهو يُحاوِّل أن يسأل:

"هل علاقتك بذاك ال."

قالت مقاطعة بحزمٍ ينطوِّي على شُحنَّة جبارَّة من الغضب وهي تهم بالوقوف:

"أولاً أنا لا أسمح لك، فالمُعرَّف ليس بحاجة للتعرِّيف (بأل) إسمه لا نجور لو سمحت. لا نجور"

قال في حرجٍ شديد:

"أنا آسف، لم أقصد.. أرجوك اجلسي"

عاودَّت الجلوس على مضضٍ وسادت مساحة عميقة من الصَّمت الحَذِر بينهما، قبل أن يحسِّم ترددِّه ويقول:

"رُبما نسيك بعد كل هذه السنوات"

"حتى لو مات ستظل عاطفتي موجهة إلى ذِكراه إلىٰ الأبد"

"لا تنسي أنه جنوبي.. وأسرتك"

قاطعته:

"لا أفهم ما المشكلَّة في كونه جنوبسوداني؟!"

لم يستطع أن يضيف شيئاً، عاودَ الصَّمت احتلاله للفضاءِ الوَّاسع الذي يفصِل بين عالميهما المختلفين، إلىٰ أن أردفت شذِرَّة:

"لو عرفته لأدركت كم هو الفرق شاسعا بينه وبين سُعود، حتى لتخال أن المسافة بين السماء والأرضِ أقرَّب!"

ثم نهضت مُنهِيَّة الحديث بصورَّةٍ حاسِمَة:

"يجب أن تعذُّرَّني فلدي الكثير من الأمور التي تشغلني وتنتظرني لانجازها!"

"ماذا تعنين؟"

"أعني سأرحَل عن هَذِهِ البلدَّة وفضاءاتِهَا العَكِرَّة عما قرِّيب"

"وأهلها؟"

"للأسف هؤلاءِ القوم لا زالوا بحاجة لوقتٍ طويل حتى يفهموا أنفسهم على الأقلْ"

"كان والداك..."

"كان والدي عظيمَّاً، لم تكن لأُسطورَّة كائنات كالغَرِّيق وجود، عندما كان على قيدِ الحياة، لقد عاد بنا أمثال الغَرِّيق وأشباهِهِ مئاتِ السنواتِ إلىٰ الوراء"

"حسناً ربما يتزوج سُعود من صديقة طفولتك سلمىٰ أتذكِرِّينَها؟"

"أتمنى لهما حياةً سعيدة"

وبكل القلق الميتافيزيقي الذي سيطر على كيانها لحظتها، خطت قدماها تغادران الكازِّينو، اليتيم في هذه المدينة المغضُّوبَة، الضَّالَة التي لم تعد تُشرِّقُ عليها الشَّمس كعادتها من جهةِ الشَّرق!..

رَفع متوكل زِجاجة الميَّاه الغازِّية إلىٰ فمه، تجرَّعها دفعة واحدة إلى آخر قطرَّة، ثم وضعها بعنف علىٰ المائدةِ أمامه.. والتفت يبحث بعينيه عن الجرسون!

***

أمعن سُعود السَّير وسط الكسَّل والتثاؤب المُقِّيم، الذي يَغْمِرْ كل شئ حولَّه. كان قد شارف ود نوباوي بأزِّقتها الرَّطِبَة، وهو يغِّزُ في المَسِيْر تجاه بيتِ الغَرِّيق، ليستشيرَّه فيما أَلَمَّ به من حُبِّ سلمىٰ، التي كانت بالأمسِ قد أخبرته أنها ستنتظره في بيت الزَّار.

الغَرِّيق حَلَّ وسكن في منزلٍ فارِّه يتوَّسط البلاد الأسِيرَّة، محاطاً بما يشبه الشِّعب المُرجانية من كل جانب. لا أحد يتذَّكر هل كان هذا المنزل موجوداً قبل حلول الغَرِّيق أم لا؟ ولا أحد يعرف شيئاً عن الأرض التي شُيِّدَ عليها البيت. فجأة اكتشف النَّاس الغرِّيق في جُغرَّافيا وتارِّيخ المكان.

لا أحد يَذّكُر شيئاً غير ذلك! شركتا الكهرباء والميَّاه لا تُرسِلان لِلغَرّيق فواتير عن استهلاكه، وشركات التليفونات حرِّصت على أن تجعل اشتراكه مجانياً، وإلى الأبد. وضمَّنت ذلك في وثائِق أُصول الشركةِ كُلِّها.

وكان كل ذلك بسبب كرَّامات الشيخ الغَرّيق التي ملأت فضاءات البلاد الأسِيرَّة، التي أصبح أهلها يُيَمُون شِطرّه من القوَاصِّي والدَّوَانِّي!

كان سُعود لا يزال يمشّي في أزّقةِ ود نوباوي العَطَّنَّة برائحةِ التَارِّيخ ورَوَّث البهائم وبقايا إفرازاتِ الكِلابِ المشَّرَّدَّة، وهو يُحدِّث نفسِه: -عبر هذا الزُّقاق هَرّب بني جَرَّارْ غرباً، عندما ضيق عليهم الانجليز الخِنَّاق لقتلِ فارِسِهِم محمد ودنوباوي لغُردُّون باشا.. وها هنا أقام فارِسِهِم جانو بفروخهِ وفرخاته.. ومن هنا هَرَّب حمد حفيده دون أن يلوي على شئ، مستشيراً بعيرّهِ عن مكانِ الحِلِّ والتِرْحَال، إلى أن حط به البَعِّير الرِّحال في (أم زِّرَيْبَة) رِيْفِي تَنْدَلتِّي بحدودِ النِّيلِ الأبيض مع كردفان، و..-

***

فيما كان سُعود لا يَزال نهباً لخواطرِهِ، منتظراً الشَّيخ الغَرِيق يُنهِي توسلاتهِ، ارتجفت شفتا الشَّيخ وهو يُشير بسبابتهِ لرَّكوة الفُخَّار، التي سارعت بالمجيءِ.

فمَدَّ الشَّيخ كفيهِ في تؤدَّة، لتصب الرَّكوَّة فيهما شيئاً من مائِها، بعد أن أنهَى الشَّيخ غَسلِ كفيه، مدَّهما مرَّةً أُخرَىٰ للرَّكوَّة، وأخذ يَغسِلُ وَّجهِهِ متمتماً في رِفقٍ وَقُوْرْ بأدعيةٍ كُتبت بلغةٍ غرِّيبة، يبدو أنها لم تَعُد مستعملة منذ مئات السنوات!

أنهَى الشَّيخ غَسلِ كَفيهِ ووَّجْهِهِ فرَجعَّت الرَّكوَّة إلىٰ مكانِّها. فرُّغ الشَّيخ من هَمهماتهِ الأخيرة، ثم التفت إلىٰ سُعود:

"على حبيب الله السلام"

"السلام عليكم يا شَّيخ غَرِّيق، لقد بكرت في المجئ. خشية أن."

قاطعه الشَّيخ بحسم:

"كنت انتظرك"

ثم أخذ يَتمتِّم بكلماتٍ غامضة، فتقدمت ببطء عِدَّة قنينات مُختلفة الألوان والأحجام، أخذ من كلِ واحدة بعض مما فيها، وخلَّطه في قنينَّة صغيرَّة قُرب مُصلاتِهِ التي من جِلدِ الجاموس

المتوَّحِش، ورَّشه على سُعود الذي كان فاغِر الفَّاه، وبعد فترَّة من الصَّمت المهيب تمكن سُعود من الامساك بتلابيب شجاعته، وقال:

"أتيتُ استشيرُك في أمرٍ يؤرِّقُنِّي يا شَّيخي"

"ها، حي يا قيوم. لقد أذِّنتُ لك يا سُعود فنفذه ولا تتردد"

"أتعرَفُ ما الأمر؟"

حدَّجَه بنظرَّةٍ صارِّمة، جعلته يترَّاجع عن ما همَّ بقولِهِ، فيما استمر الغَرِّيق يقول:

"إذَّن استيأست من سلوىٰ وقرَّ قرارُكَ على سلمىٰ التي ظلَّت تنتظرُّك بشوقِ سنواتٍ طَوِّيلَة"

وفيما ازداد فم سُعود اتساعا، كانت شفتا الشَّيخ ترتجفان وقد رَاح في غيبوبةٍ عميقة، لم يلبث فيها أن انتفض متمتمَّاً، كأن هاتفاً ألمَّ بهِ. وهو ينتفض والعرَّق يتصبَّب منه!

وكالآت من رِحلَّةٍ بعيدة قَالَ في صَّوتٍ متحشرِّج بَدَىٰ لسُعود مكتوماً وأشبَّه بفحيح ثُعبَّانٍ أرمَّل:

"دربُكَ سالك يا سُعود. سأنتظرُّك هذه الليلَّة لنَحْتَفِلْ"

ثم أرخىَّ رأسه كأنه يعنِّي أنَّ الزِّيَارَّة انتهت، فمضى سُعود مستأذناً.

"لا أظُنَّهم سيسمحون لِّي بالدخولِ يا سلمىٰ"

"أنه زَّار مختلط"

"ماذا؟"

"هُنَّاك بعض الذِّين يَبحثونَ عن صَّاحِب، مثلمَّا هُناك بعض العَاقِرَّاتِ اللائي يَرُّمْنَ الحَمْلْ"

"لكن-"

سألته بلهجةٍ حاسمَّة وقد نَفَدَ صَبرُها:

"ستأتي أم لا؟"

"حسناً. أمري إلىٰ الله"

كان الزِّحام شديداً حَول بيت الزَّار. دلفَ سُعود إلى الدَّاخل في صعوبة. كان المكان أشبَّه بالمولد في زحامه وفوضاه، بالكاد استطاع رؤية (شَّيخة الزَّار) في عرشِها الذي توسط بناتها، فأخذ يتفرَّس الوجوه المتزاحمة بحثاً عن سلمىٰ.

كان بيت الزَّار صاخباً. أصوَّات الطبول تُعانق الأسقُف الواطئة للحَيْ، وثَمَّة رِجال ملتحين وآخرُّون على سيمائهم ما يُوحي بالغموضِ المزعِج. مُخنَّثين تائهين، مثليّين جوعىٰ، أفندية يجلسون في بدلاتهم المتأنقة، يبدو أنهم مسئولين رسميين كبار.. في جلساتهم المترددة المنزوِّية ينطوِّي الخوف من الفضِيحَة!

نهضت شيخَّة الزَّار ومضت لتجلّس علىٰ عَرشِهَا. تبعتها بناتِها ووصيفاتِها، اللائي فرّغن من توزِّيع ما لذَّ وطاب، على الجالسين والجالسات في الحلقة الدائرِّية. ثم سرعان ما رَجعت إلىٰ عرشها المُحاط بالأبخرَّة ذات الروائح السحرِّية التي تبعث على الخدرِ اللذيذ.

ارتفعت أصوَّات الطبول مرَّةً أُخرَّىٰ، مصحوبةً بالغناءِ الجمَّاعي:

"بَشِيرْ لُّوْلِّي يا بَشِيرْ لُّوْلِّي

اللَّوْلْ اللَّوْلْ اللُّوْلِّيَّة

بيسحَرُّوك يا لُّوْلِّي الحَبَشِّيَّة

اللَّوْلْ اللَّوْلْ تَجِيبْ البَعِّيْدْ

اللَّوْلْ اللَّوْلْ لأُمِ الوِّلِيْدْ."

أخذ الجميع يرقصون في إيقاعٍ هستيرِّي، فيما كانت نظرَّات سُعود تتنقل بينهم بحثاً عن سلمى، إلى أن لمحها تتوسطَّهم وَتَقِّيْ وَدْ زَّهَرَّة يخاصرها في رقص متشنجٍ مثير!

غلى الدَّم في عُروقهِ، فتسلَّخ بين الجموع المتزاحمَّة في صعوبة، حتى وصلها وانتزعها من بين زِرَّاعي وَدْ زَّهَرَّة. جذبها إليه في قسوةٍ وغضب. وجرَّها خلفه شاقاً رُّكام المتزاحمين الذّين بَدَّوا غائبين عما يجري حولهم:

"أُقسم لك أنَنّي لم أكن رَاغبةً في الرَّقصِ، لكنه جَذَبنّي عنوة وبقوَّة.. أنه مهووس!.. كما أن شَّيخة الزَّار رَمتنّي بنظرَّة محذرَّة"

وسع الله في رِزقِّي ببلادِ الأفحاح العديدة التي تنقلت بينها، أقيم لحين هنا وهناك! متكسِّباً مما أحفظ من قرآن.

كُنتُ أكسب أموالهم لقاء وعود لا ينخدّع لها الغرِّ الساذّج، فنلتُ من خيرِّهم الكثير، وقرَّرت العَودَّة بعد سنواتٍ طوال، لكنِّني لم أجد وادي النحاس، فقد اختفى من التَّارِّيخ والذَّاكرَّة. اختفى كالحُلم فاستقرَ بي المقام في الموضع الذي كانه، في هذا الجزء من البلاد الكبيرة، حيث النَّاس والأشياء تفوح منهم النكهة القديمَّة لوادي النحاس..

الرَّائحة المميزَّة لخُطى التَارِّيخ الغَّابر المتثاقلِة، وهي تستعيد قوتها فتحيا من جديد، تمشي في المكان، بين النَّاس والأشياء، حيث أُقيم..

أنه وادي النِّحاس مرَّةً أُخرَّى. نعم هو وادي النِّحاس يخرجُ من قلبِ التَارِّيخ، فلا يتفاجأ أحد بوجوده.. بالنسبة لي أنا، لم أتفاجأ بوجود وَلِيّ الدِّين الغَرِّيق، لكن أَدهشني ما أستطاع تحقيقه!

حيَّاة الغُربة والدَّجل والشعوَّذة التي بَرَعتُ فيها، والاتِجَّار في السِلَّع غير المشروعة.. حياة الغُربَة هذه بعيدا عن وادي النِّحاس الآن، ووادي النحاس الذي كان، أذْهَبَتْ عَنِّي تهور الصِّبا ذاك، ولقنَّتني شيئاً من الحكمة!

ولكن غذَّتني بالمزِّيد من المطامع والرَّغبات، فتناسيت العَداء القديم للغريق/ الغَرِيب.. الذليل الذي فوجئ به وادي النِّحاس ذات يوم بعيد، مُلقىً على وجهه في شِفَّة الوادي، ممزَّق الثياب، ناحل الجسم، عليه من آثار النصَّب والأعياء الكثير!..

فاحتضنه الوَّادي وعده من أهله. اسبغ عليه عطفه وشآبيب رحمته، وعَلَّمه كيف يفك الحرف.. الآن الغَرِّيق الذِّي لطالما عَرِفه

وادي النِّحاس، أصبح شخصاً مهماً في البلاد الأسيرَّة ولربما تؤول إليه مقاليد السلطة ذات يوم قلت له:

"ما توقعت أن يكون لأمرك شأن ذات يوم يا غَرِّيب!"

"يضع الله سِرَّه في الغُرَّباء فطوبىٰ لهم"

ابتسمت:

"أريد أن أشاركك أمجادك المرتقبَّة!"

رَمقنِي بغضب:

"ليس لي أمجاد"

"فكِّر في الأمر، لدي خِبرَّة تلزَّمك"

"حدِّد مقصدَك"

"(رغباتك) تلك -كما تعرَّف- يجب أن تكون مع من هو موثوق، كما أنك بحاجة لرَّجلٍ مثلي يقضي حوائجك السِرِّيَة، ثم أنني صديقك التَارِيخِي الوَحيد، الذي لا يَرَّى ولا يَسمَّع ولا يتكلَّم، أنَّى لك بمثلي بين هؤلاء الناس، وقد خَبِرْتُ وادِّي النِّحاس من قبل، لا سِيرَّة لهم سوى الشائعات التي يميلون إلى تصديقها،

وانت تعرَف مغبَّة الشائعات، خاصة ذلك النَّوع من الشائعات، إذا سرَّبه الخُبثاء"

رَمقنِّي بخُبثٍ وهو يدنو مني كقطٍ أليفْ.. وخرجت من الغَرِّيق إلى بيتِ الزَّار. هكذا بدأت حكايتي مع سلمى. التي ما أن رأيتها بين جموع النِّساء والفتيات حتى قلت في نفسي:

"هذه هي التي ظَلَلْتُ أترَقَّب منذ زَّمنٍ سحيق"

رؤيتها أثارت فيّ أشواقا بعيدَّة، طال كِتمَانِها وأشعلت في دواخلي ذاك الحَنِين، الذِّي ينتابني بين آن وآخر، ويظل أبدا محض حنين. انتفض قلبي لهذه الفتاة، لم يكن لِي في الأمر يد، فالمشاعر لا تستأذننا عندما تهتاج، إنها لا تخضع لارَّادَتِنا:

"هكذا علمتنِّي الحياة والتجرِّبة.. تجربة الرحيل"

***

الفصل الثالث

والنَّاس في الشوارع.. تسقط من أيديهم،

تسقط من عيونهم،

تسقط من أفواههم،

أحلامهم..

الشاعر العراقي ياسين طه حافظ

فَشلَ لابسو جِلدِ الفَهَّدْ في إحْتِلاَلْ الأراضِّي الجَدَيْدَّة، وَفشَّلَ الرَّث باناو في تكرَّار رِحلَّة أكْوْيْ كَاكَاب، فبدأ اهتمَّامي بالقرْيَّة يتزايد أكثر من ذي قبل، لقد ظللَّت أعتقد لوقت طوِّيل أن أرضنَّا هَذِّهِ أفضَّل وأجمَّل وأنبَّل من أيِّ أرض أُخرَّىٰ، رُبمَّا لإحساسي بالأُلفَة مع الأشياءِ هنا..

هذه الأُلفة التي بدأت تُكرِّس لها داخلي منذ سنوات، دراَّستي في مدرسة الجمعية التبشيرِّيَّة الأَوَّلِيَّة. رُبما رائحةِ الهزِّيمَّة وطعمها هما السبب..

الهزِّيمَّة التي ملأت الحلوق بالغصَّة، وأزكَّمت الأُنُوفِ برائحتهَا الكرِّيهَة، وأحزنَّت القريَّة لسنوات عَديدَّة. ورُبما لتجذُّر علاقاتي مع الآخرِّين، خاصةً عبد الله المُنْدُكُورُوْ، هَذا الرَّجل الذي رأيتُه موجوداً هُنا، منذا تفتح وَّعيِّ على الأشياءِ حَولِّي. كان يتميز علىٰ الآخرِّين من قومِهِ بملامحه الهادئة، التي يفيض منها الصَّفح والغفرَّان.

***

كانَ لانْجُور في طريقه إلىٰ بيتِ عبد الله المُنْدُكُورُوْ، وهو لا يزال يتذَّكر دهشته في تلكِ المرَّة الأولىٰ التي التقاه فيها، إذْ كانت تلك هي المرَّة الأولىٰ، التي يَرى فيها (سودانيا من الشمال) على الاطلاق.

المُنْدُكُورَّاتْ دوما كانوا بالنسبة لأهله مجرَّد طُغَّاة، تمثلهم حكايات المغتصِبين وتِجَار الرَّقيق والنَخَاسَّة. الذين ارتبطوا في الذِّهنِ العَّام لأهله بالإنجليز واللبنانيين والأتَّراك والشَوَّام، وسماسرَّة العَهْد التُركي/ المِصرِّي.

مُنذ الطفولة الباكرَّة وأبوه يحكي عن الزعيم (قُونْدَنْقْ) و(أوْوكَوَّنْقْ) بطولاتهم، وكيف كانا يقاومان العبوديَّة، ويحرقان زرائب تِجَار الرَّقيق.

أول مرَّة رأى فيها عبد الله المُنْدُكُورْوّْ خاله مثلهم، فلم يستطع مقاومة عدائه له!.. كان وقتها قد رآه يدخل عِشَّة والده -الذي حينها لم يكن رَّثاً بعد- ويشرَب معه المَرِّيْسَّة، ويُجاذبه الحديث بلغة قومه، وعندما فرغا من الحدِّيث وخرج المُنْدُكُورْوّْ، بعد أن ودَّع والده، فهَروَّل لانجور إلى أبيه مسرعاً يسأله:

"من يكون هذا يا أبي؟"

"أنه أحد اخوتنا الصَّالحين"

"اليس مُنْدُكُورْوّْ؟!"

"لكنه شخص جيد، عاش إلى جوارنا طويلاً وزوجته من قومنا، ولم نرى منه سوَّى الخير"

"لكنه مُنْدُكُوْرُوْا!"

"ليسوا جميعهم سيئون، في قومنا أيضا هناك مُنْدُكُوْرُوات سيئون"

"أنت قلت الآن أنهم أُخوتنا، وكنت تحدثنا عن محمد أحمد العقاد، كيف ذلك وهم لا يشبهوننا؟"

"آه لانجور، أيها الطفل الشقِّي، أنك لا تزال تذكر حديثي عن ذلك المصرِّي اللَّعين. تذكر أن الرَّجل الأبيض الذي نحترمه الآن، أيضا في قومه يوجد السيئون الذين أتجروا في الرقيق، وقتلوا النَّاس.. ولا تنس أن دَّمَه في دَّمِنا ودَّمِنا في دَّمِهِ، وإن رفض قوّمه الاعتراف بذلك"

"هل نحن أهل حقا؟"

"نعم يا بني لكننا لا نحب بعضنا مثل الكثيرون من الأهل هنا. يتعجرفون على بعضهم، وربما يُنكِرون قرابتهم لبعضهم. ألا نقول نحن (جن توك نات). ألم نحاول اغتصاب أرض غيرِّنا؟"

أطرق لانجور برأسه الصغير متفكراً لبرهة، ثم أنطلق وصوت باناو يطارده:

"اذهب أيها الصغير الشقّي والعب بعيدا"

كان لانجور لحظتها يركض مقتفيا أثر المُنْدُكُورُّوْ!

لا أدري لماذا فعلت ذلك، لكنني فعلت!.. كان المُنْدُكُورُّوْ يمشي بخُطىً متمهِلَّة، وهو لا يشعر بخطواتي خلفه، إلى أن هتفت به:

"مُنْدُكُورُّوْ"

التفت نحوي مبتسماً ابتسامة واسعة:

"المُنْدُكُورُّوْ!.. أهلاً إبن من أنت؟!"

"كنت مع أبي قبل قليل"

"آه أنت إذن إبن صديقي باناو. ما هو اسمك؟"

"لانجور"

"اسم جميل، لا تدع المدرَّسة تُغيرَّه لك"

”مستر آدم يصر على تغييرِّه، اطلق على إسماً لكنني لا أحب أن يدعوني به أحد“

”إذن تعتز بأسماء اأسلافك؟“

وهكذا صرت والمُنْدُكُورُوْ، أصدقاء...

ومنذها أصبحت اداوم على زيارته.. اذهب إلى بيته، ربما لا أجده فترحب بي زوجته الجميلة هيلدا، التي تسبغ علي من احساسها الأُمومي، ما يكفي لتدفئتي طيلة العام الدرَّاسي. كان وعيي معهما يتفتح على ما ظللنا نواجهه من عوائق، وفي الآن نفسه بدأت استشعر التفسيرَّات العديدَّة، لحالنا الميئوس منه.

عندما كان المُنْدُكُورُوْ لا يكف عن طرح أفكاره الاشتراكية حول توحيدنا، كخطوة ندمج خلالها انفسنا في التنوع الكبير لبلادنا، كنت اشعر أن وراء هذا الرَّجل قصة كبيرَّة وغريبة، يُخفيها بين جنباته، وظللت أتحين الفُرَّص لدفعه للكلام، عن حكايته التي جاءت به إلى هنا بعيدا عن شعبه وأرضه، لكنه كان مهجساً بأمرٍ آخر، بعيد عن ما تحمله طياته من أسرار إنسانية صغيرَّة أو كبيرَّة..

كان مهجساً بكلام أفهم بعضه -وقتها- ولا أفهم أكثره، كذلك الحدِّيث الذي يحاول باناو أحيانا تسريبه إلى عقلي، فاشعر بالارهاق والتمزُّق، لكن كلاهما -المُنْدُكُورُّوْ وباناو- فتحاني بافكارهما على عالم متملِّص صعب الامساك بتلابيبه، وهكذا مضت بنا الأحادِّيث، إلى التعرُّف على الجغرَّافيا والتَارِّيخ في البلاد الأسيرَّة من أقصاها إلى أدناها، ومن بحرها الأحمر إلى نيلها وصحرائها ووديانها في أقصى الغرب، كان دائما يتحدَّث كما يتحدَّث أبي، مع فرق واحد:

كلاهما يعبر عن ذات الأفكار بلغته الخاصة جداً، التي تلائم سنِّي -كما ظنوا على الرُّغم من أنني إثر كل لقاء لي بالمُنْدُكُورُّوْ أو إثر كل جلسة حميمَّة مع أبي، يتناول فيها حكايا الأسلاف وتاريخهم وأمجادهم، كنت أشعر بتمزُّق مهول يعترِّي دماغي، تمزُّق يتمخض عنه وَّعي مبكر بهذا الكون الصغيِّر.. عالمي الذي تحدد بالمُنْدُكُورُّوْ، وهيلدا والرَّث باناو..

هذا العالم الذي سيقودني ذات يوم إلى معادلة لا نهائية في الحكاية الأُسطورِّيَّة للبلاد الأسيرة! وعندما أعود بذاكرتي إلى تلك السنوات البعيدَّة، يقفز إلى ذِّهنِّي ذلك اللقاء الحميم، الذِّي كان المفصل الحاسم لما أعترى حياتي، كل حياتي من تغيرَّات..

في ذلك اللقاء قال المُنْدُكُورُوْ:

"سأُعَرِّفك على أحد أصدقائي الذين أُحبهم كثيراً. صَبِي في مثل سنك يُدعى وليم"

"في مدرَّستي؟"

"لا في مدرَّسة أُخرَى. رُبما تلتقيان في الوسطى"

قلت أمازحه:

"هل هو أحد أبناء قومنا الطيبين"

فضحك وهو يؤكد:

"كل من بهذه الأرض هم في الأصل طيبون"

***

توقفت آخيرَّاً أمام البيت الصغّير الأنيق. طرقت بابه بلُطف. وانتظرت إلى أن أطل المُنْدُكُورُوْ مُرَّحباً.. جلسنا ثلاثتنا، نتبادل المزَّاح، كأُسرة صغِيرَّة سعيدة، حياتها مُفعمَّة بالدِّفء والأمل.

"إذن هذه هي أيامك الأخيرَّة في الأوَّلية؟"

قال المُنْدُكُورُوْ وهو يأخذ شطيرَّة من طبق هيلدا.. قلت:

"أنا سعيد لأنني سأنتقل إلى الوسطى برمبيك"

"رمبيك أم نيوجنت؟"

"أياً كان المكان فأنا سعيد بالانتقال في حد ذاته"

"نعم، نعم: عالم جديد. أصدقاء جدد. حيَّاة جديدَّة. وما سيصبح ذِكَّريات ذات يوم"

نهض المُنْدُكُورُوْ كأنه يتذَّكر شيئاً. دخل غرفته المطلَّة على الصَّالة الصغيرَّة، وأخذ يقلب أوراقاً كثيرَّة في حقيبة منزوية تحت أحد المناضد الصغيرَّة. وجد ما يبحث عنه، فانتزع ورقة وقلماً وأخذ يكتب. وجاء ماداً لي ما كتب وهو يقول:

"أنه خطاب لصديقي أحمد ابراهيم. سيهتم بك كثيراً. أنه صديق قديم"

"من أيام النِضَّال؟"

"نعم"

-بعد سنوات قليلة، علمت أن المُنْدُكُوْرُوْ وأحمد ابراهيم وآخرين: سالم وعامر كانوا قد كُلِّفوا بقيادة الثورَّة في جبال النوبَّة. وتسبب سالم باهماله ولا مبالاته في فشل هذا المشروع، فأصيبوا جميعاً بالاحباط، وكان -وقتها- عامر قد هرب دون أن يخبرهم، فانقطعت أخباره تماما- أضاف المُنْدُكُوْرُوْ:

"ربما يُعرِّفك أحمد ابراهيم، على صديق آخر اسمه سالم" - فيما بعد أكد لي أحمد ابراهيم أنه وسالم، لم يكونا موجودين في جبال النوبَّة، عندما داهمت قوَّات الجيش والأمن وكرَّهم، ولم تجد سوى المُنْدُكُوْرُوْ- كان المُنْدُكُوْرُوْ يتجنب دائما الحديث عن ماضيه، وعندما يدخل الحكي في أحد دروب الماضي، تجده يتحاشاه فيعرج إلى صمت مبهم، غامض لكن يضج بالعذاب المكبوت.. وكنت أتساءل دائماً:

"لماذا يشبه لابسي جلد الفهد في صمته؟!"

لم أجد إجابة لهذا السؤال الذي ظل يُحيرَّني إلا بعد وقت طويل، من واقع تجربتي الخاصة. عندما تعود بي الذَّاكرَّة إلى الوراء إلى عقود خلَّت، يرِنُ في فضاء ذَّاكرَّتي دائماً سؤالي له، ذاك السؤال المتكرر الذي لم يكن أبداً سؤالاً عابراً:

"لماذا اعتزلت الشمال؟"

لاحقته بذات السؤال وقد انتابني إحساس خفّي أنه آخيراً قرَّر الخروج عن صمته..

"لم اعتزله أنه يحيا فيّ. الشمال مثل الجنوب، مثل الشرق والغرب والوسط، موجود في كل مكان. انتم هنا الشمال، ومع ذلك ربما أزوره كجغرافيا ذَّات يوم، لكن ساعود الى هنا مرَّة أخرى، فهنا أيضاً أهلي ووطني الذي يسكِّن دَّمي. هذه أرضي أنتمي لكل شبر فيها"

***

كان لانجور بسؤاله المتكرر-دون أن يدري- يفجر براكيناً ظلَّت خامدَّة لسنوات طويلة. كان يفتح جُرحاً قديماً، غائراً فشل الزَّمن في دمله، وظل المُنْدُكُورُو يتعايش معه..

ألقى عبد الله برأسه على مسند الكرسي، وهو يحدِّق في السقف الخشَّبي الذي ارتسمت عليه آثار خرائط صنعها ماء المطر، والرطوبة.. تنهد بعمق. كان شعوره كله يهتاج، ويتجمع في لحظة واحدة، لحظة معينة وكالداخل إلى بوح هذه اللحظة ليخرجها

قسراً أتى صوته العميق مُنهداً كأطلال (تورو) كان كأنه يتحدث إلى نفسه بين الحلم والوَّسن:

لقد كنت مجرَّد تاجر. أكملت دراستي في وادي سيدنا واخترت حياتي كتاجر، فقادتني التجارة إلى شحن الخشب إلى الشمال وتوريد السكر إلى الجنوب. ربما دون أن أعي امتلكت حساً خفياً بأن التجارة مدخلي، إلى عالمٍ أكثر عمقا من مجرَّد البيع والشراء.

هكذا بدأت علاقتي بالجنوب الجغرافي. هذا الحنين الخاص، القوِّي الذي لم أتمكن من مقاومته.. هذا الحنين الذي فتحني على نوع خاص من المهام، كُلِّفت بأدائها هنا، مهام تنتمي لجيلنا الذي انتمينا إليه، الجيل الذي تمخض، عن أصداء حركات التحرُّر في العالم الثالث، وهي تجتاح كل العالم بانتصاراتها المدوِّية.

وربما كان ذاك الحس الخفِّي، هو ما انطوى عليه ذلك الطيف الذي سيطر على كياني منذ الطفولة، طيف شقيقتي التؤام التي أُختطفت أمام عيني من قبل (الجمَّالة الجنجويد).. حينها كنا بعد لم نتخطى السادسة من العمر، كان الوقت عصراً وكنا نلعب في الشارع أمام الدَّار، عندما رأينا أحدهم على ظهر ناقته.

كانت رؤية الجمل لمن هم في مثل سننا، تعطي لهونا ومرحنا مذَّاقاً خاصاً، فبفضول طفولِّي لا يخلو من الدَّهشة كنا نسير خلف الجمل، ونحن نضع كفوفنا على أثر خُفِهِ على التُّراب، ننبشه.. سرنا طويلا ولم ننتبه لابتعادنا عن الدَّار، إلا عندما توقف الجمَّالي وكرَّ عائدا إلينا، فتقهقرنا. أناخ ناقته وحاول الاقتراب منا فركضنا مبتعدين، فركض خلفنا، لحق بشقيقتي وظلّلت أنا أركض دون توقف.

وعندما توقفت رأيته ابتعد وشقيتي معه، على ظهر الناقة التي أخذت تخُب في السير، لم أدرْ لحظتها ماذا أفعل، فأخذت أبكي إلى أن توقف أحد المارَّة، فاخبرته..

وهكذا ظلَّت أُسرتي، وكل أهل الحَي يبحثون عن أختي. قلبوا أعالي المدينة أسافلها، ولم يُجدي بحثهم شيئا. كنا قد فقدنا أختي إلى الأبد!

لا تدري كم هو مؤلم اختطاف تؤامك أمام عينيك. ظَلَّ طيفها يُلاحقني باستمرار، وكأن الزَّمن قد توقف عند تلك اللحظة، وهي على ظهرِ النَّاقة في سيرِّها المتعجل. هكذا ظللت أراها باستمرار. تكبر معي يوما بيوم. صارت رؤيا لا تفتأ تُهاجمني. لا أدري أهي حُلُم أم واقع: أراها تُشير لي دائماً باتجاه الجنوب، ولا أدري لماذا.

"بلاد الله واسعة" رمى عبد الله بهذه العبارَّة في وجه أمه، دون أن يُخبرها بما حدث معه في وادي النِّحاس، حيث أختبأ مع سالم. خشي أن تتهمه بالجنون، كما فعل عامر وسالم وأحمد ابراهيم، فحرص على إخفاء الأمر عنها.

حاولت ثنيه عن عزمه:

"بُني أبوك كل تجارته هنا ولم يسافر إلى الجنوب أبداً"

"أشعر أنني سأُحقق نجاحاً كبيراً هناك. لا فائدة فقد حسمت أمري"

"كان يدرك أنه يقسو عليها، لكن كان ما يشده أقوى منه. انصرفت والدته حزينة وقلبه معها يملأ فضاءات السفر.

كان نومه ليلة البارِّحة موتوراً، وشخير سالم قربه يتعالى، يملأ فضاءات المكان العارِّي إلا من بضع أشياء متناثرَّة هنا وهناك!

دهمته صحوَّة مفاجئة قرب الفجر، ثمَّة قوَّة مجهولة تجذبه، تحيطه بمجال من الدفء. ومن ثم انتبه ليجد نفسه واقفا قبالة النَّهر، خلف شجرَّة يتيمَّة لم ير مثلها من قبل. كانت فروعها أشبه بالشُّعبِ المُرجانية. أحس بالرَّهبة تسرِّي فيه مسرَّى الدَّم، فحاول الإمتلاء

بقدرٍ كافٍ من الشجاعة، ليقاوم رَّهبة المكان، ويجذب قدميه الملتصقتين برملِ الساحل.

فجأة دوَّت صرخة مبهمة، التفت خلفه في ذُّعر، وهو يحاول تحديد اتجاهها، كانت تؤامه (دُرِّيَّة) لكن.. بملامحٍ شفافة وجسم هُلام، وقد بدى سريان الدَّم في عُروقها واضحاً! تداخلت صورتها مع انطباعات ذاكرته.. كانت تصرَّخ بكلمات مبهمة، وأهالي قريَّة سالم تجمعوا فجأة، كأنهم انبثقوا من باطن الأرض!

بدت الشجرة الغريبة تتوسط دائرة التفافهم حولها كافورَّة. كانوا يحدقون فيها مسلوبين كمن أخذهم حمار النَّوم، فقط يحدقون، دون فعل أو رد فعل، وكان هو كالمشلول إزاء الدَّم الذي يسيل من جسم الطفلة، التي أخذت تشير بأصابعها إشارات غامضة.. تجاه الجنوب..

حاول عبد الله أن يتقدم. نجح في تقريبِ المسافةِ خُطوتين. لم يستطع بعدها تحريك قدميه المزروعتين في رمل الشاطئ.

لم تتحمل شجرة الشُّعب المُرجانية جسم الطفلة الهُلام، الذي أخذ يتزلَّق بين أغصانها وثمارها. إلى أن وقع على الرَّمل الرطب، وتسايل منه الدَّم أكثر غزارَّة، فيما الطفلة تصرخ في ألم وقد

استمرَّت تدير اصبعها باصرار نحو الجنوب تارةً، ونحوِّه هو تارةً أُخرَى.

ثم نهضت الطفلة. ففرَّ أهل القريَّة جميعاً، كأنهم يفيقون مخلوعين، وما لبثوا أن اختفوا كفاقعة تبددت في فضاء القريَّة الساكنة إلا من عواء كلاب القرى المحاوِّرَّة، وظل هو مزروعاً في المكان لا يقوَّى على الحركة، متنازع الاحساس بين الفرَّار، والاقتراب منها.

اتجهت نحوَّه بقدميها الصغيرتين، اللتين لم تكونا تخطان أثراً على الرَّمل الرطب. أحس مع اقترابها منه بقوَّةٍ خارقة تدفعه للرَّكض. ركضت الطفلة خلفه. وعندما التفت نحوها بعد أن قطع مسافة -ظنَّها طويلة- لم يرَّها.

كانت من تركض خلفه فتاة ناضجة.. ازداد خوفه فركض أكثر.. ابتعد كثيراً إلى أن تبدى له فجاةً في قلب القريَّة، بيت غريب لم يرَّه من قبل، تنتصب أمامه ذات تلك الشجرة الغريبة، التي تركها خلفه عند شاطيء النَّهر. نهض على نحوٍّ مفاجئ بيت من الشُعب المُرجانية فاغراً درفتي بابه. دلف داخله بسرعة وهو يغلق الباب خلفه باحكام الخائف، ثم ألقى بجسده المرتعش على الباب.

انتبه إلى أن ساحة البيت كانت مليئة بالسلاح الاتوماتيكي الخفيف، والثقيل. بل تكاد تكون مكتظة بالاسلحة، كأنها ترسانة صغيرَّة. لفتت نظره مطبعة خشبية بدائية، ورُزم كبيرة من ورَّق الآي فور، رد بصرِه عن ساحة البيت، ونظر من ثُقب الباب..

كانت الفتاة تقف برجاء وهي تنظر إلى الباب المغلق دونها في أسى، كانها تعلن خيبتها. إحساس غامض بالتواصل معها نشأ داخله، وإحساس آخر نقيض كبل فيه كل محاولة للاستجابة. بدت الفتاة يائسة، فارتدت راجعة وهي تهتز كنخلة في مهب الرّيح.

توقفت في منتصف الطريق المفضي إلى خارج القريَّة، وهي تشير ذات اشارات الطفلة المبهمة. كانت تدرك أنه يتابعها بنظراته من ثُقب الباب. ثم لم تلبث ان تلاشت فجأة كما ظهرت فجأة، مخلفة ورائها امتلاء الهواء والمكان برائحة الشُّعب المُرجانية، حيث لاشيء سواها.

ألم به صداع عنيف. وجسمه شيئا فشيئا يكتسي برطوبة العرق. مضى الوقت بطيئا، قبل أن يخرج متسربلاً بفشله في استيعاب ما حدث! خرج يبحث عن الطفلة/ الفتاة.. تمور داخله أفكار

مختلطة. تصطرع كحرق في أتون بركان غاضب. لتملأه بالمشاعر والأحاسيس الساخطة والغامضَة، والمتناقضة في الوقت نفسه.

عاد الى ذات النقطة التي كان يقف فيها على الساحل، دون أن تهدأ خواطرِه، أو تجد تفسيراً يُهدئها، ظل في وقفته متصلباً إلى أن انبلج الفجر، فركع على قدميه، ورَّمى راسه بين ركبتيه ولم يعد يعي شيئا!

***

أنكرَّ أهل القريَّة جميعهم رؤية الفتاة، ولم يصدقوا حكاية عبدالله، وأكدوا لسالم:

"صاحبك جُن"

واعتقد سالم أن ما حدث لهم في جبال النوبة؛ قد أصابه بمسٍ من الجنون، فهما بالتحديد دون رفاقهم الآخرين، قد نجيا من الموت المحقق بأعجوبة، بعد أن حاصرتهما قوات الجيش والأمن.

كانت عيون الجميع تختلس نظرَّات، هي مزيج من الأسى والشك والرِّيبة، إذ أن بعضهم كان قد شاهد في أحلامه – أو كوابيسه– بيتاً كالذي وصفه عبد الله، إلا أنه لم يجرؤ على

التصرّيح فظل حلمه أو كابوسه نوعاً من الأسرار الدَّفينة التي لا يثق أحد في صحتها!.. ولذات هذه الأسباب لم يخبر عبد الله أمه أبداً بحقيقة ما حدث له في قرية سالم.

رفعت هيلدا صحون الفطائر، وأكواب الحليب الفارّغة من أمامهما. كان لانجور لايزال في ذات جلسته، التي لم يُغيِّرها أبداً كأنه الإله بعنخي.

تنهد عبدالله المُنْدُكُوْرُوْ بعمق، وهو يتلمس إحساسه وزوايا مشاعره، التي يؤرقها ترقب مستفيض، يوحيه الإحساس بالمجهول.. المجهول القديم/ الجديد.. الطفلة الشفقيَّة التي انثالت من شجرَّة الشُعب المُرجانية، التي لا تزال ماثلة في ذاكرته.. تحرك هذه الذاكرة المعطوبة كيف شاءت..

الطفلة والمحطات النائية والقَيلولات المفاجئة، ونبض من الأشواق التي يلفها الصمت ويحويها الأمل.. يطل عليه وجه دُرِّيَّة، تؤامه الذي ينبثق من المجهول وإلى المجهول يمضي!

***

"جَدَّتي كانت زوجة بيكر، لكن عشيقته فتاة الزَّاندي خطفت أُمي كي لا يتمكن بيكر من إقامة حكومة مُنظمَّة في خط الاستواء، وتزوج السلطان أُمي قسراً، مثلما فعل أسلافه مع أسلافي في جِن. ولم يعثر بيكر على أُمي من جَدَّتي، ولا حتى في كتب التارِّيخ، أضنَّاه البحث فرَّحل.

كانت أُمي تحكي عن لطف بيكر -والدها- كثيرا. ألم يكن مهذباً أكثر من ذلك الدَّفتَرْدَارْ السفاح الهمجي، وألم تكونوا قُساة بخطفكم لها؟"

***

الفصل الرابع

(لا) سلام عليك.

أما بعد،

فإنك مرَّقت من الدين مُروق السهم من الرَّمِيَّة، علمت حيث تجرثمت، ذلك أنك عاص لله ولولاة أمره، غير أنك (..) جَلف، أمي، تستطعم الكسرَّة، وتشتفي بالثمرَّة، والأمور عليك حسرَّة (..)

من خطاب الحجاج لقُطرِّي إبن الفُجاءة زعيم الخوارج

إنزلق سعود إلى الشوارع الممتدَّة، والمتمددَّة كوحوش خرافية، ورأسه يطن كأن خلية نحل تموج بداخله مرَّ بمحلات لبيع الأشياء القديمَّة، وتوغل في عمق السوق بحركته المزعجة، وأجواءه المتخمَّة برائحة العطن..

الرّيح. البرد القَّر، والشجرَّة الجرداء المهتزَّة أمام البيت، وصراخ أطفاله الجائعين.. غراب نحيل الخاصرَّة (أغبش) ينكمش على الشجرَّة الجرداء، المتجرِّدة من أي ملامح يُكرِّس داخله الاحساس ذاته، بالعتْه والغَّم والغُربة.

كان اليأس قد تملكه، بعد أن تكرَّر مجيئه وذهابه الى مكتب الشيخ لأسابيع عدَّيدة، دون طائل يجنيه من وراء ذلك.. فمنذ حقق الشيخ ولي الدين الغريق أحلامه العجيبة، واستولى على السُلطة في البلاد الأسيرَّة لم يعد من السهل عليه أن يلتقيه. فبالأمس فقط جلس منتظراً في الاستقبال أكثر من خمسة ساعات، دون أن يتمكن من لقاء الشيخ، هو الذي ترك غربته البعيدة في بلاد النفط، يُمنِّي نفسه بأحلام جديدَّة، جاء يحملها، لكن الشيخ..

قاطع موظف الاستقبال خواطره، وهو يربت على لحيته الأنيقة بطريقةٍ متكلفة:

"يا أخي لقد كثُر ترددك، ولولا إشفاقي عليك لسكت عن الافصاح عن الرَّغبة الحقيقية للشيخ"

وسكت، فنظر إليه سُعود متسائلا..

"في الحقيقة لا يرغب الشَّيخ في مقابلتك"

شعر للمرَّة الأولى بأنه كم كان عبيطاً. نهض مكسور الخاطر والدنيا، كل الدنيا تدور في رأسه!

***

الرِّيح لم تسكت، وموجات البرد تزداد، والغُرفة الحقيرَّة التي وهبتهم إياها والدته، بأرضيتها المتعجة، تُذكي داخله مزيج من الاحساس بالبرد والأسى.

(سفات) التمباك المحاطة بدوائر البصاق الجاف، في كل مكان، مروحة السقف المتهالكة بلونها العتيق، تتوكأ كعجوز تعاني أمراض المفاصل. يتساقط الغبار من السقف البالي، إثر اهتزازها الثقيل.

أدار أحد كاسيتاته المفضلَّة.. الشيء الوحيد الذي جاء به بعد اغتراب سنوات. تأوهات الصوت الشرقي المبحوح، المنبعث من

جهاز (القاريُونُس) تمتزج بتأوهاتهِ المكتومة، تشكل معها جُرحاً نيئاً لا يبرأ.

على الجدار المقابل للمائدة العرجاء، عُلقت صوَّر عديدَّة تُطلق أصواتاً شاحبة. تحت الصوَّر كانت أسماء الأنبياء الشائعين تلوح في فراغ المكان، وتطوِّف كتموجات دُّخان السجائر. هتفت فيه سلمى جزِّعة:

"البنت عندها أنيميا"

"وماذا أفعل لها؟"

"أنَه الجوع"

فاكتفى بنظراته الزاجرَّة بقايا الخمر البلدي تبعث رائحة كرِّيهة. مسح فمه في حركة لا إرادية، وَتلمظ شفاههِ الجافة. تمدَّد على السرير المحفور وسط أربعة خشبات متهالكات..

المرَّايا المعلقة على الحائط المقابل، اعتلتها صُوَّر للشياطين والأنس والجن. مستنقعاً قانياً يتوسط المرَّايا، يطمُث ملامِح الرُّؤيا الكاملة.

ضوء شحيح يتسرب من السقف، والشرخ الممتد في المرَّايا، يعكس صورته كسجين يستعد لدخول المعتقل مرَّةً أُخرىٰ في ذات لحظة إطلاق سراحه..

بقايا سوداء من الشَّاي متجمدَّة في قاع الكوب المتآكل الحواف -والذي عافه النمل- كان يُفكر في الكيفية التي يمكن أن يخرج بها نفسه، من هذا الزِّكام النفسي الحاد، فخرج ليجدد طقوس السيرعلى الطرقات..

مرَّة أُخرَّى يحتويه الطريق ذاته، ومرَّةً أُخرَّى يُحرِّك فيه، بقدميه الأوراق المتناثرة هنا وهناك، في حركة موتورَّة. فقاعات ضوء تنفجر بانقطاع التيار، تجدد انفجاراتها في الحس، العواصف الباردة التي يهيجها الشتاء بداخله.. ودوامات الغبار تتراكم. مد الأُفق، الرِّيح تزعق بشدَّة، ودواخله تصر كالباب القديم المهجور لحظة فتحه.

انطفأت لمبة النيون ثم أضاءت، كانت تنطفيء وتضيء ليملأ ضوء باهت فراغ المكان، المسكون بالفئران القزِمة، والضيوف الثُقلاء من فصائل الحشرات.

تخيَّل نفسه صُرصاراً بقرنَّي استشعار وعيون مركبة. وتذكر علاقته التاريخية بالصراصير، حاول طرد هذا الخاطر الملح، ثم عاد للتآلف معه، إذ يسحبه بعيداً إلى أغوار ماض حميم فقده إلى غير رجعة، حينها كان يحكي لصديق عمره متوكل:

"تلمست شعري المُبتل، وقدماي تستقبلان الطريق. لم أُجفف جسمي بعد الحمام، كنت لا أزال مُرهقاً من السهر بسبب ذلك الصرصور اللعين. كان ضخماً، مخيفاً بأجنحته الحادَّة. نفضته عن الملاءة بذُعر، وظننته خرج من الباب، ففوجئت به يمشي على الستارة، التي تُغطي الجدران.

كان يمشي وقرنا استشعاره منتصبين، كأنه يُحذرَّني بعينيه، اللتين تطاير منهما الشرر. منَّيت نفسي بنهايته، سحبت كتاباً تُراثياً ضخماً -كُنت قد استعرته من الشيخ الغريق- وانقضضت عليه بغتةً، ثم سحبت الكتاب وأنا أتنفس الصُعداء!

وضعت الكتاب مكانه على الرَّف، وواصلت قراءتي، وإذا بي أتفاجأ به يستقيم على خدِّي قفزت من السرِّير وأنا أحاول إبعاده بعنف غرِّيزي، وأخذت أُطارده بإلحاح إلى أن أصبته. بعدها حاولت التركيز مراراً على قراءتي في الكتاب، لكن لم أنجح فعيناي تجرِّيان على السطور دون أن أفهم شيئا!

كان قد أفسد ليلتي إلى غير رجعة، فقد أخذ يتراءى لي طول الليل"

ضحك متوكل وهو يقاطعه:

"الفئران ليست كالصراصير"

وتذكرت الخوف المزمِن لمتوكل من الفئران، ففي إحدى الليالي التي بات فيها معي، بسبب عدم توقف الأمطار. نهض من نومه مذعوراً في وقتٍ متأخرٍ على وقع شيء ثقيل، فأفقت أنا الآخر. ما حدث بالضبط:

أن متوكل -كما روى- قفز قفزة واحدة جعلته خارج الغرفة، اتبعها بأُخرى أعادته إلى داخلها مرَّة أُخرّى.. على سريري وفوقي مباشرَّةً، حاولت استيعاب المسألة، فاكتشفت فشل قانون الجاذبية!..

فأوضح متوكل أن فأراً خبيثاً داعب أحلامه -هكذا ظن في البداية- وعندما أكتشف أن الفأر واقعاً ماثلاً على أنفه، قفز قفزته التاريخية.. مازحته ربما اشتم فيك رائحة أمه!

نجح سُعود في طرد خاطر علاقته التاريخية بالصرصور آخيراً وهو يستكين للفضاء الغاضب حوله. كانت الرّيح بالخارج لا تزال تعوِي، والمطر اللاسع يتساقط زخات زخات، ومع اشتداد تساقطه ووقع قطراته على السقف، تنشحن النفس بكآبة الرّيح ومخاوفها، تمنى في هذه اللحظة بالذات زجاجة مياه غازية!

بحث عن بقايا شمعة في الدُّرج المتآكل، تعثرت أصابعه بشيء جاف. ركز حواسه عليه، استعان بالأنف وملمس الأصابع الجائعة.. لم تكن سوى قطعة خبز جافة.

ابتسم بمرَّارَّة وشحوب مقيت يكسو جلده البارد، لكن الجاف. لمع البرق فقذف قطعة الخبز الجافة على المرَّايا، وقرَّر الخروج دون أن يهتم لأمر المطر، معتمراً حزنه، قلقه المقيم مضى!

موجات البرد تدخل بعنف من النوَّافذ المفتوحة على الفراغ. تراجع عن الخروج، وحاول أن يستسلم للنوم. حاول أن يرفع جفنيه المثقلين، وهو يسمع وقع خطوات مائية على أرض الغرفة، التي أسقط الزَّمن نوافذها وبابها.. كانت سلمى قد جاءت لتكلمه في ذات الموضوع: صغيرتهمَا المريضة.. فيما تموجات الذَّاكرة تمضي بسلمى إلى سنواتٍ خلَّت، كان فيها حالها غير هذا الحال، عندما كان الجميع ينادونها (بِهبة الآلهة) وهم يتمنون لمسة من يدها، أو ابتسامة صامتة فحسب!

كانت سلمى ملكة الحفلات والرَّقص، عندما تلامس قدمها الرشيقة الأرض كالهمس، تأكل الغيرَّة حينها كل الصبايا، ويظل الشِّبان مسهدون لأيام تطول ولا تقصر.

لم تكن تبتسم إلا له الأمر الذي جعل العَوازِّل يُخرجون ألسنتهم من قاع حلوقهم، ويُشهرون بلاعيمهم فاتحينها إلىٰ أقصى سقوفها، ولهذا السبب بالذات وقف متوكل ألف أحمر فطفح الكيل وفاض في ربوع البلاد الأسيرَّة واحتدمت المعركة بين سُعود وأهله، وانزوَّت سلمىٰ على نفسها تحت الحصار براً وجواً.

كانت سلمىٰ لا تزال تُحدِّق في جسم سُعود المسجىٰ أمامها كالمَّيت وهو يغط في نومٍ عميق -هكذا ظنت- غير آبه حتى لهذا البرد والمطر.. كانت تشعر بالإنزِواء في حياته، فحدثتها نفسها بالطلاق، ومحاولة البدء من جديد.

تلمست بطنها المنتفخ، وتأوهت في حزن. وسنوات غربتها معه. تستردها إلى ذلك اليوم الذي قررَّت فيه الحكومة الليبية طرد الأجانب.. صرَّخ في وجهها:

"يبدو أنهم يتآمرون معك ضدي!"

"ماذا تعني؟!"

"ألا تُصِّرِّين منذ خمسة سنوات على العودَّة، ها نحن سنعود الآن رُغم أنفنا"

كان متوتراً، اختلط غضبه ببكاء الأطفال، الذين أنزووا في رُكن الغُرفة الخالِية، إلا من الإسفنج بصرَّاخها الذي تحوَّل إلى نشيج متقطع وزفرَّات مغلوبة.

فتت الحشيشة التي في راحة يده، أزال غلاف السيجارة الرياضي. مزج الحشيش بالتبغ ولفهما بحنكة. فتش عن كبريت في جيبه فلم يجد، إنتهرها:

"كبريت"

نهضت مهيضة الجناح، بحثت في أرجاء الغُرفة قليلاً وجاءته بالكبريت. أشعل اللُفافة. نفث دخانها في توتر، شعر بنفسه يهدأ شيئا فشيئا، وشعور ملوَّن ينساب داخله كشلال.

تمر الصوَّر والمشاهد على خاطره مسرعة متوترة تستعرض محطات هامة في حياته البائسة، فتنهض سلوى حب حياته الفاشل.

سلوى التي تركت كل الطفولة خلفها، فرحلت بها أسرتها جنوبا.. أشياء كثيرة تتبدى بين تلافيف الذَّاكرة، تهوِّم في الفراغ.. نفث دخان سيجارته تشكلت دوائر وخطوط متموجة، تابعها، تابعها تابعها.. تلاشت عند نقطة التقت فيها نظراتهما. احساس

دافِق يبلل عُروقه بصهد لاهب، كذلك الإحساس ليلة توحدا لأول مرَّة..

كانت سلمى محبوسة في غُرفة مشددَّة الحرَّاسة، وطفله داخلها ينمو بهدوء.. وكانت أُمها وأُختيها قد جرَّدن الغرفة من أي شيء قد تستعمله للانتحار، وأشرف تقي ود زهرة بنفسه، على تبطين الجدران والأرضية بالاسفنج، دون أن تتوقف يده السخية عن الانفاق، هذا الانفاق الذي لم يحوِّل حبها لسُعود!

قال لها الغريق ذات مرَّة:

"من أكبر المصائب تبديل الحاضر بالغائب"

ففسرت (الغائب) بأنه سُعود الذي لم تكن تريد سواه..

وفيما كان موعد زفافها إلى ود زهرة يقترب حثيثا، كان سُعود يعد الدقائق والثواني وقد قرر في اللحظة الحاسمة، شيئا مباغتاً لاختراق البيت الحصين، الذي وضعها فيه عريس الغفلة!

كان يقف خلف تقي ود زهرة إثنان من رجاله الأشداء في جلاليبهم الملوَّنة، قطع أحدهما المسافة إلى أقصى الغرفة. وأزاح ستاراً مسدلاً على الجدران الأيسر، ثم مضى إلى الجانب الآخر من الغرفة، بخطوات بطيئة حانياً رأسه في خشوع، مزيحا ستاراً

آخراً من على الجدران المقابل، فبان تمثال صغير من الجبس انحنى يردد عبارات مبهمة ورَّمى بحباتٍ من بخور (أُم التيمَّان) وأعواد قصيرة ذات روائح مختلفة، ثم تابع بعينين متأنيتين الدُّخان وهو يتصاعد، يطوق التمثال، فتغيب ملامحه في كثافة الاحتضان.

تمتم العريس وحارساه بصلوات سرِّية طويلة، قطعها تعالي هتاف ضاج في الخارج. كان سُعود قد استعان بأنصار الشيخ الغريق، ومتوكل وأصدقائه القليلين، وهم في طريقهم للهجوم على بيت تقي ود زهرة نَمَّت التظاهرَّة نفسها..

شارك فيها كثيرون لا يعلمون سببها: الأهالي والمشردين والطلاب وبعض الأفندية المأزومين السياسيين الفاشلين، الذين حاولوا حرف هتافاتها التي تنادي بحرية سلمى، إلى شعارات تنادي بسقوط الحكومة، ففشلوا -حتى- في ذلك.. كانت المظاهرَّة الصغيرَّة قد نَمَّت نفسها إلى تظاهرَّة عرَّمرَّم، فكان صوت الهتافات يصل ود زهرة داوياً، مخيفاً..

دخل أحد رجاله لقد أحرقوا سياراتك سيادتك كانوا يهاجمون الأبواب وهم يقذفون باطارات السيارات المشتعلة.. أربكت النيران المتصاعدَّة تقي ود زهرة، فأخذ يهتف:

"الأمن، أين الأمن يا أولاد الكلب"

خرج تقي ود زهرة مفزوعاً يتبعه الآخرون، لحظتها كان سُعود يتسلَّل، باحثاً عن المكان، الذي تم إخفاء سلمى فيه، وعندما عثر عليها أغلق الباب خلفه، بكت حين رأته حتى سال الكحل من عينيها، احتضنها مهدئاً. صار المكان حولهما بقعة من الضُّوء الملوَّن.

جذبها خلفه متسللاً بحذر قاطع طريق -لا يدري أحدهما حتى الآن، كيف تمكنا من عبور حلقات النَّار المشتعلة في كل مكان- كل ما يذكره الآن، وبعد كل هذه السنوات أنهما وجدا نفسيهما في غرفة للشيخ الغريق -كانت مأوىً لأحد أنصاره الغامضين بأطراف المدينة- في الحي العشوائي البعيد!

أخلى لهما نصير الشيخ المكان. ومضى يرفع تقرَّيره للغريق.. وكانت سلمى لا تزال في غيبوبة عميقة.. والآن، بعد كل هذه السنوات. ذات الاحساس الدافق ذاك الذي بلل عروقه في الحي العشوائي البعيد، يسترده إليه: عارٍ وعارِية. لكنها لم تعد هي ذاتها، قطعت عليه حبل ذكرياته. وهي تظن أن اللحظة مناسبة:

"سُعود"

"يا عيون سعود"

"الطفلة"

صرخ فيها لاعناً الأطفال وجذورهم وسلالتهم!..

ارتدى ملابسه بسرعة، وخرج صافعاً الباب خلفه بشدة، احتواه الطريق ذاته ببرده الجاف، كان عارياً إلا من ثيابه الداخلية. والأبرول الملبك بالزّيوت والوقود..

ليبيان رفعا صوتيهما يتحرشان به. ابتلع أساه متجنباً العرَّاك ومضى منكسراً، ودواخله تمور بالغضب المكتوم. وصل إلى الورشة فهتف به عامر:

"ما بك عدت سريعا؟"

"لم احتمِل البقاء في البيت"

"انت تعمل أربع وعشرين ساعة يا رجل؟"

"وأنت أصبحت مواطناً هنا"

"للضرورة أحكامها. كنت أحلم ذات يوم بقيادة التغييِّر"

"لا زلت تتذوق طعم خيانة رفاقك لك"

"من منا لم تتم خيانته. قلت لهم أن سالم خاننا فلم يصدقني أحد"

كلما وردت سيرَّة سالم وعلاقته السرِّية بتقي ود زهرة؛ الذي شاعت حوله الشائعات، حول تقلده مهام الأمن بدعم خفي من الغريق، وأنه على علاقة سرية به، كلما وردت سيرَّة سالم في أي سياق ترتجف دواخل سُعود فزعاً، إذ يخشى أن يجيء اليوم الذي يكتشف فيه عامر، أنه كان على علاقة سرِّية بالغريق..

علاقة بريئة خالية من أطماع أمثال سالم. سُعود يعرف رد فعل عامر. يعرف مدى تطرفه في مثل هذه الأمور. فهذا التطرف هو ما قاده لا لهجر الأصدقاء والرِّفاق فحسب، بل كل ربوع البلاد الأسيرة.. كأن الجميع خانه، وليس سالماً أو الحزب وحده..

"ما الذي يمنعك أنت من العودَّة؟ حبك القديم لسلوى؟"

"لا، لا.. لا أملك حتى مجرد نفقات العودَّة"

"هذا أمر لا يصدق!"

"للأسف أنها الحقيقة؟"

"أصدقك. سأُدبر لك الأمر فلا تقلق. الأفضل أن ترحل الآن، قبل أن يتم ترحيلك قسراً فلا تعرف العواقب"

"وأنت؟"

"كما قلت أنت. هنا وطنِّي البديل"

كان الليل في الخارج يُرخي سدوله، عندما جاءت المغربية صديقة عامر، في ذات التوقيت المعتاد لحضورها الاسبوعي. دخلت إلى الغرفة الملحقة بالورشة، نخرج هو مفسحاً لهما المكان. أطفأ عامر النور الداخلي للورشة، وانهمك سُعود على أحد المحركات، مكتفيا بضوء الورشة الخارجي.

غيمَّة من الذكريات تظلل خاطره.. كالشوكة (تنقح) في اللحم الحي، تتفتق الغيمَّة عن سلوى وصوتها يلاحقه:

"لكنني أحب شخصا آخر"

حاول نسيانها في العلاقات العابرَّة، إلى أن بدأت نوافذ للود تفتح أدراف قلبه من جديد، عندما رأى سلمى بعد غيبةٍ طويلة. وتكرَّر اللقاء..

كرعدة تحطم حصون المعاناة، و تضمد جُرحاً قديماً في الآن ذاته، التقى سلمى على أنقاض حبه الذَّبيح لسلوى، كان ثمَّة ميلاد لحرائف مثمرَّة، على الأرض التي أجدبها طول الإنتظار والمحل، قد بدأ يُزهر داخله. سارا تجاه البحر ليلاً، وسلمى تُضيء كنجمة سُهب ترشد السارِّي، حبها معالم لطريق موحش وبلسم لجراحات متمددة، تتبعثر سوالفها تغطيها برائحة الطين وظمأ المفاوِّز كان حديثها كزَّاز.. حبات مطر شارد.. يحكي عن ظمأ المفاوز و(مشِيش) الوِّديان ليروي قلبه بالحنين.. ينسى عذاباته. جراحاته، وقلبه الذي كالنَّافذة المغلفة بالعتمَّة. ينفتح لوجهها المنوِّر، تفتح قفله الصديء. تُشرع ادرافه على مصراعيها، ويطلان معاً على عوالم تسبح في بحر من النُّور.

كانت سلمى كوقع الأُنشودات الربيعية.. وكانت حياته معها في ميلاد هذا الحب، حُلُم لا أول له ولا آخر! ينطلقان متشابكي الأيدي، والحي الشعبي البائس يختفي خلفهما، تتلاشى معه ملامح البلاد الأسيرة، فلا يبقى إلا وجه النيل ذو الإيحاءات والشجن، القمر المترَّع بالصفاء، والاحساس الرَّخو بالليالي المخملية.. إلى أن ظهر في حياتهما تقي ود زهرة مغرياً أهلها بالجاه والسلطان.

كانت سلمى لا تزال تُحدِّق في جسد سُعود المسجي أمامها. انتبهت أن المطر قد توقف منذ فترَّة طويلة. اقتربت منه.. "سُعود. سُعود"

لم يرد عليها. خالته يغط في نوم عميق فانسحبت يائسة. بعد أن خرجت انتصب على السرير. ادمعت عيناه. كان يشعر بالقهر. خرج. بدت له البلاد الأسيرَّة طاردة. غريبة عنه. لا ينتمي إليها. كأنه يراها للمرَّة الأولى. انزوى على نفسه وهو ينزلق إلى قاعها!

***

الفصل الخامس

لمن إذن؟

تلك الأساطيل التي يبنونها في البر،

أو في البحر،

أو في الجو..

للنازية السوداء أم للطفل؟

أم للمشي خلف جنازة الوطن القتيل؟!

الفيتوري، من نص: يأتي العاشقون إليك

"أنا أتالم الآن لمقتل أجدادك في أُم دبيكرات. لكن كان لا مناص من موتهم. كانت هزيمتهم."

قاطعها:

"اسمعي جيداً. أجدادِّي لم يُهزموا. هزيمتهم هي نحن."

"أنتم تقولون النَّار تلد الرَّماد"

"ولذلك لم يتغير وجه التاريخ منذ 1956 توقفنا لحظة قُتل غُردون؛ ولم نبارح تلك اللحظة حتى الآن"

سوزان حروف منسوجة من التوتر والقلق والدَّم والدموع. يحلُم عبد الله.. لا شيء سوى الحلُم، بعد البحث المضن لاكمال مشوَّار لا نهاية له. لابد له من الانعتاق من أسرِ سوزَّان.. رُبما يتمخض مزيد من البحث عن بارِّقة أمل. عله يجد دُرِّيَّة مرَّةً أُخرَّى، ربما تنزلق من شجرَّة الشُّعَب المُرجانيَّة، بجسمها الهلام، وتطارده أو يطاردها متخطيا حدود القرية، إلى أقصى تفاصيل المكان، الذي يحمله داخله، كدرب (الجلُجُلَّة)..

"جَدَّتي في طفولتها."

"وجَدِّي كذلك"

"ألا تُصدِّق أن جذُّوري هُنا، ألا تُصدقني؟!"

"بل هذا هو الشئ الوحيد الذي أصدقه، جميعنا جُذورُنا من هنا. ما لا أصدقه أشجار نسب بعضنا لأقوام خُرافيين قد لا يكونون سوى شخصيات قصصية ألفها بعض الشُعراء الصعاليك"

"إذن لماذا هذه النظرات الغامضة؟"

وتنقل راحة يدها إلى وجهه، تديره إليها. يتأمل أغوار عينيها فلا يرى سوى اللَّوعة والأسى العميق. هذا المحيط الأزرق إلى درجة الإحبرَّار، لو تقاسمها البحر لتكحلَّت كل حورياته الحزينات، ولتلبدت سماء المدينة بمزيدٍ من أغنيات الشجن الهارِّبة، في عينيها الراحلتين في أبدية ماض غامض، إلى راهن متوحش. سابح في فراغ الخطاوي من كل الأحلام التي داعبت خيال الدواعش وأتباع حسن الصبَّاح!..

رؤية غامضة مليئة بالأسرَّار والإنعتاق تدهمه. يبعدها، وصدى صرّير السلاح الأبيض -كفتح الأبواب العتيقَّة- في اصطدامه بالرُّصاص يعانق رنين خلاخيلها، وحكة خاتمها الماسي. في القِلاَّدَة الإفريقية السوداء. التي تزين معصمه.

"عندما أُقيل والدي من وزارته المحلية، التي تمخضت عن أديس أبابا هاجر بنا.. في الحقيقة هرب من الحرب مثل كثير من

السلاطين. لكنني تركته. تركتهم جميعا في مدينة الضباب وعدت. عدت إلى هنا تطاردني لعنَّة الأموال التي سرقها وهاجر"

"لماذا عدت؟"

"لأنني أنتمي إلى هُنا"

"هل تظنين انه بمجيئك مع منظمة إنسانية، ستنقذين هؤلاء القوم؟"

"سأفعل ما بوسعي لاطعامهم، ومدَّاوة أمراضهم"

ضحك عبد الله حتى أنكفئ..

"ما المضحك؟ من أنت بحق الشيطان؟"

"أضحك لأنني أُدرك قوانين اللَّعبة. هذه اللَّعبة كبيرَّة جداً. أكبر مما تتصوَّرِي"

رائحة العَرَّق المُبهِر بالدِّيْدْرَّن الأُنثوي، الخال من الروائح، ومزيلات العرَّق الأُخرى المعطرَّة، والعطور الهادئة، الطالعة بهمس من كل ذرَّة في كيانها. هذه الرائحة تثير جنوني، المسجون في قمقم، وتلك الرائحة تجدد اشتعال تيار النَّار في سلسلتي الفُقارية، ويافوخي!

”كم أُحبك عبد الله“

”في المرَّة الأولىٰ التي رأيتك فيها، اعتقدتك من الآفروأمريكان. ملامحك وطريقتك في الكلام مثلهم.. لماذا لم تخاطبينَّني بعربية جوبا عندما التقينا للمرَّة الأولى؟!“

”لا أدري أنه أمر فعلته هكذا بعفوية“

”قال سالم ذات مرَّة:

”رُبما تكون (دُرِّيَّتَك) هذه جنية“

انسكبت سوزان، فأصر:

”لابد أن أرحل“

***

هدير محركات الباخرَّة يمزج في نفس عبد الله. مسافات السفر الطويل الذي قطعه كأنه راجلاً على قدميه، ومعالم طريق العوارض لا تزال عالقة بخاطره.. وهكذا تمتزج لحظات اللقاء بهاجس الترقب والانتظار.. تتكسر الأمواج بجسم الباخرَّة الهرِّمة، تعانق صدره كل الأشواق الممزوجة، في الحنين الجارف للمجهول.

النيل يمتد أمامه كحُلمه بدُّرّيَّة. سماوِي كدَّمِها، مخلوطاً بالبُهار ورائحة ألف ليلة وليلة. والباخرَّة نيمولي تشق عبابه بجُرأة وحذَّر متناهيين -سأبحثُ عنك يا دُّرّيَّة حتى الموت، ربما ألتقيك وبكل برَّاءة الطفولة ومحبتها ترسمين على رَّمل الساحل أمام تلك الشجرَّة المُرجانية الغرِّيبة كلمة واحدة:

"آخيرا"

"آخيرا"

تتبدين تؤامي لا تلك المخفية بين أجداث الذَّاكرَّة بل كل شيء حتى الذِّكريَّات المشترَّكة. تُرى بأي شكلٍّ ستنداحين عن موج النهر؟ أنلتقي هُنا في جوبا؟ ننتظر هدوء الجو الذي أثاره غُبار المعارِّك الاستوائية، التي مضت والتي ستولد واحدة تلو الأُخرىٰ.

أنتظر هدوء تمرداتنا على أقدارنا المرصودَّة كالسحر، ونمضي لنشوِّي عيش الرِّيف والبفرَّة، وإذا أتى جمَّالي نوقعه من على جمله ونضربه حتى الموت. نسفك دمه كما سُفك دَّم المسيح، الدَّم لعنتنا!

تميل الباخرَّة ميلاً حاداً، إثر موجة عنيفة، فيتشبث عبد الله بالسياج. عيناه المتشوقتان لرؤية دُّرِّيَّة تحتضنان الأُفق الملبَّد بالغيوم. ترتسم على شفتيه إبتسَامة واهنة وهن الأُمنيات المدفونة برحم الغيب.

يقذف إلى البحر بثلاث حصوات، من وسط البحر تطلع دُرِّيَّة: حورِّية صغيرَّة بريئة تأخذه معها إلى عالمها البهيج، يقطعان معاً الدَّرب الضيق بين الشُعَّب. تربط في عنقه تعويذَّة قهر المخاطر، فيمضي مندفعاً إلى بلاد الجن. يجلّب الدِّهان السحرِّي، الذي يحيل نصفها السمكي الى آدمي! وتجلِّس في باحة الدَّار، تثني وهي تُشذِّب أغصان الريحان البرِّي. تنغرس شوكة رفيعة في أُنمُلها، فيبدو على وجهها السحرِّي الألم. فيضع قدمها على حجرِّه ليخلع الشوّكة، التي يشعر بها كغصةٍ في حلقه.

ثمَّة أحلام وتصورَّات، تأتي في كل لحظة طلق متعسرَّة، كطارق ليل يُمزِّق بكارَّة الصمت والهدوء.

"ماذا كان سالم يعني؟"

"هل فعلا به مس؟"

يلفت نظرَّه طائر نهرِّي في بقعة نائية عن الباخرَّة. يغوص الطائر في أعماق المياَّه الشفافَّة، مشعلاً في دواخله مشاعراً متداخلة. كل منها مقاطع من غُيوم حبلى بالوعدِ والمواعيد والوعيد..

يغوص الطائر النهري في الأعماق السحيقة. يستحيل إلى قطعة أثيرية، تأخذ شكل الثلج، فيتحوَّل عبد الله خلف السياج إلى كتلّة من التوتر، فيبتعد عن السياج.. هوَّة سحيقة تتسع بينه وبين مدن

البلاد الأسيرَّة. نيمولي وسط البحر. لا زمان. لا مكان. لا إتجاه. وهو يستند على السياج مرة أخرى، ممعناً النَّظر إلى النّهر. تقع عينيه على فتاة جميلة على مبعدة منه، فيرُّد بصرِه عن النهر إليها..

كانت حادة الأنف ذات بشرَّة مشرَّبة بلون القمح. حرَّكت فيه ملامحها انطباعا قويا، تسآل:

"لماذا لم تختر الطائرة للسفر؟"

لاحظ أنها تتابعه بنظراتها الآسرَّة. تأملها. كان وجهها مشبعاً بنوعٍ غريب من السحر. التفت إلى النَّهر وهو يحس باختلاساتها للنظّر. شعر بها تقترب منه على نحوٍّ مفاجيء لم يتوقعه. قالت في انجليزية أفريقية:

"هل تتكلم الانجليزية؟"

"بعض الشيء. ما يكفي"

وهكذا تعرف إلى سوزَّان سوزَّان المشبعَّة بحداء البحر ورائحته؛ وعواء الليل وأشجانه. حدثها عن البلاد الأسيرَّة التي سطى عليها الجنجويد، وأهلها وناسها الذين لا ينامون الليل، وهم معتكفون لأسابيع طويلة، لا قوت لهم سوى القرض وجرعة ماء يتيمَّة..

حدثها عن الكوليرا والسرطانات واجهاضات النساء الحوامل لسوء التغذّية والموت أثناء الولادة، حدثها عن هجرة واغتراب الشباب والختان الفرعوني وسألها:

"هل أنت مختونة؟"

فضحكت، وود أن يسألها أن تدعه ليكتشف بنفسه!.. لكنه دارى رغبته بالحديث عن (النوبة) والدرَّاويش والذِّكر الذي يقض مضاجع الليل ذاته..

حدثها عن كل شيء، إلا قرية سالم والطفلة -طيف دُرِّيَّة ولم يسكت عن الكلام غير المباح، فكان يلف ويدور من آن لآخر!

وحدثته عن القديسة بخيتة وروما، وعن لندن والضباب وثلج الشتاء، ودرَّجة البرودة في برمودا وجرينتش، برلين، هاييتي، روما، أثينا، باريس، حدثته عن نيويورك وميدان التايمز ومارتن لوثر كينج!

ولم تكف عن الحكي عن البلدان التي زارتها، والأُخرَى التي تحلُم برؤيتها.. وكانت المسافة بينهما تتسع، بالقدر ذاته الذي تضيق ليتسع بينهما مدى الحنين والشجن.

"أشعر بالأمان هنا أكثر منك"

"لذلك نحن غُرباء في بلادنا والأجانب مواطنون. هذه بلاد لا تُحب أهلها، فقط تحترِم الغرِّيب وتُعطيه ما تضُّن به على أبنائها"

"أنتم مسكونون بخوف أبدي"

كان وجهها ينطق بابتسامة ساخرَّة، انغرست في داخله كنَّصلٍ حاد.

"أكثر من نصف قومك من المهاجرين، والمنفيين، والمغتربين.. من تبقى هنا ليبني هذه البلاد؟"

"لا أحد سوى المغلوبين على أمرِّهم والحكومات المستبدة والأحزاب الفاشلة والمشرَّدين.. المساجين و المحاربين، هذا هو الشعب الفضَّل، بإمكانك أن تضيفي إليه الأجانب المستوردين، والذين جاءوا لإحتلال حواكير الآخرين نيابة عن الحكومة أو أصالة عن أنفسهم.. هؤلاء الأجانب المشبوهين الذين تكتظ بهم البلاد الأسيرَّة! فتنظر إليهم نظرَّة عابرَّة كأن الأمر لا يعنيها!..

"هذه هي قصة البلاد الكبيرة الأسيرة باختصار.. أخبريني لماذا أنت هنا؟"

"أنا موظفة في منظمة إغاثية تهتم بالطفولة والأُمومة" وتشعبت بهما الأحاديث، فاختلفا أكثر مما اتفقا.. وضحكا -رغم كل شئ- وهما يقطعان سطح الباخرة إلى الاتجاه المعاكس.

استندت على السياج. وقفت قبالته. احتوته نظراتها بعمق. كانا دافئين- رغم كل شئ! اهتزَّت الباخرَّة إثر موجة عنيفة، أمسك بها من كتفيها يحميها من السقوط. هدأت الباخرَّة التي أرهقتها مراوغات أعشاب معونة النِّيل اللعوبة!

ثم لفهما صمت ينطوِّي على انفعالات جياشة، لفحت وجهه بتنهدات أزمنة الرحيل الدافئة:

"وأنت لماذا في طريقك إلى الجنوب؟"

رد ببساطة:

"لا أدري ربما أُطارِّد طيفاً"

"طيف؟!"

وحكى لها عن دُّرِيَّة تؤامه، والشجرَّة في قريَّة سالم.. كانت قد نجحت في أن تفجرَّ فيه كل الهواجس، والظنُّون المكتومُّة..

"لا أصدق حرفا واحداً مما قلت"

انتفخ وجهه من الغضب..

"لم أحكي لك لتصدقيني أو تُكذِّبيني. لقد سألتنِّي فجاوبتك!"

شعرت بالحرج..

"أنا آسفة. لا تهتم أنا أيضاً يقولون عني."

قاطعها:

"غريبة الأطوَّار"

كان قد شعر بها كأنها تُعزِّيه فهدأ قليلاً وقال ضاحكاً:

"أنت بالفعل غريبة الأطوَّار"

على نحوٍ مباغت تناولت رَّاحة يدَّه وأخذت تعبث بها، وهي تنظر إلى النَّهر، متشاغلة بحركة الأمواج وهي تصطدِّم بجسم الباخرَّة الضخم.. هو الآخر أدار وجهه ناحية ناحيَّة النَّهر. شحناتٍ مرتعشَّة. خطوط ضخمة، تنسحب على الأُفق البرتقالي، الذي يشدَّه قوس من الألوان، يلفهما بالصَّفح والغفرَّان.

كالذي يصلي في محرَّاب، سلط بصرِّه بخشوع على النَّهر. والأُفق يمتد أمامه، يخني هابطاً بتقوسٍ حاد، حيث تلتقي أشواق الأرض بحنان السماء. ومن نُقطة مماثلة للتي ابتلعت الطائر النَّهرِّي. يخرج

طائر آخر يشق بجناحيه المياه الشفافة. يُرفرِف. يُحلّق شاقاً عباب النَّهر، وغشاء الهواء في اندفاعة حادَّة، يستحيل بعدها شيئا فشيئا إلى نُقطة ضئيلة، تختفي خلف الأُفق الممتد، تاركاً خلفه خيط شفاف، تُمسك دُرِّيَّة بطرَفه!

***

تدثَّرت الشمس شيئاً فشيئاً بالغيَّاب، وبدت أنوَّار الباخرَّة الساقطة على صفحة الماء، كحُلُمٍ رومانسي عذب، في لوحة رومانتيكية، لا تخلو من هدهدَّة الطفولة والخُضرَّة. لكنها موسومَّة بالحزن. يتسلَّل ضوء القمر شيئاً فشيئاً، كوَّات قمرَّات الباخرَّة.

ومع إيغال اللَّيل يُكمل خطوط اللَّوحة.. خرج عبد الله من قمرَّته. حدثته نفسه أنه سيلتقي سوزَّان على السطح.

كانت جالسة على أحد المقاعد المتناثرَّة سحب مقعداً وما أن جلس حتى شرَّعت بتلقائية شديدة في حديث حالم، وهي تضحك في عذوبة. نهضت فتبعها. استندا على السياج، وصمت حميم يلفهما في غلالته الليلِّية، إلا من أضواء الباخرَّة المتموِّجة على سطح النَّهر..

تأخذهما التموُّجات إلى عالم رَّشِيق صوفي هادئ تدفع عبد الله للمزيد من مقاومة شعورِّه نحوها.. هذا الشعور الذي تستثيرَّه

ويؤازرَّها فيه الليل والهدوء وهمس الأمواج، التي يتموج عليها النور المنبعث من كُوَّات القمرَّات..

ضوضاء الميناء وأشواق المسافرين، تختلط بأحزان آخرين، يبحثون عن الحقيقَّة في المجهول. هذه النُقطة من الساحل، نكلية نحلٍ تضجُ بالمودعين والمسافرِّين والقادمين، والآتين لاستقبال أوطانهم وفي داخل كل منهم وطن مختلف -دون أن يدري- عن الذي سيلتقيه! على طول شريط الساحل، الذي كأفعى تتسحَّب على الرَّمل، يتبدىٰ بائعي المانجو والباباي والدَّليب، يعرضون بضاعتهم ولا أحد يشتري. ضوضاء الميناء تشتد عند ملُامسةِ مرساة السفينة للساحل. يترَّاكم المسافرون على منفذ الباخرَّة، استعداداً للنزول. أمسكت سوزَّان بكتفه وهي تقول:

"يجب أن تمضي معي؛ ريثما تتعرَّف على المكان، فأنت غريب هنا"

"لكن؟"

"ستكون آمناً أكثر وأنت معنا في سكن المنظمَّة. ألم نصبح أصدقاء بعد؟"

ولم يدر كيف يجيب؛ فقد حُوصر بالحَاحها.

القادم إلى جوبا للمرَّة الأولىٰ لابد أن يُهيئ نفسه لصدمات الحرب، في المدُّن الشقيَّة، وجو عامر برائحة البارود.

جوبا المدينة المتنازَّعة بين جيش الحكومة وقوَّات الرُّمح المقدس، ومع ذلك تستمر الحيَّاة دونما توقف، رغم كل شيء.. الوافدون من الشمال يتجشأون الموت هنا، والقاطنون مترَّعون به، وليس ثمَّة مسيح يُصلب لأجل أحد على أبوابِ المدينَّة..

ليس ثمَّة مسيح يُكفِّر عن أخطاء التاريِّخ، والكُلِ يَهوذا! قد تفاجئك جوبا بدَّوي القنابل، وزخَّات الرُّصاص رُبما تسقط على مُقرَّبة منك!

***

توقفا أمام بيت المنظمَّة. رَكعت سوزَّان تُهدئ الكِلاب الثلاث الشرسة، التي أخذت تزمجر في وجه عبد الله، ركوع سوزَّان لتهدئة الكلاب في حميمية، حرَّك فيه انطباعات قوِّية -كانت عيناها تشعان بأُلفة، لم يَرَىٰ مثلها من قبل، فأخذت الكلاب تهز ذيولها في ود وهي تتسابق إلى حضن سوزَّان.. اقترب هو الآخر من الكلاب بحذر، وأخذ يربت عليها برفق..

عبرا الطرقة المحاطة بالنجيلَّة المزروعة في تنسيق بديع، ودلفا إلى الداخل..

"البيت كما يبدو خاليا إلا منا، لابد أن الجميع في عمل ميداني خارج جوبا"

قالت سوزَّان، ثم أخذت تنادي:

"هنادي، هنادي"

ولم يجبها سوَّىٰ الصدىٰ، سألها:

"من تكون هنادي التي تُنادينها؟"

"أنها صديقتي؛ تطوَّعت للعمل معنا"

"أهي-"

"لا؛ من الزَّاندي. غريبة الأطوَّار مثلي"

قالت بتلقائية؛ وهي تُشير بأناملها ترشده إلى غرفته. تطلع عبد الله في أنحاء الغُرفة وهو يُقلِّب محتوياتها ببصرِّه:

بار صغير. منضدة أبنوسية. سجاد عجمي فاخر. منفضة سجائر عاجيَّة. غزَّال محنط على الجدار. تمثال غُردون في رحلته الثالثة. أغصان لشجرة مانجو تتكيء على النَّافذة، وستائر وردية جميلة، تمنح الغُرفة جواً حالماً، عندما تُضاء لمبة النيون ذات اللَّون البرتقالي الهاديء..

"يا لها من مقبرَّة جميلة"

"مقبرَّة؟!"

والتفت نحوها. لم تكن موجودة. كانت قد انسحبت تُغادر الغُرفة دون أن يسمع وقع خطواتها، التي كان السجاد الفاخر قد كتمَّها.. لاحقها وجدانه آسفاً ومرتبكاً في المساء خرجا يشقان دروب جوبا العامرَّة بالأحزان. عربة المنظمة الجيب الصغيرَّة، قطعت بهما المسافات بتؤدة، تجاوزا دغل متوسط من المهوقنِّي والتيك والصنوبر.

كانت أشجار المانجو والباباي متناثرة في كل مكان، بإبداعٍ هندسيٍّ مبهر يخطف أنظار الغرباء عن المكان. دخلت العربة إلى درب يقطع الطريق الرئيسي -الذي كان مسفلتاً ذات يوم- ويتكئ على غابة مانجو بديعة.

هدأت سوزَّان من سرعة العربة الجيب الصغيرَّة قليلاً، خشية أن تتسبب ثمار المانجو المتناثرة على الدرب، في قلبها. عرجا بعدها إلى حي جوزيف.. حيث دهمت أنفيهما رائحة نفاذة. خليط من الايثانول والعرَّق والدَّم ومخلفات الجنس. هنا لم يكن للمانجو المتناثر على الطرقات من أثر.. فقط قطع قماشيَّة متكورَّة، ذات لون داكن، اختفى لونها الأصلي، وتحجرت.

انثنت سوزّان على شارع ملوّال، ثم انحرفت شمالاً وهي تقول:

"ذاك هو شارع الزعيم يامبيو، حيث لأفريقيا نكهة خاصة"

أبعد عبد الله نظراته عن الأكشاك التي على يمين الشارِّع، وهو يُمعن النَّظر في حي البطرِّي، بمبانيه الجميلة ذات السقوف المثلثة كظهر الثور.

ها هو يتعرف على جوبا والهدنة بعد لم تنقض، ولكن تبقى تفاصيل الدخول إلى زّمنٍ آخر، في سيرة الحرب مستمرة. فأنْزَارَا ويَامْبِيو تُوغِلانِ في هاجس الحرب على غير العادّة، والحكومة تحشُد عدتها وعتادها مدن تسقط وأُخرى تُسترد، وهكذا دواليك بين الاسترداد والسقوط، ترتسم ألف علامة إستفهام حول كل هذا الغباء:

لماذا يتحَارب الناس؟

ما المغزّىٰ؟

وماذا يريدون أن يثبتوا لأنفسهم؟

يا لهذا الغباء.. أخبار مكرورّة. مُملّة. لا أحد ينتصر، الكل خاسر.. لا سلام. الحصيلة هزيمّة للجميع. هذه بلاد مغضوب عليها بلعنة الدَّم، تجري في عروقها هرمونيا الحرب. تتداعىٰ في صخب

الرُّصاص وزحير البارود، وتبقى مفتوحة الأُذنين على ذِكريات مؤلمة. مستمرَّة في الزَّمان والمكان، تنطوي على الرَّاهن الموسوم بالعجز، عن فعل شيء يسترِّد في النَّاس عقولهم. سبق هتاف عبد الله دخوله: "سوزِّي.. سوزِّي."

وتوقف في منتصف المسافة دهشاً، ينظر إلى الفتاة ذات الثوب المخملي، والشعر المجدول التي تُجالس سوزَّان. كانت تحمل وجه دُرِّيَّة الغائب وجه دُرِّيَّة المهيب عميق التقاطيع الحزينة..

"دُرِّيَّة؟!"

وتموَّجت في رأسه هالات زرقاء. خضراء. برونزية لامعة. هالات لا لون لها. ثم لم يعد يعي شيئاً وعندما أفاق وجد سوزِّي ممددَّة إلى جواره في غرفتها..

"أين هي؟"

"أهدأ. أهدأ يا عبد الله.. أنها ليست دُرِّيَّة، أنها صديقتي هنادي التي حدثتك عنها"

"ألم تقل شيئا؟"

قالت..

كانا يرتشفان الشاي الساخن في الحديقة. على المنضدة مجمرَّة أفريقية طقسيَّة، يضوِّع بخورها العطِر في فضاء المكان تمثال لثلاث رؤوس أفريقية ذات نظرات عميقة -يبدو الرُّعب المرِّيع بارزاً في عيونها التي بدت متورِّمة، أين رأى هذا المثّال كل هذا الرُّعب الفظيع؟

أنه رُّعب يكفي العالم بكامله.. رُّعب تحت أقدام للمسيح مصلوباً.. وهيلدا في ثوبها الشفاف، الذي تبين تحته كل توترات الانسان، وهو يصوغ بقوَّة فعله البشري الخارق، الجغرافيا والتاريخ وبوح اللحظة الكاسرَّة.

كانت تبدو له الآن غريبة عنه أكثر من أي وقت مضى، حاول سبر أغوارِها. نظراتها اللصيقة بالأعماق تنمو وتترعرع، تكبُر كمدينة من الأحاسيس الملتوِّية، المكسوَّة بالتوجس ومخاوف المجهول.. الظنون الحارقة..

أوغلت نظرَّاتها في الصمت أكثر فأكثر. هذا الصمت الذي ينطوي على صخب لا حد له. ينفي دُّرِّيَّة التي تسبح كدخان السجائر في ضباب ذاكرته، المرسومة على أثرٍ بعيد لخف ناقة تعن في المسير دون صُوَّى سارِّي أو دليل عارفٍ، أو علامات طريق، دون أن يتلفت القلب أو يتوقف الجمَّالي من طول النَّصب والأعياء..

دون نجوم أو قمر وضئ أو حتى ريح الشمال البوصلة. دون شمس لمعرفة الشرق من الغرب، فقط الضباب يحيط كل شئ حتى لا يعود جمالِيها يراها، أو تحس بوجوده على ظهرها.. يا لهذا الظلام! كان جسمه يدور ورأسه يدور والفراغ حوله يدور!

***

أعطته ظهرها، وكالآتِ من رحلات الكشوف الجُغرَّافية، شتته المجهول الذي اكتشفه، إلى مزيدٍ من المجاهيل المرتقبة -قال أحدهم أنه اكتشف منابع النيل، كأن النيل لم يكن موجوداً قبله، وكأن أحداً لم يكن يسكن حول هذه المنابعِ ويشرب منها قبل أن يقوم -حضرته- باكتشافه (الخارق) يا لهراءات أولئك المكتشفين المزعومين!

كان يشعر بها حزينة. كئيبة. مكسورة الخاطر.. بحث عنها في البيت كله دون أن يعثُر لها على أثر. فيما كانت الكلاب في الحديقة تعبث بشيء ما.. تقدم منها، كانت تحاول جر قطعة قماش مدفونة في الأرض. اقترب أكثر. خفق قلبه بعنف. جذب قطعة القماش. كان الثوب المخملي. ثوب دُرِّيَّة، خفق قلبه بعنف.. كان ثوبها ملطخاً بالدِّماء!

تنهد عبد الله المُنْدُكُوْرُوْ وهو يسترد رأسه من مسند الكرسي. كان الشاي الذي أمامه قد برد. مسحت هيلدا دموعها وهي تنهض لتعد الشَّاي للمرَّة السادسة. تابعتها نظراته في حنَّان. وكان لانجور غارقاً في صمت مسكون بالمشاعر المختلفة، لا يدري ماذا يمكن أن يقول.. قطع عبد الله الصَّمت:

"الذِّكريات تظل ذِّكريات، لكنها لا تُنسى يا بُنَّي"

شعر لانجور بمفردة (بُنَّي) تبدو مختلفة على لسان عبد الله كأنه لم يسمعها من قبل أبداً. كانت حميمة. دافئة. حزينة مثل حُزن الحمام.. أضاف عبد الله:

"لا تنسى الخطاب الذي أعطيتك إياه"

خرج لانْجور بمشاعرهِ المتضارِّبة، ولم ينم بعدها لوقتٍ طويل!

***

الفصل السادس

لا يتعلم الإنسان،

غير ما يستطيع تعلمه!

فرويد

30 يونيو 1998:

أنهى النقيب حاتم ضابط الاتصال، فك شيفرة البرقية وهو يتنهد بارتياح تحركت الوحدة 105 من القضارف إلى الفاو في طريقها إلى مناطق العمليات..

إنتهى.

كان سُعود منشغلاً بخواطره عن همهمات العساكر حوله، اتكأ على طفولته الأولى، والبلاد الأسيرَّة تتكوَّر داخله، وسلمى تتكور..

البلاد. سلمى.. فينقسم إلى مزعتين تخرج ألوان الطيف من داخله، محمولة على سواعد الفراشات المحترقة، غزَّل في داخله من الحلوى التي أخذها من إبنته، شكلاً لقلب، وحاك من شراينه أجنحة وجسر، ليواري طائرتها الهوائية، التي تطوِّف في فراغ ذاكرته، يصل السماء، فيقطف لآلئها المضيئة، ينثرها على الشوارع المزيفة.. المظلمة.. يبصم على الحواري والأزقة. النوافذ والأبواب والمواسم، وكل الدروب تلتهب بغنائه المحموم. ترك خلفه كل شيء، ليجد نفسه هكذا فجأة -هنا فحسب- دون سابق إنذار..

كان قد تعارك مع زوجته وخرج. الخروج الذي لم يعد بعده! كان في طريقه من الشهداء إلى المحطة الوسطى، غشى في طريقه متوكل، وبالقرب من المستشفى المركزي لوادي النِّحاس. أوقف أنصار الشيخ الحافلة، بينهم وبين (دفار الالزامية). شاع الذُّعر بين الركاب، وحاول أحدهم الهرب، فدهسته عربة مسرعة في الاتجاه المعاكس، فتطاير مخه على شريط الأسفلت.. كأن شيئا لم يكن.

قال نصير الشيخ:

"ها.. أنت وأنت وأنت وفوجئ سُعود بنفسه في خيمة من خيام معسكر الخدمة الإلزامية، التي تملأ الشوارع"

تم تسليمهم لنوبتجية المعسكر، الذين أدوا مهمة تسجيل أسمائهم، كانت حر الظهيرَّة اللافحة، تزيد من معاناة المجندين، الذين ينتظر كل منهم برأسه المبلل حلق شعره، عندما حان دور سُعود ومتوكل، لم يكن ثمة شعر على رأسيهما، فقد سارع كل منهما بحلق شعر رأس الآخر..

هتف فيهم الدليل وهو يتقدمهم:

"هيا شكلوا تلاتات"

وصل بهم إلى مكتب يتكئ على سور المعسكر، أطل وجه ملتحي بلباس مدني، يميز أنصار الشيخ، الذين تميزوا أيضاً بحمل حقيبة الأوميغا الجلدية، التي يحملون داخلها أسلحتهم الخفيفة وأجهزة اتصالاتهم..

هتف:

"كم رأس؟"

"سبعتاشر سيادتك"

"بس؟"

"حملات الخدمة الوطنية متواصلة سيادتك"

وتم تسجيل أسمائهم مرَّةً أُخرَى..

"شكِّلوا خمسات يا مجندين"

وهكذا بدأت اجراءات الكشف الطبِّي، الذي حرص فيه الطبيب الملتحي، أن يُبين أن الجميع لائقين طبياً، وهو يهمهم:

"مجند عدو نَفسو"

معلنا فراغه منهم، ليتوجهوا إلى ميدان التدريب، الذي كانت تتعالى فيه الجلالات داوية:

سَمْرَا، يا سَمْرَا، يا سَمَّارَّة..

الطالب الحربِي، يا سَمَّارَّة..

رافع البوريه، يا سَمَّارَّة..

أمو تبكي عليه، يا سَمَّارَّة..

تاني وين تلقيه، يا سَمَّارَّة..

***

مشهد ذلك الشاب الذي حاول الهروب من (دفار الالزامية) والاسفلت يتلطخ بشظايا مخه، لا يزال ماثلاً أمام عيني سُعود ومتوكل، يأبى أن يفارق خاطرهما..

كان العنبر كله بجدرانه وأرضيته، يتراءى لسُعود ملطخاً بمخ ذلك الشاب!.. سرح ببصرِه بعيداً علَّه يطرد هذه الرؤيا المزعجة، التي تطارده، كان قد لاحظ أن العساكر الحقيقيين، يكنون للعسكريين والمدنيين من أنصار الشَّيخ، من البغض ما يكفي العالم كله للتطاحن والاحتراب، لكن لم يكن بيدهم شيء، فقد استولى الشَّيخ على كل مفاصل السلطة والثروة، بهيمنته الخفية على اقتصاد البلاد الأسيرَّة، وزرع حواريه في مؤسساتها المؤثرَّة، بل طال رجاله حتى المؤسسات الهامشية وغير ذلك كان الشَّيخ قد بنى أجهزة سرِّية، لا علاقة لها بالأجهزة الأمنية للدولة، ومليشيات لا أول لها ولا آخر!

وقتها شاعت الشائعات، تحاول أن تفسر الكيفية التي حصل بها الشَّيخ، على كل هذه السلطة، والنفوذ غير المسبوقين قبله لأحد، عبر تاريخ البلاد الأسيرَّة فتحدث البعض أن الشَّيخ وأنصاره يجدون دعما كبيراً من إمارات وممالك النفط الصحراوية!

وتحدث آخرون عن مضارباته غير المشروعة، وبناءه خصيصا لهذه المضاربات، مجموعة ضخمة من المصارف الإسلاربوية، فيما أكد البعض على تورطه في تجارة الأفيون في أفغانستان، واللحم الأبيض والمخدرات في تركيا وماليزيا وأندونيسيا وآسيا الوسطى، وتجارَّة السلاح في الشرق الأوسط وآسيا وإفريقيا!

بينما هزَّ بعض الضالعين في شئون السياسة رؤوسهم بإصرار، أنه على صلة مؤكدة بالمخابرات المركزية الأمريكية، ولم يُغفل هؤلاء ربط الشيخ بووتر جيت وايران جيت والشيطان جيت وبلاك ووتر ورد سكوربيون والدراغون والمافيا.

هتف به أحد العرفاء:

"شنو يا (بُلدة).. اتذكرت المرا ولا شنو؟"

تأوه سعود بصوت مكتوم وهمهم ببطء:

"سلمىٰ."

كان سعود قد خرج منزلقا إلى قاع المدينة، لا يلوي على شيء، غشي في طريقه متوكل.. لم يستطيعا المكوث، فمضيا لا يلويان على شيء، إلى أن وجدا نفسيهما هنا في هذا المعسكر البغيض كان كل شيء قد تم سريعا، وعلى نحو غير متوقع.. كان متوكل غاضباً

في سريرته ويشعر أن سعود قد ورطه في هذه المصيبة، فلو لم يزره ويصر عليه بالخروج لما قبضت عليهم الالزامية، ولما كانا هنا الآن!

انفجر متوكل غير آبها بالعريف، الذي كان لا يزال، ينتظر تورط سُعود في الحديث معه:

"أنت تبحث عن وسيلة أفضل للانتحار، هربا من مواجهة مشاكلك المستفحلة، منذ جئت من ليبيا. ما ذنبي أنا حتى أجد نفسي هنا. في هذا المكان؟!"

حدق سعود في وجهه بحزن، دون أن ينطق ببنت شفه، فشعر متوكل بالحرج، وأحس أنه قسى عليه كثيراً، فأخذ يعزي نفسه بان ما حدث لهما هو:

قدر-مكتوب..

"القدر هو ما تنطوي عليه سياسة الله، لكن هذه سياسة الشيخ، فكيف يكون قدرا؟!"

تدخل العَرِّيف ذاته مرَّةً أُخرَى:

"لا تحزنا على نفسيكما، فقد خبرتما الدنيا وتجاربها، وربما تكونان قد عشتما حياتكما بالطول والعرض. أحزنا على هؤلاء الصبيان، وهؤلاء الشباب الذين لم يروا شيئاً من الحيَّاة بعد، وربما لا يعرفون

أنهم في طريقهم للموت، وأن فترة التدريب هذه هي آخر عهدهم بالحيّاة"

وأضاف العريف، وهو يهم بالانصراف مبديا تعاطفه معهما:

"خذا حذرَيكما فبين كل هُدْهُدْ وهُدْهُدْ هنا هُدْهُدْ آخر.. أنها دولة الشِّيخ الغريق وجيشِّه"

أحست أبودوك أنها تود لو تفتح له صدرها، أن تقول له أنها تثق به. همست في سرِّها:

"ربما طريق. سكة سفر جمعتنا. ربما لاحساسي الظامئ للأمان، تدفعني هذه القوَّى الغامضة المجهولة، لأفتح قلبي بين يديك. لكنِّي. لكنِّي أخاف، ومع ذلك سأقاوم"

ما أشبه الليلة بالبارحة، فقبل عشرين عاماً وجدت نفسها في هكذا موقف.. كان التاريخ يعيد نفسه من جديد مرَّةً أُخرىٰ همست في سرِّها، وهي تختلس النظرَّات إلى الشاب النحيل الجالس قبالتها وأسرت لنفسها أنه لا يختلف كثيراً، عن أساتذة مدرسة البعثة التبشيرية، وتذكَّرت كيف كان مستر طومسون يحاول اغوائها..

الرجال يشبهون بعضهم؛ بمواجهة أُنثىٰ وحيدَّة، حائرَّة، يحاصرها المجهول.. لاحظت النظرات التي يختلسها هو الآخر. فركزَّت على عينيه لبرهةٍ خاطفةٍ:

"نعم أنني هارِّبة، هارِّبة منذ مئات السنوات، منذ ولدت هناك في جِنْ، هارِبة كما أقرأ على عينيك الآن!"

كانت ملامح لانجور نحيلة مثل جسمه الأسمر المديد، وكانت هي في قوامها المعتدِّل وجسمها المشدود، المزَّين بالمعدن اللامع والخرز، وثوبها الأشينو تبدو مهيبة كنخلة.

وقع عجلات القطار على السكك الحديدية، وهو مسرعا من الجنوب تجاه الشمال. يرِّن بداخله باناو. باناو.. باناو.. بيدبا، بيدبا، بيدبا.. ذائباً به إلى دفق من الأسى والألم..

"قطرات الحليب التي رضعتها في طفولتي، من زوجة أبي، غذتني بالمجاهيل، شبّعت دمي بالحرمان والحنين، رغم محاولتها المستميتة -زوجة أبي- في إشاعة الدفء في حياتي.. لم تكن مشكلتها. أُدرك هذا الآن بوضوحٍ شديد. ظلت على الدوام مشكلتي أنا."

منذ أخبرتني عمتي:

"أمك لم تمت. لم يقتلها جيش الحكومة، كما أُشيع"

"ماذا حدث لها إذن؟!"

"اختفت فجأة، رُبما هربت مع أحد المُنْدُكُورَّات، أو عساكر جيش الحكومة.. فكثيرات كن يهربن. وربما اختطفها بعض النخاسة، عندما ذهبت لتتعاون مع المقاومة، بصحبة بعض نساء وفتيات القبيلة، اللائي لم تكن احداهن تعلم لحظتها، أن مُجنزرات الحكومة متأهبة، وأن الرَّث السابق تآمر على القبيلة وخان روح الأسلاف. طرفي المعادلة في تناقض تام، ولا شيء مؤكد، فقط الاسى والحسرة.

"باناو حكيم. يعتقد انها معركته وحده، ووحده الذي يجب أن يثأر لبيدبا. إنها الجرح الذي يحيا في قلبه"

ولم تُدل بأقوال أخرى، تشاغلت بأواني الفخار التي أمامها. وقع احداها فانكسر وتهشمت في دواخله أشياء، لم يكن يدرك وجودها قبل هذه اللحظة. وعندما حكى للمندكور فيما بعد منفعلاً، هدأ من روعه قليلا، واكتفى بأن حدثه عن متناقضات الماضي، والقراءة التزامنية للتاريخ:

"يجب أن نقرأ كل ما حدث بقوانين وشروط عصره، وإلا سنتوه"

الدفء الخاص الذي أحاطه به باناو، رسخ في وجدانه الإنتماء لهذه الأمكنَّة ناسها.. أشياءها. رسخت في وجدانه الأسلاف. الإحساس بفقدان الأم له مذاق مر. تراجعت سنوات الطفولة، آخذة كل شيء. لم تترك له سوى الاحساس العميق، بالوجع والحرمان. رغم كل ما بذله باناو والمندكور.. فالارض يوما بعد يوم تحترق غاباتها، وتنفق حيواناتها الأليفة، وحيواناتها البرية تهرب إلى غابات الجوار، تلتمس الأمان.

تنسرب به الذَّاكرة إلى ذلك اليوم، وهو يقطع العشرين ميلاً، التي تفصل بين القرية ومدرسة الجمعية التبشيرية. وصل إلى عُشة عمته لاهث الأنفاس:

"أين أجد أبي؟"

"ما بك؟!"

"مستر آدامز يقول أن أخواننا في توريت قد دخلوا الغابة"

"ومالك أنت؟"

"أين أجد أبي؟"

"هل تُريد أن تنضم إليهم، لاسترداد الرمح المقدس؟"

كانت النجوم كحبات أرز مضيئة، متناثرة على شرشف لا بداية أو نهاية له. يتوسطها القمر الذي بدى ناصعا باشراقه المميز، وبعض شعاعاته الشاحبة تتراجع، إثر انقشاع الغيوم السوداء. والنسيم الهادئ يملأ فضاء المكان، كأنه يتسلل من شعاعات النجوم، وقمرها الوضيء، ليفتح روح باناو على صلواته الصامتة، للإله دينج في عزلته المجيدة.

جلس لانجور قربه، ينتظره إنهاء صلاته، التي بدى أنها لن تنتهي.

***

لم يكن سُعود يبالي بصدى الونسات الدَّاعرة حوله، والتي كانت تنطلق من أفواه رفاقه العساكر والمجندين، الذين يحملون الليل في داخلهم بظلمته، ووحشته وأساه، ومع ذلك يحاولون تفتيت هذه الوحشة، بضحكاتهم الصاخبة، التي تجعل أرض الوحدة العسكرية تهتاج بحياة لا تخلو من الهواجس والمخاوف.

الليل طويل. الصباح لم يطل بعد لتتحرك الوحدة 105 إلى مناطق العمليات

وصلت الوحدة 105 إلى قرية القدمبلية، ليذوب في المدى سحر جبال الشرق الرَّاسيات، فتتغطى مؤخرة الوحدة بغبار المسير الموحش، كرحلة التيه الطويلة..

كان متوكل يسافر للمرَّة الأولى، وأي سفر هو هذا السفر؟ ولد وترعرع في وادي النحاس، دون أن يخرج منه شبراً واحداً ولم تحدثه نفسه أبداً في قضاء ما تبقى من حياته، العامرة بالمغامرات والشجن، خارج وادي النحاس.

كان يحدث نفسه دائما بأنه ولد ليموت هنا -يعني وادي النحاس. الآن يمضي إلى المجهول محاطا بالجلالات، التي تعانق الفضاء المقفر من كل شيء، وصرخات عساكر الجيش المثقلة بغريزة البقاء، تستمد شجاعتها ضد المجهول من المجهول ذاته..

سُعود الذي ظل صامتا، طول المسافة حتى الآن، كان يرمق متوكل بين آن وآخر بنظرة حزينة، كأنه يلوم نفسه، إلى أن اطلت الفاو، فتوقف الركب في رئاسة الفرقة الثانية مشاة، حيث استقبل اللواء حسنين قائد اللواء مدفعية الوحدة بخطاب تخللته جلالاتها التي شقت عنان السماء، معلنة للركب أن يشق طريقه إلى مدني..

كُدينة.. مريم كُدينة...

أنهى باناو صلاته والتفت إلى:

"يبدو أنك أصبحت مغرماً أكثر مما مضى بحكايات الأسلاف ؟!"

"انه الرمح المقدس"

"لقد طرد أجدادك بفضله، محاولات الاحتلال التركي والمهدوي"

"أريد أن أكون مثل الزعيم قوندينق"

"ستكون مثله لو اتخذت التعليم سبيلاً، فقد تغير الزَّمن، ولكل زمن سلاح يُلائمه.. ربما تكون أفضل حظا منه.. ففي زمنه لا توجد مدارس، لذلك اختار علم الروح، وأصبح زعيما روحياً"

"أُريد أن أكون مثله، ومثل أُووكونق إلٰها جسوراً"

"كلاهما قاوما لأجل الرُّمح المقدس الذي يحفظ أرضنا، وكلاهما علما شعبنا معنى الحرية وحب الموت في سبيلها. أنت الآن مسيحي. لكنني لست مسيحيا، وأرى أن الآلهة هي الآلهة نفسها في كل الديانات والمعتقدات. لذلك يجب أن لا تُلغي روح الأسلاف داخلك. ستُعطيك المسيحية بمدارسها السلاح الذي يجعلك أفضل من الأسلاف"

"الأسلاف أعطوا باناو كل شيء"

"نعم: أنت، الأبقار، يِينادي وأودِييت والسلطة على القبيلة والتعاليم. لكن لم يعطوني ما ستعطيك المدرسة. أنظر إلى الوحدة الطبية كيف يتعالج الناس، أنهم يعالجون هناك بأحسن مما يفعل واندنق بينق، أنظر إليهم كيف يطردون الأرواح الشريرَّة"

"أنت ترى ما لا يراه الآخرون. انت حكيم"

"إذن قالوا لك في المدرسة أن الذي يرى ما لا يراه الآخرون حكيم"

"نعم."

"كان الأسلاف يعرفون ذلك، أيضاً"

دمعة حانية تسللت من عيني باناو، متكورَّة على جفنيه. كان ليل أفريقيا الآسي لحظتها، بكل ما يعتمل في إفريقيا من عتمَّة وغربة، يفيض من أعماق باناو، ليحاصر لانجور، فتتداخل فيه علاقة شائكة بمشاعرها الغامضة، وتنمو، تنمو في علاقته الخاصة بباناو، لتشكل حزنهما المشترك:

بيدبا تتسلل الصمت المشوَّه بالصمت، وتذوب كالنغم المضاد للغم فتبدأ رحلة لانجور في اللانهاية.. المدرسة. مستر آدمز بسحنته الهادئة. لونه الأبيض المشرب بتلاويح شمس الاستواء. الحانية.

وليم صديق الداخلية. وليم مديد القامة المشرَّب بالأحزان. هذا الوسيم إلى درجة الجمال الأُنثوي، لكن الرجولة الآسية، التي تفيض فتعطيه عمراً أكبر من سنه بكثير.

كانا دائما معاً منذ حدثه عنه عبد الله المُنْدُكُوْرُو، فالتقاه في الوسطى بنيوجنت بلوك، التي تطلعا كثيرا لدخولها، وعندما دخلاها لم يفترقا أبداً..

دائما معاً.. وهما يبحثان عن التبغ في (الكانو) عند الصيادين ولابسو جلد الفهد. في قباب الأسلاف البعيدة عن المدرسة، أو وهما يتجاذبان أطراف الحديث في البيت الأنيق، لأحمد ابراهيم وزوجته حواء جاد الله -والدا سلوى- تسامرهم حول الأرض والنَّاس والقطارات والبواخر وعشبة معونة النيل المشاغبة في جونقلي، والسكة الحديد وكل شيء..

"سلوى هي ثمرة القطار.. ثمرة السكة الحديد"

تقول ضاحكة، وهي تحكي لهما عن تلك المدن البعيدة، في الشرق والغرب والوسط والشمال. كانت تعرف أين يأخذان سلوى معهما، ولم تكن تخاف عليها أبداً ما دامت معهما، فقد كانا بمثابة الإبنَين اللَذين لم تلدهُما..

كان وليم يجلس دائماً مهيباً كبوذا، يتلو على لانجور نصائح الأجداد، وتأخذهما لَذَّة المعرِّفة، فينطلقان متسللين للبحث عن شيء لا يعرفانه في الجوار، وحين تنال منهما متاعب البحث، يرجعان ليجلسان في مكانهما الأثير، على رصيف النَّهر، يعبثان بالرمل. ينثُرانه. يتقاذفان ببقايا المحار، التي ترتد بهما أحياناً إلى طفولاتٍ مفقودَّة، فيتبادلان فيها سفر الأأم، إلى أن تدفق وليم على غير العادة في ذلك المساء البعيد. سال من وجدانه بوح كثيف الحزن. عميق، لا قرَّار له:

"كم هو قاسٍ أن تحس أن أفراد عائلتك التي تنتمي إليها، هم ليسوا أفراد عائلتك الحقيقيَّة، لا الأُم هي الأُم ولا الأُخت هي الأُخت ولا الأب هو الأب.. الشعور بأنك بلا عائلة لهو أسوأ من أي إحساس يمكن أن يعرفه الإنسان!

وجدني لابسو جلد الفهد، وأنا لا زلت رضيعا بعد على ضفاف النهر، في مكان لا يبعد كثيراً عن محطة البَعثة التبشيرية، و رأى فيّ الأب جوزيف طفلاً آخر، يُضاف إلى أبْدوك، التي كان قد تزوج من أُمها وتبناها، وهكذا صرت ابنه.

منذ طفولتي لم أشعر بأب أو أُم سوى ضفاف النَّهر حيث وُجدت. النَّهر بصياديه الأشداء ومراكبه الكانو الصغيرَّة، والرجال

لابسو جلد الفهد. وكانت الأمور ستكون جيدة، لولا وجود تيم معنا في عائلة الأب جوزيف الرهيبة.

تيم، ربما يكبُرنا وأبْدوك بخمسةِ سنوات تزيد أو تنقص. كان عدوانياً مشاغباً، يسبب لنا الكثير من المتاعب. يسرق الجيران، يهددني، فألوذْ بالصمت. يتهمني، فأُعاقب بدلا عنه لم أكن ألوذ بالصمت بسبب تهديداته، أو لأنني أخشاه، على العكس كنت أشعر به أصغَّر من أن أخشاه، لكن هكذا وجدت نفسي.

هل انا حاقد عليه؟

لا اظن!

لكن لنقل أن شيء ما كان يدفعني للصمت. ربما لو لم يكن الأب جوزيف فقيراً، لما اضطر تيم للسرقة، ولتغيَّرت أمور كثيرَة في حياتنا، فقر الأب جوزيف دفعه لاستثمارنا أنا وأبدوك، بارسالنا إلى المدرسة الأولية، كان كل تفكيره أن نُصبح كتبة، لنساعد العائلة، ونشتري له أبقار..

عندما أعود بذاكرتي إلى تلك الفترَّة، أجد العزاء في أن تيم، لم يكن متواجداً معنا في البيت، على نحو دائم، إذ كان يغيب لأيام وأسابيع وربما شهور، قبل أن يعود مرَّة أُخرَى، ليسبب لنا المشاكل ثم يرحل، وهكذا.

ابتلع وليم هدير الموج، أفنى حنجرته على زبد البحر المتلاطم على الشاطيء، فأحس لانجور بذوبان كل شيء حولهما، في همسة أسى واحدة.

كانت أضواء الكانو تبدو لهما بعيدة، رغم قربها والمساء سادلاً أطباقه كأنه يبدأ فقط ولا ينتهي أبداً المخلوقات البشرية التي تسير على المدى خلفهما، تبدو هويتها غير واضحة المعالم..

أجساد لا تحمل رؤوسا بشرية. أجساد نصفية من أسفل القلب حتى الفخذين -هل هذه تصورات أوحت بها همسة الأسى الطويلة، أم حقيقة واقعة؟!..

على المسافة القصيرَّة التي تفصل، بينهما يتمدد حزن، مشحون بكل أنواع المشاعر المتضاربة، فتختلط معاني الخير في الشر. قالت أبْدوك ذات مرة:

"هل تخيلت كيف هو شكل أبويك الحقيقيين؟..

هل توقعت أن يكون والدك -رُبما- أحد النخاسة المصريين أو الشوَّام؟"

"لكن زمن تجارة الرقيق انتهى!"

"من قال؟!"

"ربما أبي هو أحد القساوسة أو أحد رجال المنظمات، وربما يكون مُندكُوراً من الشمال.. تراه يجلس الآن مع آخر زوجة جميلة، بعد أن تأخر في غزواته الأخيرة. تراهما الآن يجلسان تحت تعريشة الدار الفسيحة، وهما يُطوّقان ببصرهما النخلات التي تتلاعب بها الريح.. ربما.. ربما أُمي امرأَة رائعة مثل كل الأُمهات، لكن أجبرها والديها على تركي، تراها لا تزال تعاني لوعة الفقد..

"لا أحد هنا يجبر الأم على ترك طفلها"

"رُبما هي ليست من هُنا"

"أنت تملك خيالا خصباً"

ضحكت أبْدوك، فسألها:

"وانت كيف تتصورين أبويك؟"

"حدثتني الجدَّة مارتا، قالت أن أهلنا هناك في الشرق المقدس، انتزعنا نيكانج ورجاله من أهلنا، وحولنا من كواريث إلى (كوّل) نحن من سلالة ملوك جن يا وليم، ما فعله بكم المندكورات فعله بنا أسلافك، صحيح أنك هجين نصف أبيض، لكن تجري في عروقك دماء المندكورات السود أيضاً. هكذا هم المندكورات لاهوية لهم، تجدهم في كل مكان ولون، في كل قبيلة وشعب..

"بعد كل هذا الزمن ليس للأمر أهمية، بعد كل هذا الزمن الطويل مع ذلك أنت وأنا وجهان لمأساة واحدة"

"هذه الحوارات المطارق تدق على رأسينا كالسندان، فلا نغفو إلا على صباحات كالحة، ملأى بتهامسات الصبية.. أقراننا.. فنحن وسطهم كالغرباء المنبوذين، لطالما تم نعتنا بذلك لنتضائل، لكن لم نتضائل، بل توحدت وأبدوك في كيان واحد، ضد التضاؤل والتلاشي، هل أستطعنا الحفاظ على ذاتينا، أم ظللنا موضوع مرح الصبية أقراننا..

وقتها لم أكن أستطيع الإجابة، سوى بلا أدري، لكن الآن أقول نعم، كان كياننا متوحداً ضد كل شيء.. صلداً كقلاع القرون الوسطى، التي لطالما حكىٰ عنها مستر واطسون أستاذ التاريخ الأوروبي"

صمت وليم يحتوي بعينيه المَدىٰ اللانهائي للنهر، معبئاً الموج بمزيد من صمته المتفجر. هدير على الشاطيء والكانو.

تنهد لانجور مرخياً أذنه لصوت وليم، المتماهي في نسائم النهر، وهي تتسرب أنفه في هذا المساء المفتون، الذي يزكم الرؤيا. قال:

"كنت مشتاقاً لأسرتي.. أهلي.. مثل كل النَّاس يشتاقون للأب والأُم والأخ والأُخت.. كنت مستعداً لدفع حياتي ثمناً، نظير لحظة واحدة أرى فيها أُمي، لم أطلب من الحياة أكثر من ذلك..

كنت أركض خلف كل امرأة تحمل طفلاً، في محطة البَعثة التبشيرية، في وحدة الغيار الطبي، في الكنيسة أو دير الرَّاهبات، أو في الشارع الكبير المفضي إلى خارج المدينة، وأصرخ:

"هذه أُمي. أُمي، أُمي."

"لكن لم تكن ثمة استجابة، للنداءات الظامئة الملتاعة، كعواء الكلاب مكسورَّة الجبور.. هل حدث أن سمعت آهة كلب انكسر جبره؟ أنه شيء أسوأ من الإحساس بكسر الخاطر"

فاضت عينا وليم بالدموع، وانطوى لانجور على مزيد من الصَّمت، الذي تفجر فيه صوت وليم مرَّةً أُخرَّى، كأن حنجرته استحالت الى محض حزن أسيان:

"كنت وأبدوك كالغرباء، جمعهم الحزن والمنفى والليل الطويل. وأكثر ما كان يقلقني في هذا المنفى، هو نظرات تيم الذئبية، التي تفتش في منعرجات وبروزات، جسد أبدوك الفارع.. الذي يصرخ فلا يجبه، سوى الصمت ونظرات تيم الخائنة، التي لا تحمل أي إحساس بالإعتذار أو النَّدم..

لم يكن سوى شبح الشهوَّة الممزوج في حنين أبدوك البرئ، لملامح تثوي في المجهول، ملامح تركض خلفها فلا تلمس سوى السراب. قبض الريح..

أي وهم هذا؟

كنا وحدنا، وكانت في أوَّج مراهقتها المرهقة، إذن.. هذه المرحلة التي لم أجد فيها ملاذاً سوى المندكورو، بصوته الهاديء، عينيه العميقتين حتى لكأنهما بلاقرار، وبوحه عن فرانز فانون، مارتن لوثر، جورج واشنطن، جيفارا، لومبا، سنغور وكينياتا..

كان رجلا مهجساً بالحرية والحقوق وبوحدة أفريقيا، ويظن دائما أننا كنا سنكون أفضل الافارقة، لكننا إخترنا أن نكون اسوأ العرب - كان يعني المندكورات، الذين تنكروا لجذورهم- كان المندكورو يمثل لي عالما غريبا، أرغب باستمرار في اكتشافه. فقد ظهر فجأة هنا -هكذا يحكي عنه الأهالي- وساكن الناس واحتمل في سبيل تصالحهم، مع فكرة كونه ينتمي للمندكورات الكثير من العنت والمشقة، إلى أن استطاع وزوجته الجميلة هيلدا، كسر حاجز التواصل معهم..

كان يأكل معهم، يمازحهم ويمازحونه، يتكلم لغتهم ولا يردهم عندما يطلبون مساعدته، ولا يتأخر في طلب مساعدتهم،

حتى هيلدا تزوجها للمرَّة الثانية على طريقتهم -الآن أُدرك كم كان هذا الرَّجل متطرفاً في مبادئه- بادلهم حباً بحب، فصاروا لا يُقدمون على أمر عظيم إلا ويستشيرونه، مثلما يستشيرهم في أموره..

لكن كثيرون من الذين لم يتحرروا، من ربقات الماضي وجرائره الصغيرَّة وجرائمه الكبيرَّة، كانوا يكرَّهونه، ولا يرون فيه سوى: مندكور، غريب. لا يزال يحمل سوءات أجداده البدو الغزَّاة، فهذه الفكرة تريحهم وتجعل شعورهم أفضل، بالقاء اللوم على شماعة جاهزة!..

علمت فيما بعد أن المندكورو هو من وقف خلف حملة تجنيد الكثير من المندكورات، في قوَّات الرُّمح المقدس.. كان يؤمن بعدالة قضية الثورة في الجنوب، وكان المندكورات الذين جندهم، قد شكلو نقطة تحول كبيرة في مسار هذه القضية، إذ ما عادت قضية جزء، بل قضية كل مهمش. ياله من رجل جسور، ثاقب البصيرَّة، تخلص منذ وقت مبكر، من أمراض الهوية الزائفة وضيق الإنتماء.. كان وحده أغلبية، مثل كل المندكورات الذين قاتلوا في الغابات، لأجل قضية البلاد الأسيرة الواحدة، الموحدة.

"ربما يكون عبد الله المندكورو هو والدك الحقيقي"

ابتسم وليم بوهن، يُداري إحساس الضعف الإنساني المشروع، الذي كان لحظتها في صرَّاع مستميت معه، كابحاً كل رغبة في البكاء، إلى أن شعر بالأعياء.. فتكور على عالمه، الذي تكور هو الآخر على لانجور..

تكورا على بعضهما، فناما على رَّمل الشاطيء، تتسرب أصداء غناء الصيادين العذب إلى أحلامهما، عوالما هادئة مفرغة من التوتر والقلق، وهدير الموج يأخذهما إلى عوالم اجمل!

***

إرتكزت الوحدة 105 عند كبري حنتوب، كأنها ترتكز داخل متوكل المطارد بصورة أُمه المستندة على زاوية الحلُم، أمه التي لا تعرف حتى آخر لحظة في حياتها، معنى أن يدرس الإنسان الجغرافيا والتاريخ. الجغرافتار. التتار. التار. وبقيت صورتها داخله، طوال المسافة إلى أن تخطى الركب، ربك وكوستي بجسرها الممتد، فارتكزت تحته ومدافع الهاوتزر الإثني عشر تشرع أعناقها باتجاه الجنوب.

التهمت طرقات كوستي العساكر الباحثين عن ضياعهم. وبقى سُعود يحلم بصورة الأم المرتكزة على زاوية الحلم كمتوكل، وحفنة أمنيات لا تتحقق، في الحضور الدائم لسلمى وأطفاله الصغار، وكل

شيء لا تبدده سوى الضحكات المباغتة لأدروب، التي يهرب منها إليها، محاولاً فيها استرداد عالمه المفقود، عالمه المحاصر بالليل ومدافع الهاوتزر، التي تجرها عربات النيسان السكس. عالمه الذي يتساقط كالفِلاشات على سطح المياه المدفونة في الغضب، حيث لا أثر سوى الإرْتعاشات الغامضة للنيل!

كانوا جميعهم يغطون في نوم عميق، دون أن يتمكن هدير عجلات القطار، على السكك الحديدية من إختراقه، لا أحد سوى الكمساري بصحبة أحد العساكر، يزرعان أرض القطار جيئة وذهابا كأنهما يُفتشان عن شيءٍ ضاع منهما، لحظ لانجور الخوف الذي بان على وجه أبْدوك. لحظة مرا بها، ولحظ أيضاً تنهدها في ارتياح عندما تخطياها.

وحده وهي ظلا يقظين، في الغطيط الذي يتعالى حولهما، مكوناً توليفة مشروخة مع هدير العجلات الحديدية، على الدروب الحديدية.

كان لانجور جالسا بمواجهتها، يختلس إليها النظر، يحاول استشفاف ما تمور به عيناها، اللتان لا يزال يلوح فيهما بقايا من ذُعرٍ متجدد..

بوح عيناها يُهيج فيه الحزن القديم.. حزن قديم قدم حلمه بسلوى، هذه الأُنثى التي تخصه ويخصها بأشيائه القصوى، ويهدر بين أحضانها أحزانه، يبثها لواعج الشوق والحنين.. حلم يتجدد مرَّة أُخرَى في الحضور الدائم لها داخله، فمنذ انتقل بها والداها عائدين إلى الشمال مرَّةً أُخرَى وهو لا يعرف شيئا عنها، حتى عندما لجأ للحزب لمعرفة أخبارها لم يجد رداً.

كانت أبْدوك -أيضاً- تحاول أن تقرأ هويته في عينيه الزائغتين، لحظت ارتجافته عندما مرَّ العسكري من أمامه، فتسآلت:

"أهو هارب مثلها. لكن مما؟."

حاولت أن تقرأ في عينيه خلسة شيء ما أي شيء، يدفعها للاطمئنان فتعترف بين يديه بقصة هروبها..

لمسات ناعمة من الأُلفة تجمع بينهما، كلاهما يتحدث إلى الآخر في سرِّه ويشعر به يفهمه. يعترف له، يحكي حكايته دون أن يستعين بالكلام.. فالكلمات أحياناً لا تعني شيئاً، لا تقوى على التعبير عن فداحة الأشياء أو وصف الحال. لا تستوعب الوجدان المرهف. وحدها لُغة الصَّمت -أحيانا- تعبر عن مكنونات الأشياء.

القطار يهدر يبيح الشجن والمواجد ويذكي اللوعة. قالت في نفسها:

"لا أدري لماذا أثق بك. ربما لوطء الإحساس بالغربة والوحشة والوحدة، في هذه الرحلة المخيفة."

عندما هربت من قريتي منذ سنوات، لم يكن قلبي يشعر بكل هذا الخوف، والآن عندما عدت ولم أجد القرية، ولا الأهل والأحباب. عرفت المعنى الحقيقي للخوف. فآثار الحريق والرَّماد كانت في كل مكان، أنها الحرب تزحف شيئا فشيئا. إلى أن حاصرتهم من كل اتجاه. ثم لم يكن ثمّة أحد وجود حتى وليم، لا أعرف عنه شيئا منذ أن تسلل إلى الغابة، وحمل السلاح معِ قوات الرمح المقدس، مثل جوزيف أودهو الذي عاد إليها مرَّة أُخرَى.

الآن أنا عائدة منبتة الجذور حيث لا جِن ولا وِليم، ولا الأب جوزيف ولا الجدة مارتا.. تسللت دمعتان جفناها المسبلان، على ماض من الكوابيس المرعبة، وحاضر مليء بالهواجس والمخاوف والظنون..

"انتظري أبْدوك لتذهبي في أول طائرة إغاثة"

قال رئيسها في المنظمة فصرخت في وجهه:

"الحرب اقتربت من أهلي. أريد أن أراهم. هذا كل ما أفكر فيه"

"سيكونون بخير، لن تأمني على نفسك وأنت."

"لقد قرَّرت وساسافر"

أمام عنادها وإصرارها هز رأسه:

"إذن سنحاول أن نفعل كل ما بوسعنا"

وبذات الطريقة التي أتت بها منذ زمن بعيد.. رجعت إلى حيث لم تجد سوى الخراب والدمار والرماد. حتى قباب الأسلاف التي كان يتبرك بها الأب جوزيف، لم يعد لها وجود. كل شيء كان قد إنتهى كأنه لم يكن يوما..

كانت مُحاصرة بالأحاسيس ذاتها التي لاحقتها ليلة هربها. تلك الليلة البعيدة عندما كانت صبية، لم تتخطى بعد سنوات مراهقتها المرعبة، هربت لتنضم إلى قوات الرمح المقدس، مدفوعة للمغامرَّة بحكايات الشباب والشابات الذين تسللوا، من القُرى والمخابيء خفية إلى الغابة يحملون السلاح ضد جيش الحكومة الغازي.

على ذات القطار وبذات الثياب -ربما.. هو الحنين المجنون دفعها لتفعل ما فعلت، بكل جنونها المحفوف بالمخاطر وطقوس الحنين.. كان الجميع يهربون من الحرب، إلا هي ووعثاء الطريق كالنصل.. قصتها لا تختلف عن قصته كثيراً، فلانجور أيضاً وجد الحرب قد أوغلت، والتهمت كل شيء.

كان يتوقع أن يجد الرَّث باناو، زوجاته، أخوته.. لكن لا شيء فحتى المندكورو زوجته لم يكن لهما وجود. أحرقت قوات الحكومة كل شيء: النَّاس التاريخ. الأرض.. اللواك والحيوانات المفترسة، ولم يتبق من لابسي جلد الفهد سوى الرماد والعظام المحترقة..

لم يترك معسكراً من معسكرات النازحين واللاجئين إلا وفتش فيه، لم يكن ثمة أثر لأي كائن يعرفه. كأن كل شيء قد أصابته لعنة الحرب. كأن كل شئ لم يكن!

حماس البحث الذي ظلت جذوته مشتعلة لسنوات عديدة يفتر، تخبو شعلته ويتسرب القنوط إلى الماضي، فيصيب الحاضر بشعور مقيم بالخذلان، والأسى والحزن الدفين.. كان يحكي لها صمتا، فتحكي له. يتحاكيان في سرهما دون صوت سوى هدير عجلات القطار..

فيرى وليم، تهرب إليه كما تهرب الذات في الغربة وتهمس: "أرتني آتيبِّب أُم أحدهم.. قريب منك وهي تموت تحت مجنزرات الحكومة"

مع ذلك لم يكف وليم عن البحث عن أمه.. أحياناً تشعر به محض عقل؛ لا يستفزه شيء ولا يستثيره شيء. لم يصدق أبداً

روح اتيبب التي تخرج مني. تنبثق كضوء من مسام الرأس؛ يتجمع في طيف ويمضي هائما في الماضي والمستقبل. يتجول في أحوال النَّاس والأشياء والأمكنة.

نعم لم يكن يُصدق، كان يرد بهذا الحزن العميق في عينيه، ذلك النوع من الحزن الأكبر من كل شئ. ذلك النَّوع من الحزن الذي يسرق النوم من العيون، ولا يمنحنا سوى السهد والشجن، والنداءات الغامضة. نعم النداءات الغامضة.

هذه النداءات التي ظلت تُلاحقنا، فتدفعنا دفعا لمغادرة المكان إلى الغابات. إلى الاختباء في العربات من الزنازين، من غلظة رجال الأمن، ووحشة الليل والآلام التي يشعر بها المحاربين، وهم يسقطون واحداً تلو الآخر في النهايات الهزيمة..

لكن ربما كانت النداءات الغامضة، تريد دفعنا إلى مسار آخر، أكثر غموضاً. مسار مجهول لا ندري كنهه. فهي ليست ككل النداءات، بل مثل نوع من الارباك، الذي يجعل الإنسان حائراً أمام لُغز أساسي، لُغز وجوده.. وربما هو الحلم المتواري في محاولاتنا، لاكتشاف ما حولنا من أسرار، أو تفسير هذه الرموز والمفردات التي تحاصرنا.

ورغم كل شيء ظللنا متوشحين بالوحدة والتوحد، وبين آن وآخر يدهمنا الشعور بالأُم الغائبة، في التفاصيل التي حولنا: جرعة الماء. قطعة اللحم الجافة، التي بقيت لأكثر من موسم، منذ أُحضرت من شجرة اللحم. أو السمك الطازج الذي يأتي به لابسو جلد الفهد.

ربما في الشعور بالعرق المنهمر كالسيل. ذات نهار حار، لا تبرده سوى رطوبة المريسة، في قعدة أمام الحكيم واندييتق بينق، وهو يحكي عن الأسلاف، ورحلة أكوي كاكاب ونيكانج.. و كل شيء حولنا..

إذن أحببت وليم -ربما لسبب ما لا أعلمه- دون كل شبان العشيرَّة وليم هذا الخِلاسي الذي ظل حبه أحد الألغاز المحيرَّة في حياتي..

لُغز حميم دون كل الألغاز ظل مسيطراً على كياني.. لا أنسى تلك الليلة الماطرة. أبداً. كنت نائمة في أرض العُشة على الجلد. متكومة على جنبي الأيمن، فالأرض كانت رَطبة باردة..

لم يكن وليم موجوداً، إذ مضى إلى المندكورو كعادته، كذلك الأب جوزيف وزوجته، رغم أنهما كانا نائمان على السرير الخشبي، إلا أنني لم أكن أحس بوجودهما فلا أحد يتكلم عندما

يهطل المطر، لذلك كانت فقط أنات السرير تحتهما، هي ما يشي بتواجدهما الحميم، هذه الأنات/ التأوهات أنهكتني، فصحوت فجراً مبتلةً بالدَّم.

وكان ظهيرَّة الأحد. وكانت كاترين الرَّاهبة تتفحصني من دون الجميع، لم أشعر بنظراتها، إلا بعد أن إنتهت الصَّلاة -لابد أنها لاحظت أنني كنت غائبة عنها في عالمٍ آخر- اقتربت مني:

"ما بك أبدوك؟"

ارتبكت ودون أن أعي تلمست أسفل فخذي. وكان أن فهمت كل شيء. فأخذتني إلى بيتها الصغير الملحق بالكنيسة. أعدت لي عصير المانجو، وحدثتني بهدوء ولطف، عن كيف تتحول الطفلة إلى أنثى ناضجة، ولم تنس الحديث عن الرَّب يسوع مخلص العالم، وأمه مريم العذراء، وتعاليم الروح القدس، والمجدلية، وكيف انجبت مريم يسوع، وقرأت لي جزء من الأسفار.

لا أذكر الآن ماذا كانت كاترين تقول أو تقرا بالضبط.. لكن عندما خرجت منها كنت هادئة، ومنذها وجدت تفسيراً لضعفي أمام وليم. وأدركت حقيقة تلك التحرُشات، التي كان يُفاجئني بها مستر واطسون.

إذن كانت تلك الظهيرَّة علامة فارقة في حياتي. وقتها كان وِليم قد أكمل الوسطى وهرب، قال الأب جوزيف أنه انضم إلى الثوار في الغابة، ثم عاد وغير إفادته بزعمه أنه هرب إلى الشمال، ليحصل على مزيد من التعليم هُناك، وما أن أكملت الثانوي حتى هربت متسللة القطار..

تركت خلفي الأهل والعشيرَّة، وأحلام الأب جوزيف ومجوك إبن الرَّث باناو وكل شيء.. ثمَّة حادثة تركت في نفسي -وقتها- انطباعا قويا، إذ فاجأني تيم بينما كنت عارية، أُغير ثيابي في العُشة.. اقترب يحيطني بذراعيه، فصرخت.

جاء وِليم مسرعاً وعيناه تشعان بغضب حمَّله كل مشاعره الدفينة. تراجع تيم مباغتاً، وهو يكاد يصطدم بالعمود الذي يتوسط العُشة ويسندها، ولم تمض سوى أيام قليلة حتى أختفى تيم منضماً إلى الثوار في الغابة. وبقيت أنا ووِليم وحدنا.

ووِليم كعادته ما أن يعود إلى الدَّار حتى يدفن نفسه بين الكتب، التي كان يجلبها من المندكورو، كان يحاول أن يحثني دائما على القراءة، فحاولت قراءة (الأرض الخراب The Waste Land) ولم ألمس تلك الكتب التي بالعربية -كان المندكورو يُعطيه أيضاً دروسا في العربية- حدثني وِليم عن الأُكتوبريات وشحاذ في الخرطوم والليل في غابة النيون، و.. و شعرت بالملل!

كان يدهشني انكبابه على هذه الأشياء المملة، التي لا أفهم فيها شيئاً –وقتها– ماذا يعني المنهج العلمي الجدلي التاريخي، سخف. مدخل إلى علم الاقتصاد السياسي. هُراء. كيف سقينا الفولاذ. أُكذوبة.. لا أحد يسقي الفولاذ!.. الأرض البكر. سخف. سخف. سخف!

هذا السخف الذي كان يَبدأه بالحديث عن وحدة القارة السمراء، ويختمه بالاشتراكية الإفريقية. مؤكدا أن الشعوب سيدة إرادتها، قرَّارها.. مصيرَّها...

"إذن قومنا لا إرادة لهم؟!"

فيضحك، وأضحك.. ويعود مُنكباً فأفشل في إخراجه عن تركيزه.. أحيانا كان يرغب في الحكي، فيحكي ويحكي. كان ثَمَّة شيء مميز في صوته وطريقة كلامه. شيء آسر يجعل الكلام يسرقك من نفسك.

وكنت دائما أشعر به، كأنه يعد نفسه لدورٍ (ما) ربما يلعبه ذات يوم. وكانت الأيام تمضي، والقرى البعيدة تحترق واحدة تلو الأُخرَى، إلى أن خرج ولم يعد بعدها..

كانت الاتفاقيات تفشل والمعاهدات والهُدنات تنهار، ووقف إطلاق النَّار يتوقف، فأُصبح شبه متأكدة أنه من الصعب الوثوق في المندكورات.

إمتلات الغابات بلابسيّ جلد الفهد، ولم تعد ثَمَّة مراكب كانو وصيادين: كانت وجهة الكثيرون: تنزانيا، أوغندا، كينيا، أفريقيا الوسطى، زائير وإثيوبيا..

حتى الصِّبية الذين لم توضع على جباههم مرَّاسم الرُجُولة، ذهبوا إلى هُناك ليرفعوا السلاح. فامتلأت معسكرات الثوَّار بالمقاتلين، الذين تسللوا وهم يغنون أُغنيات الحرب. وهم يتذكرون الأسلاف.

قُرَّى جديدة تنمو، وأُخرى تزول عن الوجود، وتظل الحياة – مع ذلك– محتمَّلة تمضي رغم كل شيء إلى أن كان ذلك اليوم الذي قرر فيه الأب جوزيف تزويجي من مجوك إبن الرَّث باناو...

***

عربة النيسان السكس، المحمَّلة بأفراد وعفش السرية الثالثة ومدافع الهاون 120 مم والدانات 17 كجم تتهادى بحمولتها الثقيلة، وهي تجر خلفها مدافع الهاوتزر، وأدروب الذي أسكرته رائحة الحرب، يتجلى في المسافة المتضائلة، على مشارِف الرَّنك..

"لو عدنا أحياءً مرَّةً أُخرَى. هل استطيع البدء من جديد؟" رمى سُعود بالتساؤل في وجه متوكل؛ وفيوار تتراءى في الأُفق القريب؛ حيث تجمُع وحدات الدعم والمشاة.

كانت الفرقة عرين الأُسود قد اكتملت، وهي تضم اللواء الأول، الكتيبة 223 غرب، الكتيبة 109 شمال، الكتيبة 159 شرق، ووحدات الدَّعم المكونة من سلاح المهندسين، المدفعية، الكتيبة 105، الإشارة، النقل والتموين، المدرعات، الصيانة، السلاح الطبي والاستخبارات وفيلق ميليشيات الغريق الجهادية..

وسُعود لا يزال ينتظر إجابة متوكل، الذي بدت ملامحه شفافة يمكن للبصمة أن تظهر عليها..

عند الفجر تهيأ الجميع للتحرك انفصل اللواء الثاني عن الفرقة عرين الأُسود، محتوياً على الكتيبة 105 والوحدة 317 ميدان ووحدات الدعم.. وبدأ الطريق إلى إقليم الجفاف (جلهاك) حيث الماء نادر الوجود.

في جلهاك صدر قرَّار من القائد، بعودة اللواء الأول إلى فيوَّار، وبتوجه الثاني إلى ملوط التي احتلها الثوار.

على مد الطريق إلى ملوط، كانت بقايا جثث عساكر الحكومة ورجال الرُّمح المقدس قد تناهشتها الذئاب!

***

عجلات القطار تنتحب على السكة الحديد، لتعبر عن أحزان القادمين والماضين إلى المجهول، ولانجور بعد لا يزال يقرأ، في عينيها المطلتين على دواخله هدر السنوات. في البحث عن الذات، وتأكيدها..

وقع عجلات القطار يأخذه إلى سنوات بعيدة، يرسو فيها كمركب في مهب الموج..

عجلات القطار تصرخ:

بيدبا سلوى، بيدبا، سلوى، بيدبا، سلوى.. يأخذه صراخها إلى المحطات القصية. ودون توقف. يستمر القطار في رحلته اللانهائية، منذ ودعه تيم كآخر رفيق رأى وجهه، ودعه لانجور بذات كلمات وليم، التي حملها خطابه الأخير، والتي يكاد يحفظها الآن لكثرة ما قرأها..

"تُرى كيف هو الآن في بلاد كينياتا والماوماو؟."

كانت كلمات كأنها خصصت وحدها منذ الازل، لوداع الهاربين من الإعتقال. وداع الهارب، المختبئ يختلف عن وداع المقيم المسافر فالأخير يُحمَّل بالأُمنيات الطيبة في غربته، لكن وداع الهارب يتخطى حدود الحلم بسلامته. تمنيات تثير المخاوف والقلق والشجون السجون، والرَّهبة والخوف والجنون، فلا يبقى سوى هذا الحلم القلق المشحون بالتوتر.

الحلم بوطن أجمل يسع الجميع دون إستثناء.. علمه وليم كيف يحلم (الحلم هو أقصى حدود الحُرِّية -الآن- كتب إليه وهو في طريقه إلى كوبا عن أغنيات تشيكايا أومسي، وعن الحُرية الكنغولية ومصير الزنوج، حدثه عن سنغور الشاعر وعرش السنغال (تلك دبابة وأنا شاعر).. كان كل منهما كجلجامش، قد أختار طريقه الذي لا رجعة فيه.

وقع عجلات القطار يموسق في داخله، كل الذِّكريات الموتورَّة، فتستحيل إلى نغمٍ عذب.. يجيء صوته من البعيد مُخترقاً المسافات، مهشماً وقع عجلات القطار، خارجاً من الهدير، يحكي عن آخر خلفاء عهد الانحلال -كما يسميه التاريخ- كان المتوكل أشبه بالغريق، فرسمياً داعشي مهووس، وسراً من مشايعي الموسيقى، ناهيك عن إبنه عيسى إبن عبد الله.

كان المتوكل يحب اللهو والعبث ليلاً، ويقطع رقاب الناس باسم الدين نهاراً. المتوكل هكذا ظل يعيش في الوجدان الثقافي للمندكورات، الذين يستلهمون العقيدة أكثر مما يستلهمون النزعة الإنسانية، ومن هنا وضع الأساس لأثننة السياسة في البلاد الأسيرَّة متمرحلاً من القبلية والطائفية والجهوية.

"نحن لا نريد أن نكون كالموالي على عهد الأمويين يا لانجور، باسم العدو الخفي الذي يهدد وحدة البلاد.. كل ما نريده هو أن نكون نحن -نحن."

تجد أبْدوك في نفسها قدراً أكبر من الشجاعة، لإدامة النظر في وجه لانجور المعروق، المسبل العينين. كانت ملامحه تشي بأنه يخوض معركة صامتة، تمور بها دواخله، معركة مع الذكريات رُبما، مع القلق والخوف مما هو آت رُبما!...

***

وجهه ليس غريباً عنها تماماً، كأنها تعرفه أو تعتقد أنها تعرفه. انتبه إليها خارجا من بوح غفوته.. واجهها بنظراته للمرَّة الأولى منذ بدأت هذه الرِّحلة.. ثم عاد غائصا مرَّةً أُخرَىٰ في خواطره الكثيفة:

تذكر سلوىٰ، رسائلهما التي يرميانها خلسة في أكف بعضهما. نهاية كل يوم دراسي إلى أن تسنح الفرصة بلقاء. بعد اجتماعات (الخلِّية).

صافِرَّة القطار بعد لا تنطق كلمتها الأخيرة، يستمر القطار في سيرِه ككوكب على مداره، لا يتوقف ليستريح. القطار يسير على الأرض اليباب، التي توسطها القضبان. القطار يسجنه في انتظار صافرته الأخيرة التي تقذفه بعيداً عن زمن الصافرات.

صوت عجلات القطار يتمدد، تدور العجلات الحديدية، يلتف حولها القلب، تطحنه يفيض برائحة الدَّم المعجون. في المواسم المترعة بالأسىٰ، لتتشكل أصداء لمدن رمادية، مشحونة بأنغام لقياثير لم يروي ظمأها وتر الحنين الشارد.. صوت عجلات القطار والماكينات الدائرة، هذا الصوت الليلي يوجف الصباحات المرتقبة، بالأغاني الراعِشة، المغتربة. فيسقط الوطن: سلوى، باناو، بيدبا، وليم حواء جاد الله، احمد ابراهيم!..

يسقط المندكورو من ذاكرَّة التاريخ، المدجن بالدم والدموع والسُّم الزُّعاف، وتتسع التنبؤات. تتكور على القطار الماض إلى المدن البعيدة، المدن التي يظل في طريقه إليها. لكن أبداً لا يصلها..

المدن التي احتكرها الغرباء وصادروا الأحلام البريئة لأطفالها.. (آه يا حبيبي).. تلك سلوىٰ وحدنا بانتظار الرفاق؛ لنبدأ إجتماع الخلِّية.. (آه يا حبيبي) وبعد أجنة يسافرون في رحم المكان.. هذي البلاد الكبيرة التي ليس كمثلها مكان؛ فهي الوطن والمنفي، والحقيقة والوهم في الآن ذاته.

لكنها مع ذلك تظل هي الوطن، المكان الوحيد الذي يمكنك أن تصرخ وتتبول وتتغوط فيه حيث أنت أيا كان موقعك فتصرخ عجلات القطار، ويتبدد كل شيء كأنه لم يكن:

بيدبا، قُباب الأسلاف، الأرض الخراب والعظام المحروقة للابسي جلد الفهد.. فتنسحب آخر الإيقاعات القديمة، على أهداب الذكرى، فلا يبقى سوى مشهد وحيد -يقف فيه سالم حاسما كل خياراتي:

"لا خيار سوى الهروب؟"

"إلى أين؟"

"لقد قرَّرت القيادة أن يتم تأمينك في مدينة أخرى"

"وادي النحاس؟"

"ربما"

ومد لي ورقة صغيرة وهو يضيف:

"عنوان سلوى قد تحتاجه قبل مغادرة هذه المدينة. أرى في عينيك تساؤل مريب؟"

"كنت كلما سألتك عنها ترد أنك لا تعرف شيئا؟"

"لأنني فعلاً لا أعرف شيئاً عنها، لا علاقة لي بالقطاع النِّسوي، هكذا هي الأمور"

"ووليم؟"

"لا أعرف عنه شيئا الآن"

"رسائله؟"

"لا شيء"

"ماذا حدث لك يا سالم، هل أنت هو سالم ذاته الذي عرفته في الجنوب؟.. احمل رأسي على كفي وكل ردودك على اسئلتي: لا شيء!"

"جميعنا يحمل رأسه على كفه، ليس امتيازا لك وحدك"

"متى ينتهي كل هذا؟"

"يوما ما رُبما عام أو عشرَّة، ربما عشرين. ربما لا ينتهي إلا ليبدأ بداية جديدة. أنها البلاد الكبيرة، كما تعلم"

"أنه عبث"

"هكذا هي الحياة. لقد اختبرت السنون واختبرتني، ولم يبق من عمري الكثير، لكنك لا تزال شابا، أمامك الكثير لاختباره فيما تفكر؟"

"ربما الرَّث باناو. أهو حي أم ميت؟"

"دعك من هذا الآن. سيتم تفريغك للدراسات العليا، متى سمحت ظروفك الأمنية بذلك"

"الخارج؟"

"رُبما.. مع مراعاة أي مستجد داخلي"

كنت قد أحسست حينها بحاجة ماسة لمخدة، تلم شعث أفكاري في هذه الليلة التي لا أول لها ولا آخر، هل تتساوى راحة الرأس بمخدة أو دونها؟ هذا الرأس المنهك"

***

نهض لانجور. أراد أن يتقدم قليلاً من المنضدة التي تتوسط الغرفة، ليأخذ علبة السجائر، تعثَّرت قدمه بعنف، فارتد إلى المقعد المجاور للشمعدان.

طيف إبتسامة باهتة عانق وجهه المعبد بالهموم. تشردت نظراته على خارطة جسد سالم، ثم طافت بمِعصميه اللذان يحملان آثار الحُروق بأعقاب السجائر!.. انحدرت نظراته إلى بقايا الإبهام والأظفَر المخلوع، تنهد بعمق وإبتسامة عقيمة ترتسم على وجهه الناحل:

"هناك أشياء لا يوجد منطق يقنعنا بنسيانها"

"لماذا تقول ذلك؟"

"لأنها غير خاضعة لقوانين المنطق"

"لماذا قلت ذلك؟"

"لا أدري!"

وامتدت يده إلى عُلبة السجائر مرَّةً أُخرَّى..

"انت تدخن كثيراً يا لانجور، ليس هناك ما يستحق أن تشعر باحتراق شيء لأجله"

"ما يحرقني حقا هو هذه الأزمنة التاريخية المتداخلة في البلاد الكبيرَّة، حتى لم أعد أعرف إلى أي عصر أنتمي أو في أي عصر نعيش"

"أهو حقا ما تقول أم أن لكل هذا الاحتراق علاقة بسلوى والرث باناو؟!"

"يبدو أنك لا تريد أن تعرف ما أعانيه الآن بالضبط. أنا الآن بأمس الحاجة لوليم"

"أنت أقوى منه لأنك اخترت لغة غير السلاح للتغيير.. كلفة إنسانية أقل"

"من قال أنني لا أؤمن بالسلاح، ومن قال أن السلاح ستنتج عنه كلفة إنسانية أعلا.. كلما استمرت هذه الأوضاع، ارتفعت الكُلفة، السلاح يقطع الطريق أمام استمرار هذا الثمن الباهظ، الذي يدفعه الجميع من جوعهم وحرمانهم وبؤسهم"

"لا أود الدخول معك في مغالطات.. لقد اخترنا طريقنا في التغيير، ولن نتراجع عما اخترناه"

"اتعلم أشعر بأنني أُعتقلت داخل شبكة عنكبوت كذبابة"

"هكذا حالنا جميعاً، هذا قدر المطاردين"

تنهد لانجور بعمق، وفي خاطره تطوف بقايا أسئلة قديمة، تعود إلى تلك السنوات البعيدة، عندما كان يسأل عن أخبار سلوى كثيراً ولا يجد رداً.. وكانت بدايات الأسئلة الصغيرة، تقود إلى استفهامات كبيرة عن الحزب العتيق، بقوالبه الجامدة التي تجاوزتها حركة التاريخ، وعجزه، والفساد الذي يحاصر كل منظماته، وصراعات مراكز القوى، واختيار القيادة على أساس إثني، لا يخلو من الترميز التضليلي، عندما تضطر هذه القيادة بتجميل هيئتها وتصعيد شخص مثله..

لكنها كانت أسئلة عابرة، لا تلبث أن تنحسر، خشية كتبة البلاغات، خشية الاتهام بالعرقية والجهوية والشعوبية، الخ من

ميكانيزمات دفاعية، برع الحزب العتيق في إنتاجها واستخدامها، لتخويف اعضاءه الضَّالين والمغضوب عليهم، ومن عداهم أو والاهم.

"لا، لا تذهب بعيداً. أنا أعني الآيديولوجيا نفسها"

"لانجور؟ ما بك يبدو أنك تفقد أعصابك. يجب أن تعلم شيئا محدداً، أن هذا الحزب لم تنشئه انت"

"ولا أنت. ومع ذلك علينا أن نسهم جميعا، في صياغة المعنى العام لرؤيته"

"على العموم ما دار سيظل بيننا، ساعتبر هذا الأمر منتهياً، على ألا تعاود الحديث فيه"

"الجام العوام عن الكلام؟"

"افهم الأمور بالطريقة التي تشاء. يجب أن انصرف"

"إنتظر سأُغير هذه الأسمال وآت معك، لأرى هذا الحزب الخفي الذي انتمي إليه"

"لا لن تخرج معي"

"إذن ساتْبعك"

الآن تستعيد ذّاكرته من أرشيفها، الذي تكاثفت عليه أغبرة السنوات، ذلك اللقاء المختلس خلف الكنيسة:

"أولن تنسيني يا سلوى؟"

"كيف أنساك وأنت داخلي. سنلتقي، ثق أننا سنلتقي"

كانت بين ذراعيه كطفل يحلم آمنا، بعوالم خاصة جدا. لا يعرف شفرتها سواه. فتحت جفنيها المثقلين لتغلقهما مَرَّةً أُخرَى.

القطار يمضي بعنفوان الجُرح، ليذوب النقيض في النقيض!..

***

ختم مستر عدنان زيارته الميدانية، وانهى اجتماعه بوليم قائلا:

"يجب أن تكون دقيقاً في نقل تفاصيل هذا الإجتماع، أكرر نحن لا ندعم الإنفصال، بل ندعم القضايا العادلة"

"الوحدة أو الانفصال هي قرارات تخصنا وحدنا، وبعيداً عن الشعارات، التعاون بيننا مبني على مصالح مشتركة، أنتم تريدون النفط الآن، وحلفائكم لا يريدون أن يتم استخراج نفطنا الآن، ونحن نريد أن نكون سادة انفسنا"

"لا أخفي عليك أن حكوماتنا قلقة بشأن التعاون معكم، فنحن ندعمكم ضد اخوتنا"

"إن كان الحرج هو ما يزعجكم، فثق لن نتسبب لكم في أي حرج"

"كيف نثق وارادتكم منقسمة"

"إن كنت تعني فصائل الرمح المقدس فقد توحدت جميعها، لا انقسامات بعد الآن، وأنا أعلم وأنت تعلم من هو الذي يقف خلف الانقسامات"

"إلى ماذا تُلمح؟"

"لا. أنسى ذلك. لنُسمي الأشياء باسمائها. ما يهمكم هو سرية علاقتنا، لا مشكلة. فهذا شيء سهل نستطيع أن نضمنه لكم"

دخل أحد الجنود فجأة الزعيم رينج، القائد العام على الجهاز.

كان وليم يدرك المغزى من اتصال القائد العام، فهو قلق بسبب سقوط جوبا، في يد القوات الحكومية، كما أنه يود التأكد أن كل الأمور -خاصة تلك، المتعلقة بالدعم اللوجستي، والتي كان قد ناقشها سلفاً مع المسئولين العرب، فأرسلوا مبعوثا لهم للاطلاع على حقيقة الأوضاع الميدانية- تمضي على ما يرام.

أغلق وليم على نفسه أحد الأبواب الجانبية، المفضية إلى غرفة ملأى بأجهزة الاتصال الحديثة، مد له أحد ضباط الصف، جهازاً صغيراً بحجم علبة السردين، فتناهى إليه صوت القائد العام:

"لم نحرر جوبا سوى منذ شهرين فقط؟"

"أنهم يستردون ما ننتزعه منهم، مثلما نفعل نحن"

"يجب ألا يسقط مَرَّةً أُخرَى ما يقع تحت أيدينا؟"

"اننا نخوض حرب عصابات يا سيدي"

"لم تعد حربنا حرب عصابات، لقد تغيرت الاستراتيجية، خاصة أننا نعمل الآن على إعادة بناء وتأهيل المناطق المحرَّرة. الآن (ملوط) تقاوم بشراسة، يجب ألا تسقط. أعطوا التعليمات لتحرِيك وحدات الدعم، وأنت لا تغادر مركز القيادة في كبويتا لأي سبب، ونفذ الخُطة الاحتياطية المتعلقة بقواعد الريف. انتهى"

"هل تسمح بسؤال؟"

"ما ذاك؟"

"اجتماع القيادة بكمبالا، كيف أحضره وتعليماتي أن أبقى في مركز القيادة الميدانية؟"

"هذا ليس سؤالا؛ أنه احتجاج. ماذا عن ضيفكم العربي"

.....

.....

كانت التعليمات واضحة، قال القائد:

"لا تقتلوا أي أسير؟"

"لكن الجيش الحكومي لا يبقي على أسرانا أحياء!"

"في حال التوقيع على اتفاق سلام سيُحرجهم وجود أسراهم على قيد الحياة، بعد أن خدعوا عائلاتهم بأنهم (شُهداء).. كما أنني أرغب في بقائهم أحياء لأسباب أُخرَىٰ"

كان وليم لا زال يُفكر في حديث القائد، وهو يلج مكتبه مَرَّةً أُخرَىٰ لمواصلة إجتماعه بالمبعوث العربي، الذي فاجأه بسؤال:

"هل هذه المدينة آمنة؟"

"تماما"

"أنها نموذج أوروبي في المِعمّار"

"بلادنا كلها ستكون هكذا.. البلاد الكبيرة"

"ظننت انكم ستكتفون بالجنوب فقط؟!"

"الجنوب في كل شبر من البلاد الكبيرة"

دخلت الرائد إيڤا، بقامتها الممشوقة وجسمها الرياضي الأسمر المشدود. أومأ لها وليم برأسه:

"تفضلي هذا صديقنا وصديق اصدقاءنا في الغرب، مستر عدنان الحسين آل الشيخ"

مدت إيڤا يدها إلى مستر عدنان، الذي سارع بالتقاطها، وتقبيلها ولسانه يكاد يتلمظ بين شفتيه..

"أهلا بك مستر عدنان، ما رأيك بجولة في كبويتا. مؤكد أنك لم ترى المعالم المدهشة لهذه المدينة الساحرة بعد "

***

تصبح بيدبا وسلوى ملامحاً متكررة في آخرّيات.. ضد ضد، نقيض نقيض. أنها معان سنوات الحرمان، هذا الحجر، حجر الطاحون الذي لا يزال يدور. في الوجه الآخر للمكان، فيبدو كل شيء باهتاً، كقصة حب حزينة لم تكتمل. تغوص في مداراتها سلوى، مزيداً من البدايات غير المنتهية، مزيداً من الأحلام التي يُحطمها الحزب العجوز، ورجال الأمن. فهما صنوَّان.

مزيداً من الآمال التي يقهرها تعب البحث المضن، ورَّم وعودة الى ذي بدء، من أين نبدأ إلى حيث ننتهي في الترحال والمنفى اللذان يُشرعان نواجذهما. تمر ساعات الليل ببطء في مناجاة النجوم، كالرومانسِّيين القُدامى، ذات الحكاية: الفشل.. الفشل في كل شيء حتى العثور على الوجوه التي نحب، الوجوه الغائبة في ارتعاشات الأضواء الباهتة البعيدة، والصمت الخفي، منذ تبدأ الشمس في التسحب بعيداً، بعيداً. إلى الخلف، الخلف البعيد، منذ تبدأ العتمَّة والخوف العميق، منذ يبدأ كل شيء في التداري، عن كل شيء عداه.

كان لانجور قد أحس بالاختناق، ود الخروج لكن الخروج الآن. يعني الدخول في زمن حظر التجوال، أحس في حديث سالم بالقيود تتعاظم، فتُكبل حتى مجرد الرَّغبة اليتيمة في التجول والتنقل، هذا الحق الذي حظيت به حتى الطيور، يجد نفسه محروما منه.

ومع ذلك خرج، خرج خروجا ضد النسيان، الرصاص، الصمت، الحزب. تردد في منتصف الطريق. فاقفل راجعاً حين أحس بوقع أقدام خلفه. التفت على جانبي الطريق فلم يرى شيئا. محاولة فاشلة من الوهم، لاختراق جدار أحاسيسه، تبعته الخطوات بتصميم أكبر، وأشكال غامضة تتطاير أمامه وخلفه،

تتضائل من جديد، تتكرر وثَمَّة اختناق بكل التفاصيل يصيبه بقسوة..

لكن سلوى لم تأت، رغم خطورة المجازفة، ها مرَّة أُخرَى يكسر عنف حاجز الخطر، يقف عند زاوية منزلها ولا تأتي. تلاشى صوت خطوات سالم.

همس لانجور في نفسه -لابد أن أخرج. كان التاريخ يكرر نفسه في كل شيء. وقف أمام الباب برهة من التردد، ثم استقبله الشارع الفسيح..

لفحة هواء باردة تنعش فيه ذكريات عميقة، بخُطى نزقة، مرتبكة، قطع الطريق إلى الطرف الآخر من الرَّصيف، وفي أعماقه خوف من المجهول، وإحساس بالتشرد رَغبة أشد تحاول قهر الخوف والإحساس بالوحشة والإحباط، كرغبته العارِمة في معرِّفة مصير الرَّث باناو؟! وكل الذين أحبهم، ولا يزال يحبهم:

بيدبا، جوزيف، وليم، والمندكورو عبد الله، وأحمد ابراهيم وحواء جاد الله.. حاول أن يبعث في نفسه شعوراً بالارتياح فلم يستطع.. اجتاز الطريق المرصوف إلى ميدان فسيح، خالي إلا من عواء الكلاب، الذي يأتي من البعيد حزينا ينهكه صمت الليل، ورغم ذلك يحاول بالتياعاته، كسر طوق العزلة والسكون..

الأصوات.. الأصوات المجهولة، التي حوله توحي بمزيد من الخوف، تدفعه إلى تصميم أقوى وأشد وأعنف.. توقف ملتفتا إلى الخلف، تأكد من خلو المسافة من أي شيء يتبعه، أخذ يتابع ببصره لمبات النور المتتابعة على كتف الشارع، تبدو آخر نقطة ضوء كأُنشُوطة لبداية النهايات.

موجة هواء قوّية كهذه، تكسر شعر سلوى وهي تسير جواره في طريق مشابه، تذكره تماما. لا يستطيع نسيانه أبداً. مد يده ليزيح خصلات الشعر السوداء الطويلة من عينيها، ليُهدئ من روع وجدانه الثائر، يحسر عنه التمرد على الريح، هذه الريح التي داخله، دائما أحب شعرها حُراً طليقا كالطيور المهاجرة.. دائما.. شعرها صنواً لحنينه العارم.

تيارات الهواء الباردة، تُذكي في جسده حرَّارة الدَّم، تبعث فيه النشاط. خطواته تزداد سرعة، يصل نهاية الميدان فيهدأ قليلاً. يقف تحت لمبة النور الأخيرة، تطوقه نسائم دعاش تأتي من البحر، يتذكر النيل ومراكب الكانو ولابسو جلد الفهد يتذكر نيكانج وجيوكومو كينياتا ومقاتلي الماو ماو ووليم واللواك وشجرة اللحم والاشينو والمانجيكلو والأقونو، وتنتصب فوق كل هذا السقط من الخواطر والأفكار: الغابة وبيدبا والزعيم باناو، وهو يلقي عليه حكمة الأسلاف وتعاليم الرُّمح المقدس..

يجتاز الدعاش المباني العالية يداهمه في هذا المنعطف الحاد، بدفق بارد لطيف. شق الدرب إلى النَّهر.. هذه البلاد ستظل تحرق قلبك في كل دقيقة تمر يا لانجور، هذي البلاد خلفك، هذي البلاد أمامك، فأين المفر..

تُرى اتخذت سلمى قميص البلاد رداء، أم لا تزال بتنورتها ذاتها وشعرها المنسدل. لا شيء يبقى على حاله في هذه البلاد سوى النيل، بطيوره رهبته.. دفقهِ وخصبه. تمضي البوَّاخر وتعود وهو ذات نفسه، رُبما تعطب مكائنها. ربما تدمرها قاذفات القنابل، لكن تظل بواخر أُخرَى تروح وتجيء لا يترك شيئا ينتقص ملامحه.. النيل صَنو الغابة، غابة لابسي جلد الفهد، شقيق الصحراء والوادي..

زمن الخوف يقطع اللحظة الدافئة النَّاعمة، يحولها إلى أشلاء ذكرى، زمن الخوف زمن خطر، معبأ بهيبة المكان، ليست هيبة عادية، أنها الوَّحشة، التي تُشعلها دقات الساعة المتسارعة:

تِكْ، تُوكْ. تِكْ.. خطر، خطر، خطر..

يودع النَّهر ويتعجل العودة، يعود أدراجه، والشوق يتجمع بعنفوان الجُرح، لتذروه الرِّياح الغامضة، وبخطوات مرتبكة

متجرِّدة تخلو من الطمأنينة يعود.. تتلاشى الذِّكرى المستردة من التهاويم البعيدة، المستمدة من الفراغ..

بينه وبين الذكرى مدن شاحبة ضالة ومضللة.. ذكرى وليم في غابات كينيا والملايو وباندونج، ذكرى بيدبا وهي تصرخ تحت سحل مجنزرات الحكومة، أهي سُحلت حقا؟!.. ذكرى سلوى بنت الموظف الحزبي العتيق. تُرى أكُتِب عليه أن يسجل مواقف في الزَّمن الحُرَّاشي، وينبش بضنى في دواخله المضطربة، التي لاتسعها وحشة هذا الطريق الطويل المتسع، انحرف إلى درب أفضى به إلى درب آخر..

تراءت له المدرسة الثانوية من بعيد، أطلالاً جاثية على ركبتيها، لقد فعل الزمن بها فعله. عندما جاء إلى الشمال للمرَّةِ الأولى، سأل إحدى الفتيات في هذا المكان بالذات، قرب المدرسة:

"أين أجد منزل السيد أحمد ابراهيم لو سمحت؟"

"والد سلوى؟ بنت خالتي حوا؟"

وأشارت له نحو البيت، كان يعرف أنها سافرت في منحة دراسية، إلى شرق أوربا. ثمة شوق دفعه لمجالسة أحمد ابراهيم، بعد كل هذا الزَّمن الطويل الذي مضى. ثمة حنين جارف لم يقوى على مقاومته.

"أهو أنت لا نجور بشحمه ولحمه؟ لا نجور ذاته؟ وبعد كل هذه السنوات جئت تبحث عنا؟ يا لك من شاب أصيل"

كان أحمد ابراهيم يحدق فيه مذهولا، وهو يحاول في هذا الشاب الفارع أمامه، أن يسترد ذكرى ذلك الصّبِي الصغير. كان بعد لا يصدق عينيه، عندما جاء صوت حواء جاد الله فائضا بالرِّقة والعذوبة والحنان القديم ذاته كما عهدها..

كأن السنوات لم تمر والوقائع والاحداث لم تحدث، والمكان لم يتغير:

"أنه ولدنا. كيف ينسانا؟"

"عامل شنو يا إبني. وما الذي فعله بك الزمن؟"

"أنا بخير الحمدُلله"

.....

"انتقلت للدراسة هنا في وادي النحاس"

"وبعد التخرج؟"

"رُبما أسافر خارج البلاد الكبيرة، لا كمال دراستي العليا" "خير ما تفعل يا بني"

فعل الزَّمن فعله بالمدرسة القديمة، لم تعد هي ذات تلك المدرسة، أصبحت بقايا قلعة قديمة مسكونة، بالحنين الغابر والشجن المندثر، لا شئ ينبعث من أطلالها سوى الأسى واللوعة..

ضوء عربة يلوح مقتربا تجاهه، تبدأ ضربات قلبه في الإرتفاع مرَّةً أُخرَىٰ. يختفي خلف أحد الجدران المهدمة لمبنى دارس، وتمر الدورية دون أن تلمحه. يتنهد بارتياح ثم لا يلبث أن يركض، يسرع، يناديه عواء الكلاب الضالة من بعيد..

يصل متصاعد الانفاس، معبأً بهواجس الخوف المرعبة. حبات مطر هادىء دون مقدمات تنفعل على وجهه، فتسيل. تُهدئه قليلا. يتنسم فيض هواء الليل النقي، المندي بإحساس عميق بالراحة. يفتح الباب وخطوات سالم وهو ينصرف، لا تزال ترن في الجدار الداخلي لطبلةِ أُذنه.

الغرفة بذات إحساسها الشائك، المتكوِّم، المكتوم، تبعث في نفسه الأسى والإحباط.. ترى هل حضروا بعد خروجه ليلاً، أم لم يكتشفوا مُخبأه حتى الآن؟..

سالم قال أنهم سياتون في منتصف الليل كما أفادت (مصادر الحزب داخل جهاز الأمن).. تلمس جيب بنطاله في عفوِيّة، لامست أصابعه ورقة مثنية عدة ثنيات، فضها.. كانت آخر رسائل

وليم إليه، منذ سنوات عدة وهو يحتفظ بها كسر حميم. اكتشفها سالم ذات مرَّة فصرخ فيه:

"هذا يخالف قواعد التأمين"

والقى عليه محاضرة مُملة، في كيفية تفتيت الأجهزة الأمنية للقوى الثورية، وكيفية مواجهة المناضل للقمع، و الدور الذي يلعبه التأمين في حياة الكادر والحزب. فاجأه في خضم هذه المحاضرَّة بضرورة حفاظه على علاقة جيدة بوليم؟ كأن الأمر لا يتعدى إطار التوازنات، والواجهات الاجتماعية والترميز التضليلي، للحفاظ على قومية الحزب المزعومة، اكتشف لحظتها مدى تورطه في الآيديولوجيا..

تطلع في الرسالة وهو يفردها:

"الذين يموتون هنا. او يقتلون هم إمتداد عذاباتك، النازحون من جحيم الحرب، يحملون إليك عبء تحطم كِياناتهم، وتشردهم وتفككهم.. بأسى أتلقى أخبارك، كشيخ هرم عركته السنون وصقلته التجارب ومع ذلك ظل يدور حول نفسه، دون أن ينسى شيئا من مراراته، أو يتعلم منها شيئا، يضيء ظلمة عمره متسارع الانحسار..

بين الصحراء والجبل والغابة، وحيث تنهض الأمكنة في وادي النحاس، أحس بك الآن كذبابة في شبكة عنكبوت تصارع للافلات.. لم يعد همنا كما كان واحدا، فقد وصلنا إلى مفترق طرق. بالمناسبة كيف هي سلوى، أوصلت حبل الود القديم، أم لا زال مقطوعا. الجميع هنا بخير، أعني فصائل الرُّمح المقدس، لابسو جلد الفهد وقوى التحرير والمقاومة الأُخرَى، وكما تعلم أن (الخير) بالنسبة (للمحارب) يختلف!"

هكذا هو وليم، داخله غضب لا ينفد!...

***

كان مخبأ لانجور يقع في مسكن نائي، من الحجر والخشب، يبعد قليلا عن الأحياء السكنية في أطراف وادي النحاس، مرتبط بسلسلة متفرقة من البيوت الطينية الخالية، من الأسوار والنَّوافذ، والتي هي مرتعا لكل شيء:

الحشيش، الخمر، الجنس..

استلقى لانجور على السرير الوحيد بالغرفة، وهو يشعر بصداع عنيف، يهيمن على صدغيه ويعصر دماغه عصراً. أخذ يجتر وقائع هربه من مدينة لأُخرَى، وكل وقائع حياته المنصرِّمة والرَّاهنة، تمر أمام عينيه. كفيلم تسجيلي يخرج من إحدى الروايات القديمة.

يرى الآن نفسه في أي مكان، هو هنا المكان هو المكان، يرى نفسه يقوم بذات المهمة في الداخل، التي يقوم بها وليم في الخارج، كان كلاهما يبني تنظيماً مع اختلاف واحد: البناء العسكري لوليم، هذا البناء الذي جعله، لا يشغل نفسه كثيرا باسئلة ملحة، حارقة:

"كل ما يهمني هو أن يكون الإنتماء لهذه الأرض أصيلاً، ليس كالهويات العابرة. أنت مثلا هوية عابرة في الحزب (تمومة جرتق) كما في كلام العرب، بمعنى آخر أنت رجلهم عندنا.

"تعني أن وضعيتي شاذة وليست حقيقية؟!"

"كنت أُريدك أن تتعرف عليهم عن قُرب، وهم يمارسون هذه اللُعبة التي خربوا بها بيوتنا، لتتعرف على كيف يمارسون السياسة، وكيف يفكرون على هذا النحو الضيق. لكنك انغمست في الدور"

"ألا تثقون بي؟!"

"لما كانت لك صلة بنا. لو كنا لا نثق بك، ولما كشفنا لك كادر سري كتيم"

"هذا تناقض!"

"أنها السياسة فنحن لسنا مجرد محاربين فحسب"

"الحزب لا يعرف شيئاً عن تيم؟"

"وضعه ككادر سري يجعل حركته بيني في المنفى وبينك وبين الحزب سهلاً. كما تعلم أن تنظيمنا شيدناه داخل هذا الحزب، هذا الحزب الذي ظل يستخدمنا عند الحاجة، للتدليل على قوميته -زاعما أنه أُممي- ولاقناع قومنا بأنه يؤازرهم، لعبة الكسب الجماهيري كما تعلم"

"قد يشكون في؟"

"أكثر من الشك بك، أنهم بحاجة أشد إليك الآن. أكثر من أي وقت مضى، بعد أن أعلنا شق عصا الطاعة عليهم"

"لمحت لي أنك تعمل على عزل القائد العام؟ ما المغزى" "يجب أن يتصدى أحد لإعادة الأمور إلى نصابها، أنه أضعف من أن يقود قوات الرمح المقدس وقوى المقاومة الأُخرَى، أريد أن أوحد كل هذه الفصائل في حركة واحدة، ومؤكد أنني ساحتاجك فيما بعد، لذلك أسررت لك بهذا الأمر الخطير.. متى ستعود إلى وادي النحاس؟"

"بمجرد إنهاء تدريباتي العسكرية"

خيوط قديمة ممتدة على السقف، تراكمت عليها ذرَّات غبار جمدتها مياه المطر. كم هو مرهق هذا السقف عند هطول المطر، إذ تمتلئ كل الأوعية التي يملكها بالمياه، وهذه النَّافذة المرتعشة (التفت اليها).. بردها ورشق الماء، يحرمه الدفء والراحة..

نهض لانجور كالملسوع، وهو يطارد النَّاموس والبعوض، محركاً يديه يميناً ويساراً، متوتوراً بهذا الطنين الحاد، انسلخ عن السرير متكئًا على الجدار وفي عينيه الغائمتين صورَّة غامضة ترفض البوح، تجمدت أقصى قاع الجفن المرتعش، دون أن يتراءى له سوى الضباب!

***

بدت أشجار التيك والمهوقني، التي تحيط بملوط من بعيد موحشة، الأشجار تُغطي مدى الرؤية والجثث، أو ما تبقى منها أشلاء في كل مكان. ملوط هذه الغابة الكبيرَّة، التي تتخللها الربوات المتناثرة، والجبال والأرض التي ليس لخضرتها مثيل.

إرتكزت الوحدة على بعد خمسة عشر كيلو متراً من المدينة، تغطي جانبا من زوايا المتحرك، كان الصمت يخيم على المتحرك عندما هتف النقيب حاتم:

"الدراكتور كشف معسكراً للخوارج، مخفي على بعد عشرَّة كيلومترات، لتتحرك فصيلة التمشيط"

قال حاتم وهو يشير للعساكر الذين تحت إمرته، فقاطعه القائد مصراً على أن تشمل الفصيلة عدداً من أنصار الشيخ.

"لكن سيادتك خبراتهم وتجربتهم"

"نفذ التعليمات"

الهدوء الشاحب والسماء الملبدة وكل شيء يشير إلى أن ثمَّة معركة مرتقبة. لذلك كان الجميع متحفزون. أخذت أصوات الجنود تخفت تدريجياً منسحبة إلى عوالم من الصمت والصَّحو الداخلي، حيث تتخلل ذكرياتهم في مدن الشمال البعيدة لحظتهم الراهنة..

هكذا فجأة تم (اعتقالهم) من الشارع العام؛ وجمعهم في خيمة مقعية في قلب منطقة عسكرية خارج وادي النحاس، كان بعضهم لا يزال يحمل أكياس الخضار، لأطفاله الذين ينتظرون عودته بعد قليل مشرعين أفواههم التي يتآكلها هذا الإنتظار الذي سيطول، إلى أن يعرفوا أن عائلهم قد أُقتيد إلى معسكر التدريب العسكري، وبعضهم كان لا يزال يحمل روشتات الأدوية، التي ظن عند خروجه من بيته أنه سرعان ما سيحصل عليها ليسعف مرضاه، وبعضهم الآخر.

هكذا بسرعة كبيرة تم كل شيء فجأة، الجميع حوصر بأنصار الشِّيخ، الذين كانوا يشرعون أسلحتهم الاتوماتيكية القصيرة في وجوه الناس.

يتخلل صوت متوكل الخفيض هذا الصَّحو الداخلي. كأنه يُحادث نفسه:

"لا أُريد أن أموت الآن"

"لا أحد منا يريد الموت، هنا أما أنَ تقتل او تُقتل. ترفع سلاحك في كل الأحوال مضطراً، لاشيء يدفعك سوى الحفاظ على حياتك"

كان متوكل يهزّي وسُعود لا يزال يشعر بصدى الذخيرَّة، التي أطلقها المتحرك على المتمردين في الغارَّة الأخيرة، التي قُتل فيها عدد كبير من أنصار الشّيخ، لعدم التزامهم (بالنداء) وتخطيهم لحاجز الأمان، صدى الذَّخيرة.. كان لا يزال يطن في أذن سعود، التي شعر بها منكفئة على نفسها، يتخللها هذيان متوكل:

"لم أقتله، كان سيقتلني.. قتلته"

انتظم تنفس الجنود في خيامهم، والليل ينسحب مخلفاً وراءه مزيداً من الأحاسيس بالعُقم، ومزيجاً من شتات الذكريات والأسى..

انتشرت تباشير الفجر، تتخلل الأشجار التي تقف حاجزاً لامتداد الرؤية. بدت تفاصيل الرُّقعة الجغرافية تبين وتسيطر على الخاطر.. هنا العشق المخبأ في الرصاص، حيث لا يحلم الإنسان بالعودة أبدا..

كان تأخر الإمداد قد أثر على نصيب الفرد من الطعام تاثيراً مخيفاً، والدرب لا يزال وعراً والطريق ليست سالكة والأدلة ليست كافية. تقلصت وجبات الطعام إلى وجبة واحدة في اليوم وظلت -مع ذلك- (التعيينات) الرَّفاهية لأنصار الشيخ وحدهم؛ دوناً عن جنود المتحرك دون أن تتأثر.

بعد قليل سترتفع أصوات العُرفاء ووكلاءهم؛ بعد تلقيهم الأوامر من المساعدين والرُّقباء أوائل.. و.. الرؤيا، الزاوية، عدل الميلان.. وهكذا يبدأ تمشيط المنطقة لعدة كيلومترات وتحترق غابة أُخرىٰ فتتقدم الوحدة بحذر بعد مجيء إذن الاستكشاف.

يطل الاحتفال العنيف كطقوس الديانات المحلية الغابرة، فيتم تجريد القتلى في حالة من الزَّهو المحموم من أسلحتهم، وأشياؤهم الأُخرىٰ التي لها قيمة في هذا المكان (هنا، ثياب الإنسان وسلاحه وحذاءه أهم منه هو شخصيا)..

لم تمض سوى أيام قليلة؛ منذ أقلت الطائرة النقيب حاتم للإتيان بدعم في المؤن، فلم تلبث أن إنطلقت شائعة مفادها أن

(المتمردين) هاجموا وحدة دعم الإمدادات واقتنصوه وأنه بين القتلى..

هذه الشائعة جعلت أنصار الشيخ يقترون على أنفسهم قليلاً، ويطردون أي عسكري يزورهم في خيامهم. قبل أن يذهب النقيب حاتم بأيام قليلة، كان يتفرج في صورته مع طفليه وزوجته. كان قريبا من الجنود ويصر دائما على أن تمضي الأمور، طبقا للقواعد العسكرية دون تمييز، لا مثلما يريد أنصار الشيخ، ولأنه الوحيد الذي كان كثيراً ما يحطم تعليمات القائد فلا يأتمر بأوامر أنصار الشيخ، شاع بين الجنود الذين أحبوه، أن الذين اقتنصوه لم يكونوا خوارج وأحدثت هذه الشائعة بلبلة في صفوف المتحرك، إذ أخذ كثيرون يروجون لخيالهم (ربما ترتدي زوجة النقيب الأسود أو الأبيض الآن، إثر الإشارة العاجلة التي وصلتها، ربما تغسل طفلها الآن بدموعها، وهي تحتضن فيه زوجها القتيل حزنها) وبذل القائد وأنصار الشيخ جهداً كبيراً لاحتواء هذه الشائعة..

كانت أصوات الصُحون وهي ترتطم ببعضها، تعلو على أصوات الأحاديث المتناثرة بحكاياتها المتكرِّرَة، التي لا تثمر سوى المحاولات الفاشلة في قطع الوقت، الذي لا فائدة ترجى من قطعه هنا، على كل حال.. ففي هذه الأحراش لا قيمة للوقت أو الإنسان.

بعد قليل.. ربما تاتي اشارة تُفيد أن عناصر مهمة الاستخبارات، التي أُعطيت بالامس تعليماتها، قد دُمرَّت عن آخرها، ربما تأتي أشياء أُخرَىٰ كثيرَّة، تفتت ما تبقى من معنويات المتحرك المنخفضة!

تحت أشعة الشمس في مناطق العمليات، يستطيع أن يتبين الإنسان فداحة إحساسه بالأشياء، على نحوٍ واضح أكثر من أي وقتٍ مرَّ على حياته، رُبما هذا الإحساس هو ما دفعهم، لتجاذب الحديث العامر بالشجن والحنين، حيث يوظفون لغتهم العسكرِّية المُميزَّة في الحكي الأسيان، ربما يحاولون مقاومة الموت برثاء حالهم..

شد متوكل أنظارهم إلى طائر ضخم غريب. يُحلق في الفضاء، وتحت تأثير الترُقب والإنتظار الذي يحاصرهم به مناخ الحرب، فيجعلهم متحفزِّين وحساسين تجاه أي صوت أو حركة، تعلقت أنظارهم بالطائر، تفحصوه جيداً فتبينوا فيه نسراً لم يروا مثله من قبل، في صمتهم المعبر كانوا يتمنون داخلهم -جميعا- لو كانت لهم أجنحة للهروب بعيداً، بعيداً مثل هذا النَّسر.

الآن وهنا مَرَّةً أُخرَىٰ. هي أعماقهم المدجنَّة بالنَّهر والغابة تفيض، فيتضخم الإحساس بالعجز والحاجة الماسة للبول على كل شيء، والموت فوراً لإنهاء كل هذا العَذاب.

مدت الأسلحة أذرعها الأُخطبوطية، وتعالت الأصوات المشحونة بمخاوف الموت البطئ. والأفواه تتناقل آخر الأخبار:

"تم تقديمه لمحاكمة عسكرية وإحالته للمعاش. ألم تسمع؟"

"من؟"

"النقيب حاتم"

"لماذا؟"

"لأنه رفض تنفيذ أوامر أحد أنصار الشيخ"

"ربما قتلوه وأشاعوا قصة الإحالة للمعاش، لذَّر الرماد في العيون"

"رُبما" إنزلق سعود على الأرض الصخرية ذات النتوءات البارزة، حيث يتراكم على جسمه الآن كل ألم جديد، على الذي سبقه والذي يليه وتتخذ الأشياء كل الأشياء طعم العتمَّة.. تصبح سلمى محوراً لألمه الكثيف..

نهض سعود من انزلاقته مسرعا إثر تعالي صوت الصفارَّة، وتسارع أفراد الشرطة العسكرية وهم يهتفون:

"أجمَعْ. أجمَعْ. أجمَعْ"

ركض الجميع مسرعون، ليصطفوا في طوابيرهم ذات التشكيل الهندسي متداخل الأوتار، كان القائد يقف مرتكزاً على سلاحه بمرفقه، راسماً ملامح الجدية والصرَّامة:

"قوات الفيلق الثالث ذهبت لتؤمن الطريق إلى مدينة أخرَّى"
"لم يبق سوى القليل لتحقيق النَّصر الكامل والشامل، فلا تقلقوا بخصوص المؤن فهي في الطريق إلينا، و(ملوط) ستكون نصرنا الخامس (بإذن الله).. أننا نقاتل في سبيل رفع راية لا اله الا الله!"

***

كان متوكل منذ تم اختياره وسعود ضمن العملية (القصواء) أخذ يشعر بدنو نهايته، ويبذل جهداً خرافياً لإخفاء حقيقة شعوره بالخوف:

"هل سنهاجم معسكر الخوارج مباشرة؟"

"لا تقلق يا متوكل، ستعرف كل شيء في حينه"

قال سعود وهو يغالب النُّعاس. كانت الشمس في كبد السماء، وهي تسعى لجر أزيالها حثيثا لتتجاوز إلى الأُفق المائل على صفحة السماء المقابلة فاستسلم سعود لسلطان النوم..

تراءى له في أُفق الحلم (الكابوس) النَّسر وهو يسقط من مدى الظن في فضاء الأثير برصاصة مجهولة..

تراءى له النقيب حاتم وهو يتلقى طعنة سونكي مجهول الهوية من الخلف.. رآه يسقط ملطخاً في دمائه، وعناصر المتحرك يشتبكون مع بعضهم البعض!.. كان حلما متداخلاً، متقطعاً، لم يستطع سعود تذكر تفاصيله المعقدة عندما استيقظ عصراً، ونظر حوله في الخيمة فرأى رفاقه مسجيين على الأرض القردود، يغطون في نوم عميق أريك، كوه، أوهاج، أبكر، متوكل وعادل!

سمع صوت عربة خارج الخيمَّة تنهنه كالكلب، فحدث نفسه لابد أن أدروب أدرك أنهم نائمون فقرر ازعاجهم. وقتها كان حضرَّة الصول يتلقى تعليماته الأخيرة بشأن العملية القصوَّاء..

مع تلاشي آخر إطلالة مغرِّبية، ودخول الليل فاتحا ذراعيه لاحتضان كل شيء. تجمعوا. كان الليل طويلا وحزيناً وموحشاً، تتخلل ظلمته كل شيء: الصخُور المتنَّاثرة، الخيام المتفرِّقة حتى الأشجار بَدَّت كأشباح لحيوانات رَهيبة يعود عهدها إلى ما قبل التاريخ، إنغلق الظلام على الوقع المكتوم لخطوات عناصر القصوَّاء الرتيبة وهي تدق على الأرض المعشوشبة في إنتظام خافت.

بدوا في ثيابهم الخضراء غير مرئيين، جزء من طبيعة المكان المغلف بالظلمة والأشجار كان النّداء وشفرَّة التحرك قد أعلنا شروع عناصر القصوَّاء في المجهول.. رُغم أن العملية تبدو مستحيلة، إلا أن لا شيء اسمه مستحيل هنا..

التعلمجي القميء: كان دوماً يصرخ في وجوههم بعبارته الانجليزية الوحيدَّة التي يحفظها -ويحفظها خطأ- (لا مستحيل وأنتم الشمس) لم يكن هناك ثمَّة من يستطيع تصحيحه، فذاك يعني أن أبوابِ الجحيم قد فتحت عليك، إذ لا يعقل أن تكون قادراً على الفهم أفضل منه، فهو تعلمجي. كما أن القاعدة الذهبية أن (من هو أقدم منك بساعة يعرف أكثر منك بسنة) وأكثر شجاعة ورجولة أيضاً..

انطلق صوت المساعد من الجهاز:

"الأرقم يتكلم، تأمن سيركم"

"نحن في الطريق"

"إنتهى عندك"

أعترى صوت أريك شيء من التردد فهتف المساعد على الجهاز:

"الهدهد يتكلم، ماذا هناك؟"

حسم أريك أمره بعد بُرهة:

"لا شيء سيادتك. انتهى"

وتقدم أفراد القصوَّاء بهدوء مشدودي الأعصاب والمسامع. هنا تصبح للحواس حساسية فائقة، تصبح كلها فائقة الرَّهافة.

كان الهدف يتضائل، لم يتبق كثيراً فجأة اخترق صمت الليل المشوب بالترقب والحذر، صوت طلقات كلاش انبطحوا جميعاً على الأرض.

حاول سُعود أن يرد باتجاه الطلقات، فلم يستطع تحديد اتجاهها بدقة. ثمَّة ألم شديد يتصاعد من جسمه. أخذ يُطلق النَّار في كل اتجاه بلا هَوادة وهو ينسحب ليحتمي خلف أي شيء يجده.

تشبثت أصابعه بنتوء صخرِّي متسع، تحسسه وجده يؤدي إلى غور ضيق. احتمى به وهو يشعر بالقلق، وهو يكرر في دخيلته:

"لقد حوصرنا تماماً تحسس جرحه بأصابعه، كان قد أُصيب في كتفه. مزَّق كُم البدلة مغالباً إحساسه بالألم. ضمد الجرح وربطه. أدنى الزَّمزمِيَّة من فمه. شرب جُرعة بلَّت ريقه، ثم لبث لفترة متقوقعا على نفسه.

برغم الألم انشغل باله على رفاقه، بخاصة متوكل صديق عمره. فكر قليلاً وسيل من الرصاص لا يزال ينهمر حوله، خرج من مكمنِه زحف في الاتجاه المعاكس للغَّور.

على مشارف الفجر سكتت أصوَّات الذَّخيرَّة فجأة، مثلما انطلقت فجأة. وخيَّم الصمت الملبد بالحذر على كل شيء.. سمع صوت أنين متقطع على مبعدة خطوات منه، زحف بهدؤ، كان الوكيل عريف أريك مصاباً برصاصة. فتت ساعده والعرق يهطل غزيراً من جسمه، ومسامات وجهه الأبنوسي تنضح بالألم..

شعر سُعود بدفق من الحزن لأجله، يملأ جانبي الغَّور الصخرّي الممتد الذي خلفه وراءه.. كان متعباً لا يقوى حتى على التألم.. نزف هو الآخر كثيراً كأريك، وظهره قد تهرأ تماماً. إنكفا قربه وهو يشعر برأسه يدور في الفراغ..

حين أفاق أفراد القصوَّاء، وجدوا أنفسهم في المعسكر..

كان متوكل بقربه قد تهلل وجهه بفرح طفولي، عندما رآه يفتح عينيه. قالت الابتسامة الحانية في عينيه ما لا تستطيع كل كلمات الدنيا التعبير عنه. أحس سُعود بقلب متوكل يسعه، يغطي ظهره المتهرئ ويملأ فضاءات الخيمَّة، ويسع كل هؤلاء المعذبين بجبروت الحرب.. سأل وهو يتأوه بشدة:

"كيف حال أريك؟"

"الجميع بخير. عدا كوَّة. ليرحمه الله"

"كان كمينا"

"ولكنه فشل، لا زلنا أحياء.. لوتقدمنا أكثر لكنا جميعا جوار كوَّه الآن"

"كيف وصلنا إلى المعسكر؟"

"أنقذنا متحرك إمداد متوجه إلى توريت، الصدفة وحدها أنقذتنا، كان من الممكن أيضاً أن يفتح المتحرك النار علينا" ملأ الاحساس بالفقد دواخل سُعود. فتصلبت عيناه على سقف الخيمَّة المتقوس، ولاذ بالصمت تماما"

***

بدى مصنع سكر ملوط الضخم: خرائب هشمتها القاذفات، كغيرِه من الأشياء على هذه الأرض الخالية من السكان، والتي كانت مخضرَّة ذات يوم، ومأهولة بالحيوانات الأليفة والبرية. الآن لا شيء في هذا المكان الواسع، سوى الألغام التي زُرعت بخبثٍ ودهاء في تماكن يصعب تصورُّها، لذلك الجنود رغم حركتهم الحذرة وأعصابهم المشدودَّة، يشعرون هنا أنهم بين قاب قوسين

أو أدنى من الموت. لاشيء يستطيع اقناعهم بعكس ذلك، لا إيمانهم -الذي يصبح عميقاً في مثل هذه الأماكن، التي تشحنها طبيعة الأمكنة المماثلة بالتوجس والمخاوف- ولا جهود المهندسون وخبراءِ الألغام، الذين كانوا منشغلين بصنع طُرقات من الطوب المتراَّص، ليسير عليها العساكر، والنَّاس الذين بدأوا يتوافدون.

كان المتمردون قد انسحبوا عن هذه المدينة، بعد أن لغموا كل شيء. وكانت طُرقات الطوب الوَّاقية التي شيدها المهندسون والخبراء -إن وُجدت- تُسهم كثيراً في أن يشعر الجميع بقليلٍ من الطمأنينة، لكن بعد قدوم اللواء الأول، الذي تخلَّف سابقاً بعد أن صدرت له الأوامر بالعودة إلى فيوار، إزدحمت الطَرقات، وأصبح المسير إلى النيل الذي ازدحم هو الآخر، أمراً صعباً دونه مخاوف الألغام والموت المفاجيء.

ملوط هي الأرض الخصبة، أرض البن والشاي والتوابل، الممتدة بلا نهاية، حتى الأراضي الصالحة لزراعة قصب السكر الفريد في طعمه وحجمه، الذي اشتهرت به المنطقة في أقاصيها ودَوانيها..

هتف متوكل من على جهاز الدراكتور:

"الخوارج. الخوارج."

لكن صدرَّت الأوامر بعدم التعرض لهم، خشية أن تتعرض حامية ملوط، التي لا يتعدى عدد جنودها السبعون. لغارَّة انتقامية بعد رحيل اللواء الأول، الذي كان لا يزال منشغلاً بنزعِ الألغام عن أراضي المصنع الذي توقف عن العمل منذ سنوات طويلة، بينما كان اللواء الثاني يتهيأ وقتها للرَّحيل، في خاطره ملكال التي لا يزال الطريق إليها طويلاً وشاقاً ومحفوفاً بمخاطر لا أول لها ولا آخر.

كانت المعالم تمر أمام اللواء الثاني واحدةً تلو أخرَّى:

خور مشَّك، خور عدار، كنيسة واو شُلُك، كنيسة لول ماكال شُلُك.. إلى أن ارتكز عند الغروب، هذا الغروب الفريد الذي لا تجده إلا هنا، فالشمس لا تغرب كعادتها غربا، كل من يمتلك بوصلة وجدها تغرب شرقا!

لامس هذا الغروب الغريب الاحساسات الايمانية الدفينة، والمعتقدات الرَّاسخة في الوجدان، فزادت حدَّة التوتر بين صفوف الجيش الموتور، إلا أن الطبيعة الساحرَّة للمكان. شيئاً فشيئاً أخذت تسحب الجميع إلى ملكوتها رغم رائحة الموت والمخاوف.. كان الطقس ربيعيا ساحراً بسحبه المترَّاكمة على شُرفة المساء.

عند وصول المتحرك أخيراً إلى ملكال، تم استقباله باحتفال كبير، جاشت فيه النفوس بكل ما تختزنه، من مشاعر مختلطة ومتناقضة.. وفي غمرَّة هذا الاستقبال الحاشد هطلت الأمطار الغزيرة دون سابق إنذار، فتوزع الجميع على الأماكن المتاحة:

الوحدة 318 إلى المدرسة الثانوية بنات حي البَطري، الكتيبة 159 حي دنقر شفَّة والكتيبة 243 الثانوية بنات حي ثورَّة الجلابة والكتيبة 156 حي الرَّي المصري والكتيبة 161 مدرسة الشاطيء الابتدائية بنين. فيما توزعت وحدات الدعم على رئاسة الفرقة في حي الواكات..

هُنا عندما يهطل المطر الغزير، يفقد الوقت معناه فالليل والنَّهار سواء حيث الموت إما بين فكاك الحيوانات المفترسة، التي لا تخلو منها الغابات، أو على أيدي الخوارج النجاة من الموت -ذاتها- تعني الحرب.

من الصعب العثور على حبة ذرَّة في ملكال، فالذرَّة أغلا من الذهب، خاصة إذا كانت غير مطحونة، فهي تدخل في صناعة الغذاء الرئيسي (المريسة)..

ملكال هي مدينة تنتظر الموت، وقد ادمنت هذا الإنتظار حتى لم يعد يعني لها شيئاً فكلما طال انتظارها كلما ابتكرت طقوسا

لمقاومة الملل.. فكل شيء هنا موسوم بالطقوس، التي مثل نقش سِري -رَصد- يُشعل في النفس حميميتها وفي المشاعر دفئها كاشفا لك عن ملكالين لا ملكالاً واحدة، يعبر بك الجسر بينهما لينقلك من عالم إلى عالم آخر:

عالم لغته الحرب والبارود والفقر والجهل والمرض وانتظار الموت، وعالم آخر شفيف متقوقع داخله، كأنه قمقم يحتوي هذا العالم الشفيف، الذي تحسه في نُبل الحزن وصدق المشاعر، واليأس والأمل المتصرِّمين إلى رجاء.. هذا العالم الذي تعبر إليه الجسر، تحمله إليك الأُغنيات بلُغة الشلك التي تنداح في كل مكان!

هذه الأُغنيات العاطفية الحزينة المشوبة بمعاني القوة، والمشبعة بقيم الامتلاك والمشوبة بالحس الرومانسي الرفيع. تتوغل أغان المحاربين. فتحولهم إلى قطط محمومة، تخدش باظافرها صدور العذارَى الناهدات، ليجيء الى هذا العالم المزيد من الخِلاسيين الهجين مفصلاً حارقاً في علاقة المكان بالنَّاس..

الخوف من الموت يجعل المقاتل يندفع. مستغرقا في الجنس والحشيش، بحثا عن توازنه النفسي، في هذه القتامة التي تحاصره من كل اتجاه: مزيج غريب من الوقائع والمشاعر المتناقضة، في العالمين!

ترآت له في أُفق الحلُم نقطة ضئيلة، تجسدت بين أحلام لم تُثمر وبدايات لم تنته. نقطة مشتعلة، لا يكاد يلمسها حتى تذوب في أُفق الحلم العنيف. الذي تبنته دواخله قسراً منذ الطفولة على يد الرَّث باناو والمندكورو، وأخذ يكبر معه ويكبر إلى أن أخذت (نضالات) الرفاق. تقرب الحلم أكثر فأكثر. في ذات الوقت الذي أخذ هو. يبتعد كثيراً عن أُفق الحلم..

تلقى لانجور لسعة بعوضة لئيمة، على عنقه النحيل، استردته إلى محيط الحلم.. في المعتقل كان لا يبالي بالليالي الطوال، حالما بتتويج ثورته إلى حوار، تصيب عدواه الجميع فيبني منهم منظمة:

منظمة من المعتقلين والمساجين، العُزَّل إلا من أحلامهم المؤودة. مسح لانجور بكُم قميصه العرق المتصبب، من وجهه المتغضن بالندوب التي تكوَّر عليها النَّمَش. خلع القميص. أشعل بقايا شمعة وانتظر انحسار الضوء الخافت بصمت.. الآن لا يحس فرقا البتة بينه هنا وهناك عندما كان في المعتقل. سوى أنه كان هناك قد استطاع أن يصنع من الجُثث المتعفنة شيئا.

تلك الجُثث التي حُرمت الشمس والهواء النَّقي ففقدت الإحساس بالزمان والمكان، وامتد أمامها العمر لوعة وحسرَّة.. استطاع ان يصنع من هذه الجثث (مناضلين) كما ظل يعتقد لوقت طويل، دون أن يدري أنه قد وقع أسير ظن خائب!

ابتسم بمرارَّة وارتدى قميصه مع تداعيات الشمعة، التي شارفت على الإنطفاء، وخرج يطوف في حنايا الليل، يتنسم هواء لم تلوثه الشجون/السجون..

***

لم يَلحظ لانجور تلك العربة اللاندكروزر المتحفزة عند المنحنى.. ابتعد وابتلعه الدَّرب المتعرج بشغف رديء..

من الدرب المقابل كانت تنتصب عينان تترقبان بتوفز وقلق الأجساد الشبحية التي انزلقت من العربة اللاندكروزر، لم تلحظ لانجور وهو يغيب في تعرُجات الدَّرب.

كانت عينا سالم لا تزالان متحفزتان، على الدَّرب المقابل، تحملان من الخوف أكثر مما تحملان من أي إحساس آخر.. تابع سالم لانجور بنظراتٍ مرتعشة، وهو يُراقب من مكمنه العربة اللاندكروزر المتسحبة إلى المنحنى، لتأخذ وضع الاختباء..

"يبدو أنهم دخلوا مسكن لانجور وفتشوه، وآثروا الانتظار"

عبر لانجور الشارع الثالث المظلم وانحرف إلى اليسار، كان يعرف الطريق جيداً إلى منزل سلوى القديم، برغم مرور السنوات على تلك الزِّيارة الأولى والأخيرة!

كان يعلم أن لا جدوى من ذلك وهو يتلمس عنوانها الجديد في كفه. السنوات التي غابها، لم تمح من ذاكرته شيئا. تلمس لانجور شعر رأسه الذي تخللت فحمته شعيرات بيضاء متناثرة، ماراً بقرعته الشبيهة بزوايا مثلث متصلة، تحتوي مقدمة الرأس واليافوخ..

انحرفت نظارته الطبية الصغيرَّة عن وضعيتها قليلاً، أصلح من وضع السلسلة الذهبية المتدلية على عنقه والمتصلة بالنظارَّة، حركها قليلاً وهو يقول في نفسه (حبل مشنقة). شبح ابتسامة ضئيلة ظل محافظاً على ارتِسامته.

تُرى كيف هي سلوى بعد كل هذه السنوات؟ عبر الطريق كأنه غادره بالأمسِ فقط، ذاكرته لا تزال تحتفظ بمعالم هذه البلدة الشاحبة، طافت نظراته بمعالم الحي، الذي كانت سلوى تقطنه ذات يوم بعيد..

كانت تحكي له عن طفولتها هنا، تلك الطفولة التي خلفتها وراءها ورحلت.. تحكي له عن سُعود ومتوكل وسلمى. أصدقائها في تلك الطفولة البعيدة. فيما يقفز اليمَّاني على وجه الخصوص إلى خاطره، كجزء حميم من عالم هؤلاء الأصدقاء..

ذلك الرجل النحيل صاحب الطاحونة بجلبابه الدمورية، الذي لا يغيره أبداً.. تحكي عنه سلوى وهو يطاردها مع الصبية، عندما يكتشف سرقتهم لحفنات الذرَّة التي يغرون بها العصافير ليصطادونها.. يصرخ فيها:

"اقيفي يا بنت الغلفاء"

وتطاردها هذه الشتيمة بينما يتوقف عن الركض. ولا تلبث أن تنسى كل شيء عندما تبدأ العصافير تتساقط في الشِّرَّاك والفخاخ المغشوشة بحبات الذرة..

"لقد كنت (ضكَّرية) في طفولتك يا سلوى، كما يقول عم أحمد ابراهيم"

فترنو إليه بحنان وتهمس:

"اتعتقد ذلك حقاً يا لانجور؟"

عاوده الصداع العنيف، تعثر كادت قدماه تنزلقان إلى بركة ماءٍ واسعة. على شفة الطريق. حرك قدميه قليلاً. وصدره يعلو ويهبط في انتظام.. دقات قلبه المتسارعة المنتظمَّة، تخفت شيئا فشيئا، وإحساسه بالذنب تجاه باناو والعشيرَّة يرهقه.. يحتويه الإحساس بالخوف والحذر.. هذه الدوَّامة اللعينة، لعبة القط والفار عسكر وحرامية، شليل وين راح.

هاجمته أسراب النَّمل، متغلغلة في أعماقه، تلتهمها بشغف ردئ، لا تدع في أحشائه مكاناً دون أن تنهشه، أو تُفرغ سُمَّها فيه..

في البداية كانت ثَمَّة قسوَّة عليه، زفر زفرَةً حارة والأحاسيس العميقة الدَّاهمة تتسلل إليه من الماضي البعيد.

***

هي ملكال بواقعها العار من كل زيف. الأطفال مشردون، الجوع والفقر والمرض كائنات حية تمشي على الطرقات، الأجساد عارية لصعوبة الحصول على القماش، لا شيء يُغطي الأعضاء سوى قطع صغيرَّة.

الاحساس بوطأةِ الحرب والافتقار للأمان. و التفكك العام الذي يعتري كل شيء، حيث لا ملاذ سوى الحنين.. الحنين إلى جُرعةِ ماء، بعد عمل الحقل القاس.. الحنين إلى الجنس المشوَّب بأقصى حدود التبريح! إثر نزوة طارئة، على فراش القش..

الحياة غريبة غُربة الغابات والانسان الأول. فالاطفال المشردون، يحصلون على قوتهم بغسل ملابس الجنود في معسكرات الجيش، وربما يعملون في غسل الجراح أيضاً.. أنها الحرب ليس ثمة تفكير في المدارس، والحصة الصباحية ودرس

العصر والمصروف اليومي. ربما ثمَّة تفكير بهروبهم إلى معسكرات الرُّمح المقدس، لينشأوا كالانكشاريين، أبناء للجندية في معسكرات اوغندا وكينيا وليبيا.

الحرب هي التوتر والحزن الطويل الممتد إلى ما لا نهاية. سأل سُعود أحد الأطفال المنهمكين في كنس أرضية العنبر:

"ماذا تفعلون لمن يموت؟"

فرد أحد العساكر من ذات قبيلة الصبي، كما تشير نفس الشلوخ التي على وجهيهما:

"أهلنا هنا بيمسحوه بفضلات البهايم، لطرد الأرواح الشرِّيرة"

كان متوكل لا يسمع رداً على سؤال حتى يتبعه بآخر. ودهشته تتسع، كأنه يكتشف جهله ببلاده الكبيرة الآن فحسب، أضاف العسكري مؤكدا:

"أننا نؤمن بما نؤمن به اليوم، ونسلك على نحو ما نسلك الآن بسبب ما قاله أو فعله أجدادنا منذ قرون عديدة. وأنتم كذلك في الشمال تفعلون على النحو الذي أراده أسلافكم"

ما أن اقتربت الساعة من الثالثة ظهراً. حتى تقاطر الأهالي والجنود، على حي الري المصري حيث كانت فرقة (الثور) للفنون

الشعبية الخاصة بالمورلي، والتي تكونت في هذا الوقت بالذات. لبعث السرور والبهجة في المتحرك -تقدم عرضها الأول.

جلس متوكل بالقرب من سُعود. الذي بدى مشدوداً إلى الرقصات العنيفة الصاخبة، التي تشبه طقوس الديانات المحلية القديمة، كان الراقصون قد تزينوا بالريش، والراقصات تدلت من أعناقهن التمائم ذات المخالب البيضاء، وعقود الخرَّز الملون.. وهن يدقن على الأرض بايقاع منتظم، يُشكل هارموني موحد مع انتظام دقات الراقصين الذّكور، فتتثنى أجسادهن وتعتدل، لتلامس الأجساد بعضها البعض..

تكاد رؤوسهن في انحناءاتها المفاجئة تلامس أنفاذ الرجال، لكن لا تلبث أن تعتدل، وتبدو كأنها تهم بعناق وقُبل، فيهز الراقصون بحرابهم القصيرة كأنهم يتهيئون لقذفها على هدف ما..

ثمَّة راقصة مميزَّة لفتت انتباه متوكل، وتركت في نفسه انطباعا قوياً بايقاعها الرشيق، وجسمها ذي الملامح الحادة. انتهى العرض وسُعود لا يزال مهوماً في سمائه دون أن ينتبه لمقعد متوكل الشاغر جواره..

كان متوكل قد مضى يلاحق تلك الراقصة المميزَّة.. فيما لم يتمكن سُعود من استرداد نفسه، إلا بعد أن بدأ المطر في الهطول!

النَّاس أم المكان؟..

الناس أم.. الطرق والدروب كما هي المساكن الحقيرَّة عند منحنيات الدروب المتعرجة.. النَّهر الأطلال. الزَّمن يهزم كل شئ.. لكن، الناس أم المكان..

ذاك هو طلل من مسكن سلوى القديم، بقالة الحلبي، طاحونة اليمَّاني.. هذه البلدة شهدت طفولتها الباكرة قبل أن ينُقل والدها إلى بابنوسة فالجنوب.. صارت أطلالاً محاصرة بالنباتات المتسلقة، والشجيرات الانتهازية والبنايات الطفيلية المتعالية..

هُنا في هذه الزَّاوية ذات الأغصان المتكاثفة، كانت تلعب مع أقرانها وهم ينصبون الشراك المغشوشة بحبات الذُّرَّة المسروقة. من طاحونة اليمني. يتذكر الآن حكاياتها عن نفسها وذكرياتها بأمكنتها ومعالمها كأنه عاشها معها. قال لها ذات مرَّة وهما يتمشيان على شاطيء النَّهر والكانو تتراءى لهما من البعيد، في قلب اللُّجَة:

"هُنا نتسامر أنا ووليم أحياناً.. أنه مكاننا المفضل"

وأشار إلى قباب الأسلاف، التي تنتصب بين الساحل والمدرسة الوسطى، فحملت حفنة من رمل المكان الذي عينه لها، وعقدته بطرف طرحتها، وهي تقول ساحتفظ به على الدوام،

لاستحضرك فيه أينما كنت كالتبُوسا، وابتلعها الطريق وهي تبتعد. لتخلفه وراءها محض حنين إليها.

مضى يشق الدُروب لا يلوي على شيء، يحس بحالة إستلابٍ كُلي، تسلبه بعيدا عنها – كان ذاك فيما مضى. كتابات وليم إليه..

"غنى المغنون للوحدة الوطنية، ثمَّة رشاوىٰ عاطفية.. وادي النحاس لا يريد أن يتفهم قضيتنا، لقد تخلى (سانو) عن شكله القديم، ولم تعد الأنيانيا هي الأنيانيا. أنها هموم وهواجس القوَّى الجديدة. لكن يظل السؤال:

كيف نُعمق المكونات العقلانية في حياتنا التي تكاتفت على قمعها، قِوَّى التخلف والخرَّافة والظلام.. ليس ثمَّة شعب منبت الجذور، هذا ما لا يريدون فهمه وهو سؤال آخر..

من الصعب الآن أن يتغنى (وردي) و(صلاح) مرَّةً أُخرَّىٰ مثلما في أيام (الزهرة الساحرة) في 1972.. للأسف نمضي جميعا الآن، إلى حيث يصعب التراجع أو يستحيل، فاختر طريقك حيث أنتهيت، أنت الآن النَّار مجمرّة اللهب، أو الغضب كما يتغنى أبوحازم في شمال الشمال!

***

ملكال لا تزال تنتظر توقف الأمطار. ليرحل المتحرك، وكلها تحفز لتحرك اللواء كربوس من ميناء كوستي بالجرارَّات والتموين والتعيينات والاسبيرات والذَّخيرة.. عندما تمكن كربوس أخيراً بعد طول انتظار من الوصول، أُعيد فورا تشكيل القوات من جديد، فتحركت هذه المرَّة باسم: (الفهد) بعد أن انقسمت إلى ثلاث محاور: محور الحجاج الثقفي، محور الشهيد إبن أبيه ومحور سيد الشهداء أبولهب. وتحرك اللواء الأول من ملكال، إلى جهة غير معلومة!

كانت الحِدَّة في كتابات وليم تزداد يوماً بعد يوم، تُثير في نفسه إحساس ضبابي الملامح:

"للاسف اجتهدنا أن نكون أسوأ الافارقة، نخيبنا ظنهم فينا.. كانوا يتطلعون إلى أن نقودهم لأننا الأفضل -هكذا اعتقدو- لكن اتضح أننا أسوأ العرب، لم تعني لنا الرِّيادة في افريقيا شيئاً، بقدر حرصنا على التبعية إلى العرب الذين لطالما استغلونا.. أنا لا أتحدث كجنوبسوداني بل كابن لهذه البلاد الكبيرة، وكجنوبسوداني أتساءل: ما هي علاقتنا نحن باشواق العروبيين والاسلامويين؟..

خرجنا من الصدمة التي أذهلتنا وأوقفت تيار الحياة فينا لوقت طويل، الصدمة في الوطن لهي اسوأ شئ يمكن أن تمر به..

هذا الوطن الطمبور، هذا الوطن الاوركسترا الأُمدرماني، هذا الوطن الجلابية بيضاء مكوية، لا إيقاعٍ آخر غير ما تم فرضه، ولا هوية أخرى غير ماتم التواطؤ لصنعها بالقوة، أن جوزيف أودهو عندما خرج إلى المنفى في 1958 كان ذا بصيرة نافذة، كاني أراه الآن قد ندم على العودة إلى أديس أبابا في 1972 إذ لم تتمخض الاتفاقية سوى عن قبض الريح..

لا حقوق إنسان، لا حكومة دستورية تخضع لمجلس نيابي، لا سيادة للقانون.. إذن عماذا تمخضت 1972: محض طبقة حاكمة في الجنوب هي نسخة تكاد تكون مماثلة للطبقة الحاكمة في الشمال. لاشيء تحقق البتة، وكان ذاك هو السبب الجوهري لعودته إلى الغابة مرَّة أُخرىٰ وإلى المنفى إلى أن غادر الحيَّاة..

الغابة يا لانجور هي أُمُنا حيث نتمثل الطبيعة كما علمنا الأسلاف"

رفع لانجور رأسه بحدة إثر سماعه قرقعة مفاجئة، لإطار عجلة ينفجر ممزقاً غشاء أفكاره المبلبلة. تنهد وهو يحاول استجماع نفسه مرَّةً أُخرىٰ لدى حضور وليم سراً إلى وادي النِّحاس، من كينيا عن طريق القاهرَّة في واحدة من مهامه السرية.

لم يكن يعلم بأنه كان موجوداً هُنا إلا بعد أن عاد إلى كينيا مرَّةً أُخرَى. كانوا قد أخفوا عنه كل شئ، ولكن سلموه الخطاب الذي تركه له وليم وراءه قُبيل مغادرته. كان خطابا آسياً..

"ركبت الطائرة. ربطت الحزام، طافت ذاكرتي في ذكريات الأحراش وكوبا ليبيا وإسرائيل. كنت باستمرار اتلهف وأنا أُدير مؤشر الراديو لسماع صوت بلادي. أبحث عن أُمدُرمان. أنه الحنين يا لانجور.. الحنين إلى الأب جوزيف وأبدوك. الحنين والحزن الأبدي.

وأنا في الطائرة كنت أتذكر ذلك، فوادي النحاس مجهول لدي. أرض لم أرها أبداً. ناس لا أعرفهم. عانقني تساؤل ممض. كأني لا أصدق. يا بلادي، يا بلادي حيث أنت والفرح القديم نقيضين. ومع ذلك يبقى الوطن كائناً جميلاً عندما نحسه كوطن، ونُحاول التعرُّف إليه عن قُرب. أنظر إلى الساعة: عشرة دقائق وأصل، عشرة دقائق وأعرف من مياه المقرن لأنسى الغربة والحرمان. لانسى عذاباتي.

كان ذلك يشغلني أكثر من المهمة التي أتيت لأجلها أصلا.. دقيقة، دقيقتان.. وتساؤلات تتسلل حُجُب الذَّاكرة، هل النَّاس هُنا بقلبِ باناو وحكمته، بدفءِ سلوى وجمالها.. أم الكبت

والارهاب وآيديولوجيا وادي النحاس، شكلَّت النَّاس على حيثياتها ومنطقها؟!..

وأحل الحزام على صوت المضيفة وهي تُعلن الوصول. انتفض لوهلة. يصدمني موظفي المطار يحرقون الوطن الذي جئت أحمله بداخلي، يدعمون كل ما عرفته من التاريخ والحكايا، فيذهب المندكور كالزبد جفاءً. ينتزعني موظف المطار الملتحي بقسوَّة من خواطري:

"ماذا بداخل هذه الحقيبة؟!"

"طماطم.. إهي، هي.. هي-"

"تأدب أيها ال-"

يحرموننا حتى المداعبة يا صديقي..

"افتحها أنه عملك"

بضيق ونظرات صارمة تبعث على الغم، نثر ما بداخل الحقيبة..

"ما هذا؟"

"هدايا للأصدقاء وسجائر لي. هل لك في سيجارة"

قُلت بتهذيب وأنا أتناول عُلبة سجائر مارلبورو أمريكية، فضضت الغّلاف برشاقة، تناولت سيجارة، أشعلتها بقداحتي ومددتها مع العُلبة..

"تفضل-"

طوَّقني بنظراته كأنه يرثى لحالي، وسذاجتي الطفولية.. قال بهزء:

"انت تعلم أن البلد تمر بتحديات كبيرَّة وخطيرَّة"

"ربنا يكتب سلامتها"

"الطوائف وحكومات الاسياد.. و-"

قلت مقاطعاً:

"ربنا يوفقكم لما فيه الخير لكن لماذا هذه المقدمات الطويلة؟"

"لكي تتبرع (حضرتك) لصندوق دعم الدعوة"

همهمت:

"أنا لست مسلماً"

"كلها أديان.. أنه تبرع إلزامي شئت أم أبيت"

"هل هناك شيء آخر؟"

"نعم، جمارك هذه الأشياء التي تقول عنها أنها هدايا"

"هل تجمركون حتى الهدايا التافهة"

"اسكت"

"خذوها. خذوها. لا أُريدها"

كانت هدايا لك ولسلوى ولعم أحمد إبراهيم وزوجته حواء جاد الله وسالم. لكنهم أخذوا كل شيء. ندمت على مجيئي بهذه الطريقة المتخفيَّة، غير الرَّسمية في هذه المهمة، مهمة مفاجأتهم للتمهيد لمفاوضات سرية.

لأول مَرَّة أرَّى وطني وأراه بهذا الشكل.. هذا وطن غريب!.. لقد أكدت الطريقة التي قصدت أن آتي بها لاراه دون زيف، أكدت غرابته وغربته عن مواطنيه!

***

عندما تحرك من ملكال، قطع اللواء الأول مسافة أسبوع كامل سيراً على الأقدام، حتى ارتكز عند غابة كرش الفيل. كان الوقت مساء، والساعة تقترب من السابعة، والمؤن تكاد تنفد والجميع جوعى، ومتوكل الذي يقف تحت شجرَّة تيك كان قد سمع فجأة ثُغاء ضأن كما توهم -ولمح في الظلام شيئا يتحرك فركض خلفه..

طارده بشراسة إلى أن لحق به وقبض عليه ليتفاجأ أنه مجرد كلب فار في ذُعر وارتياع من هذا الذي يطارده باستماتة وإصرار.

رجع متوكل يُجرجِر أزيال الخيبة وهو آسف، لكن لم يفت ذلك في عضده، إذ سرق واحدة من الكجامات الكبيرَّة ونصبها في قلب الغابة.. و.. في الصباح ذهب ليرى ما اصطادته، فوجدها قد امسكت (بمرفِعين) فعاد يُنادي على سعُود.

كانت هذه الغابة ملأى بالغُزلان والحيوانات البرّيَة ذات اللحم الطيب فيما مضى. كلها هَربت الآن، ولم تَبق سوى المرافعين والذئاب..

في الصباح بدأت الرِّحلة من جديد، العرَبات تتعطل ويأخُذ إصلاحها وقتاً طويلاً ومضن. والأقدام تُدمي، والتعَب والألم كالسوس في العظَام، كالسوس.. يتسلَّل إلى الخلايا ويتوسد الدَّم، المعنويات تبدأ في الانهيار فتنخفض الجلالات. تخبو بعد أن تفقد إصرَّارها اليائس، تستحيل واهنة مقطوعة الانفاس.

في الأرض الميتة تعطلَّت عربة هِينو تحمل أثقالاً من الذَّخائر، فأمر قائِد السَرِيَة:

"جُرُوها بالمدرَّعة"

"لكن سيادتك لازم نتفرَّغ الأول"

قال أدروب فهتف به الضابط:

"نفِّذ التعليمات يا عسكري، ما عاوزين نضيع زمن"

وتم جَر العربة بالمُدرَّعة، فانكسر (الدِّنقِل).. وأصبحت العربة بدون عجلات.. نظر إليها الجميع بحزن وتهامسوا.. لم يكن هناك بد من تدمير العربة (لعدم الصلاحية) وواصل المتحرك المسير في طريقه إلى آيت..

وفي البلدة الساحرَّة آيت تفاجأوا بأحد المفقودين مُنذ سنوات طويلَة. كان يبدو في حالة يُرثىٰ لها، كالمصاب بِالذِّهَانْ في إرتباكه وحركاته القلقة التي تنِّم عن توتر وخوف عظيمين!

كان جلده المتغضِّن قد التصق على عظامه كأنه شبح.. "نمرتك. إسمك. وحدتك."

"747172. حمدان حسن حمدان. طيران"

"مفقود من متين؟"

"1984 سيادتك. أُسرت في الهجوم على مدينة بور"

"يااااه دي فترة طويلة، مرقت منها كيف؟"

"العمر فيهو باقي سيادتك"

وتم إرسال إشارة إلى قيادة سِلاح الطيرَّان، للتأكُد من صحة المعلومات فأتىٰ الرَّد إيجابياً، وأرسلوا طائرة لتقِله.

وكان أن تعرف عليه الرَّائد طيار حكمدار الطائرة مؤكدا مرة أُخرَّىٰ على أن المفقود كان ضمن أفراد طاقمه قبل دخول الخوارج بور.

وما أن رحل الطيار المفقود. حتى بدأ الجميع يتأملون آيت التي نسيوا في غمرَّة هذا الحَدَّث الكبير إكتشافها.

آيت على الرغم من جمالها الساحر إلا أنها بلدة الناموس السوبر. النَّاموسية هنا تُساوي ثمَّن الثور، فآيت رغم سحرها هي مدينة من مدن الجحيم..

الإحساس بالتاريخ، الزَّمان، المكان، وكل شيء له طعم آخر مع لسع النَّاموس. لذلك أسرع المتحرك في الخروج من آيت، متجهاً إلى مدينة (كنقر) حتى لا يفقد أفرادِه القُدرَّة على الحركة، فالمكوث في آيت يعني الشلَّل التَّام، والموت البطيء.

الطريق إلى كنقر مسقط رأس الدكتور جون قرنق دي مبيور محفوف بالمخاطر.. لكن عندما وصلها المتحرك، دون أن يجد

أحد! بعد خوضه لكل هذه المخاطر في طريقه إليها، فلم يبق فيها إلا رَيثما يُنهي تدميرها وهو ينسحب مبتعداً.

كانت ألسنَّة اللَّهب لا تزال تُعانق عنان السماء. مدينة كاملة بكل محتوياتها تحوَّلت إلى مجرَّد رَماد! وهو ينسحب فوجيء المتحرك بحُفرَّة ملغومة، لا يقِل نِصف قُطرِها عن الكيلومتر تقطع عليه طريق الانسحاب، فارتبك في البداية ثم لم يلبث أن وجد منفذاً للعبور ومواصلة السير..

إلى أن وصل معسكر كيلو 15 قرية (بايدَّة) حيث وقع في كمين فارتكز مبلبل الأفكار لا يدري ما يفعل بالضبط. كان قد حُوصر. ولم يُجدي تبادل إطلاق النَّار شيئاً.

كان واضحا أن المتحرك هالك لا محالة، ومع ذلك استمر يطلق ذخيرَّته اليائسة. مرَّ الوقت ثقيلاً، والجميع منبطحين على الأرض أو خلف السوَّاتِر التي هيأتها الطبيعة الغابية. مرَّ الوقت بطيئاً وساد الصمت المشحون بالتوتر.

كان الجميع يفكرون أن الخوارج، رُبما يؤجلون القضاء على المتحرك إلى الليل عندما فاجأهم عويل المدافع المحدودة والرَّشاشات والرُصاص..

كان صَوت الذَّخيرَّة يبدو واضحاً في دلالته على نوع الأسلحة، وكان واضحا أنه إطلاق نار بين طرفين.. لابد أن الخوارج في مأزق مع متحركٍ آخر، في طريقه إلى هُنا.. بدأ الأمل في النجاة يتسرَّب إلى النفوس، فأخذ الجميع يُهلِّلون بشكل هستيرِّي، وتقدموا في عجلة وهم يطلقون النَّار.

إنجلى الموقف عند سكوت صوت الذَّخيرة، وتعاظُم صرخات الخوارج. كان المتحرِّك الآخر قد تغلب على الخوارِج، بعد أن تمكن من تدمير عربة تحمل مدفعاً رُباعياً، وغنِّيمة عدد من المدافع الكبيرَّة والصغيرَّة.

وبدأ المطر في الهطول. أحاطت الظلمة بكل شئ، كأنها تنبعث من أغوارِ الغابات المُحيطة. اختبأ الجميع تحت العربات إتقاءً للمطر، وكلهم حذَّر وترقُب، كانوا جميعاً يتوقعون حدوث شئ ما بشكل مفاجئ. عندما دَّوى صوت القائد فجأة:

"ليتخذ الجميع موقعاً"

كان يبدو أن فرقة الاستكشاف قد عادت.. ومَرَّةً أُخرى انطلق الرُصاص.. كان الخوارج يهاجمون بضراوة. توقف المطر مفسحا لمطرٍ آخر من الدَّانات والدَّم..

استمر قصف الرَّاجمات على أشدِّه حاصداً الأرواح، وأخذ الخوارِج في الإندحار شيئاً فشيئاً من الهجوم المفاجئ الذي قطع عليهم تقدمهم. ومثلما بدأ كل شيء فجأة، هدأ كُل شيء فجأة، وظل المتحرك متحفزاً.

***

سقطت بور..

بعد أن سقطت بور أخذ اللواء يستعد للتحرك، إلى مدينة (البيبور) التي يسكنها المورَّلي. كانت قرية (آنجيدي) تتراءى من بعيد.

لم يتوقف اللواء إلا بعد أن تخطاها إلى وادي الزَرَّاف، الذي يبعد عشرات الأميال عن الغابات، كأنه في طبيعته ينتمي للربع الخالي.. مجرد صحراء مُتجرِّدة من أي أثر للحيَّاة، عدا الزرَّاف والتيتل والنعَّام وأشجار السافنَّا الفقيرَّة، المتناثرَّة هُنا وهُناك.

كانت المسافة إلى البيبور تتضائل بمضي الأيام، التي لا يعرف أحداً عددها. هبطت طائرة عمودية والمتحرِّك على مشارف البيبور، ما لبثت أن غادرت في عُجالة بعد أن اجتمع المسئول الذي تحمله بقائد اللواء.

في هذه الصحراء المتجرِّدة لا تستطيع التأكُد من شيء، أو الإحساس بشيء، سوى السرَّاب والخواء والفراغ العريض مسافة صغيرة تلك التي تفصل بين هذا الخواء والعدم، وبين البيبور التي هي أجمل من أن توصف..

بالوصول إلى البيبور، أخذت معالم الجهة غير المعلومة، التي يستهدفها المتحرك تتضح للتكهنات الحصيفة لقدامى الجنود، الذين كانوا يؤكدون بأن الجهة غير المعلومة، هي (كبويتا) مقر القيادة الاستراتيجية لجيش وحركة الرُّمح المقدس.

كبويتا المدينة الحصينة، مدينة الذهب الساحرَّة.. الأيام تمضي مُتثاقلة ببطءٍ شديد، والطريق إلى كبويتا مزروع بالقلق وهواجس المجهول والمخاوف، التي كلما لاح معلم في الطريق إليها اشتعلت أكثر فأكثر..

لاح (جبل بومة) من بعيد ساداً الأُفق، كان الدليل قد تاه فدار المتحرك حول نفسه لعِدَّة أيام، إذ كان يسير في دائرة مركزها جبل بومة، دون أن يُدرك أنه تاه إلا بعد ان لاح له جبل بومة مَرَّةً أُخرَى..

كانت المؤن التي مدَّ بها المورَّلي المتحرك، قد بدأت تنفد، والماء قليل، ودرجة التوتر عالية، والدليل الجديد الذي أُستبدل بالآخر الذي تاه، كان أشدَّ خوفاً من خوف الجميع مجتمعاً!

30 يونيو 1998:

كانت الكلمات التي سطرَّها وليم تستحيل طيفاً يخاطب لانجور، يلاحقه بكلماته التي تتناهى إليه آتية من أعماق الصمت، في هذا الفضاء المشحون بالقلق.

أوقف أحد السابلة:

"ثقاب لو سمحت"

أشعل سيجارَّة، استنشق الدُّخان بعمق، وطأ عود الثقاب بقدمه..

"شُكراً"

ومع تلاشي ملامح المكان، الذي أثار أشجانه، تلاشى شيئاً من الضيق. كل الملامح والخيالات الآتية من غياهب البعيد مُختصرة الزَّمن. مُختزلة المكان، تحتوي على رَواهن عوالم بأكملها..

الآن يعيش في زَّمن آخر، وعالم آخر، يندغم في زمنه وعالمه الرَّاهن.. المكان والزَّمان المُندَغمين لا يُبددان الظلام المُتعنّت، المُتسلّط على تباشير المستقبل في غياب المرأة الحُلم، وفي غياب أُغنيات الشمس والخبز والحرِّية.

تتمزَّق كل العوالم المسكونة بالخوفِ والرُّعب والتصنُّم، تتحرر من الرَّبقِ القدِّيم..

عاوده الصُداع مَرَّةً أُخرَّى، انطلقت من فمه كَحَّة مُتخمَّة ببصاقٍ رَمادِّي داكن، مسح فمه والكَحَّة تعاوده مَرَّةً أُخرَّى.. اتجه إلى أحد (أزيار) السبيل قذف بقايا ماء عَكِرْ وجدها في قاع (الكوز) أدخل الكوز في الزِّير، فاحتك بالقاع في صوت مخروش، ومضى نادماً على دفقة بقايا الماء العَكِرْ..

اتجه إلى دُّكان عتيق وهو يقول في نفسه:

"لابد أنه دُّكان الحلَّبي"

اقترب شيئاً فشيئاً. إلى أن توقف أمام الدُّكان، وجد رجلاً تجاوز الثلاثين -رُبما- فخيَّاه.. كان يكاد يُقاربه في السن -رُبما- خنقته كَحَّة مُزْمِنَّة، تجرعها بعسرٍ:

"ماء لو سمحت"

"آسف والله"

"طيب بيبسي"

شرب البيبسي بنَّهم، فأحس بعض الرَّاحة، استأذن في الجلوس على الكرسي، الذي أمام الدكان.

"تفضل"

ودون أن يكتسب وجهه أي تعبير على الرد الجاف جلس، تأمل الشيخ العجوز الذي يصلي على فروته يمين الكرسي، وقد بدى وقوراً وهو مستغرقاً في صلاته الطويلة، بكل ما يحمله جسمه المكدود، وعظامه الواهنة من طاقة.

سافر لانجور مع أوراد الشيخ والأرض أمامه تتكور، يتقلص رحمها.. تنقبض وتفيض.. تقذفه إلى عالم آخر تنزل فيه العصافير والأطفال والزهر والخبز مع قطرات المطر، وتولد فيه الأحلام مع حبيبات الندى الفضية اللامعة، أخرجه صفاء الشيخ من تأملاته:

"السلام عليكم ورحمة الله.. السلام عليكم"

مضت دقائق وهو يراقب الشيخ نسي ألم الكَحَّة المزمنَّة في غمرَّة تفحصه له وهو يُسبح في تأنٍ. تفحص الطاقية البيضاء، المسبحة، الشعر الأبيض، الشَّال الموضوع على مسند الكرسي الآخر..

تابع خطوط الوجه النحيل المليء بالهالات السوداء، كان الشيخ قد تعدى السبعين -ربما- ذكَّرته صلاة الشيخ بأحد الذين عرفهم في المعتقل، طلب منهم أن يسمحوا له بالصلاة، فصفعوه وهددوه ببذاءة:

"ربك دة تعبده هناك برَّه"

لحظتها بدت له المفاهيم والآيديولوجيات غريبة، كانت تسقط مفهوماً تلو الآخر. القهر والذُّل يُسقطان كل شيء عندما تكون في زنزانة باردة في سرايات أحد السادة، كانت إصطبلاً. عندما تكون فيها لعدة سنوات.. تختزل حياتك كلها في ذاتك فقط ..

"هذا العمل المسلح قمتم أنتم بتنظيمه، والآن لم تعد لديكم سيطرة عليه يا سالم.. حتى أنكم لا تدرون إلى أين تمضي مآلات الأمور."

"نحن ندعم كل حركات التحرر لأسباب مبدئية"

"لم أقل لك ذلك لأنني ضد ما يحدث. بالعكس أنا مع ما يحدث أيا كانت المآلات، لكن لا أدري لماذا أصبحتم منزعجون بهذا القدر من فكَّة السلاح؟"

"لقد قلت بنفسك أننا لا ندري أين يمضي هذا الشيء فكيف لا ننزعج؟!"

سالم على الرغم من تجاوزه الخمسين إلا أنه لا يزال يبدو فتياً كأنه في الثلاثينيات من عمره، ربما لحياته الرَّغدة دور في هذه الفتوَّة، التي هي أول شيء يلفت انتباهك عندما تراه!..

ومن الخروج من الزنزَّانة، إلى التراكم على الطرقات التي قد تكون خالية من جُثث الموتى لكنها ملأى بجثث الأحياء. أنها الحقيقة التي تحجب عنا رؤية السماء بنجومها وعصافيرها. وشمسها وهواءها، فلا نرىٰ أو نحس سوى غيوم الهموم المدلهمة والماء القذر، الذي يدلقونه عليك حتى لا تستطيع النوم مثل بقية كائنات الله في أَرضه.

رؤية السماء من داخل الزنزَّانة كانت تمثل أقصى أمانيه، مثل حُلم طفل صغير فقير بالحلوى. يراها أمامه ولا يستطيع لمسها. يُعذبه الشوق لامتلاكها، ويعذبه أكثر اللُعاب الذي يسيل على قميصه، مبللاً صدره!

انتفض لانجور على صوت الشيخ:

"الحمد لله، سبحان الله، الله أكبر"

ثم أخذ يقرأ الفاتحة بخشوع ورَهبة، ومن ثم تناول ركوَّته الفَخارِّيَة. ليتجرع منها بعض الماء ببطء وتمهُل. كان هو الآخر بكل وهنه. يعاني الظَّمأ لجرعةِ ماء!

"خُذ وجدت هذه في قعرِ الثلاجة"

قال الشاب كأنه يقرأ خواطر لانجور النَّهمة، الذي أخذ يتجرع الماء في شرَّاهة. لم يحس بالعطش من قبل كما أحسه اليوم. فيما كانت أصابع الشَّيخ المرتعِشَّة تعبث في مؤشر راديو قدِّيم. القى الشاب بعبارة عابرة الفضاء الضيِّق الذي يَفصِلهُما:

"أنها عادته منذ سنوات، رغم أن لا خبر يهمه"

انبعث صوت خافت أخذ يعلو شيئاً فشيئاً، كان الإرسال مُشَوشاً، يُشوِّش صوت المتشاعِر المتبطل فرج الله جنزير الحوش، وهو يُلقي قصيدة يمدح فيها الشِّيخ الغَرِّيق وأنصَّاره ويصِّفهم بالخُلفاء الرَّاشدين. قال الشاب وهو يتفحص لانجور بريبة لا تُخفى على العينِ المُدرَّبة

"زمان"

لم يُلق إليه لانجور بالاً. آثر كلاهما الصمت، وكل منهما يقمع داخله بقايا ثرثَّرات مكرورَّة. وكلاهما يشعر بأن الآخر رُبما يكون من زُوَّارِ الفجر.. ابتسم لانجور وهو يُدير هذا الخاطر في سرِّه ولم يُعلق بشيء.

أغلق العجوز مفتاح الراديو عندما فشلَّت أصابعه المرتجفة في ضبط المؤشر وأخذ يترنَّم في صوت واهن باحدى المدائح النبوية الشائعة في وادي النِّحاس:

"العَدنَّانِي، العَدنَّانِي.

العَدنَّانِي مُفتاح الجنان.. العَدنَّانِي."

التفت لانجور تجاه الشاب يسأله:

"ذلك البيت بالقُرب من بقايا المدرَسة المسورَّة بالسلك الشائك، هل تعرف أهله؟"

"أنه بيت المرحوم أحمد ابراهيم"

"بالضبط كدة"

"الله يرحمه هسه فاضي ومهجور"

تغيَّر الجو فجأة وأكفر. تهيأت السماء لإفراغ أحشائها. طوَّى الشَّيخ مُصلاته بهدوءٍ وحرص، ومضى إلى الدَّاخل يطأ الأرض المُترَّبة بتؤدة، متوكئاً بتمهُل على عصاته المعقوفة، والمتفرِّعة عند مقبضها إلى شكل سبعة. أغلق الإبن الدُّكان وتبعه. وقف لانجور يفكر للحظاتٍ في العودَّة..

الشوارع المترَّبة تبدأ في التشكل، الهواء البارد وزخَّات المطر اللافحة والسماء المثقوبة، التي لا أمل في أن تنسد ثقوبها قريباً، مع هذا الهطول الجنوني للمطر.

تقذف السماء بكل ما يجيش به خاطرها، فتتحول الزخّات إلى وابلٍ عنيف.. تحرك قليلاً تحت سقف مظلّة الدُّكان. الشوّارِع خالية وأعمِدة النُّور أمامه مُغطاة بحاجز ضبابي قاتم، يُحيل الرؤية لخطوطٍ عريضة مطموسة.

المسافة بينه وبين البيت طويلة، ولا أمل في العُثور على وسيلة مواصلات. كانت كفه لا تزال تحتضن عنوان سلوى. يود أن يلتقيها ليبُثها الحنين الذي قاده إلى ذكرياتها، وبيتها القديم.

دون أن يشعر بخطاه المندفعة فتح الشاب الباب:

"آسف لقد نسيناك تفضل إلى الداخل ريّثما يتوقف المطر"

"لا تهتم"

"أشكُرُك"

دلفا إلى صّالون صغّير مُلحق بالدُّكان، كان أشبه بِغُرفَة تقليدية. فيخلع لانجور حذاءه الرياضي، وهو يمسح عن وجهه خطوط الماء والبلّل.

كان الشّيخ جالساً على سرِّيرٍ منزوِّي أقصى الغُرفة. قال الشاب:

"سآتيك ببعض الشّاي الساخن"

ثُم انفلت إلى داخل البيت عبر باب سِرّي يصل الصَّالون بغُرفِ البيت الأُخرَى. أصلح الشَّيخ من وضع المخدَّة تحت رأسه وهو يقول:

"استرح يا ولدي، ريح ضهرك"

ثُم تلوى ببطء ومفاصله تتطقطق فوق اللحاف كبابٍ قدِيم، بينما تسللت نظرات لا نجور خلف النَّافذة، تُراقب الشارع المرتبك والسماء المكفهرَّة تصطخب وتهدأ. ومشاعره تثور وتتمدد بانفعال مع كل زَّخة مطر..

ارتشف الشاي الساخن ببطء وتلذذ، وفكر أن يُشعِل سيجارَّة إلا أنه تراجع .. حاصره وجود الشَّيخ المنهمك في رشف الشاي بتمهُل. أحس بنشاط عارِم يسري في عروقه، يقوي من حنينه الذي أخذ يشتد شيئاً فشيئاً.

خيَّم الصمت على الجميع، متواطئاً مع برودة المكان. نهض الشاب. أسدل ستائر النَّوافذ العَتيقَّة، الوَاهِنَّة. بدت اللَّوحات القديمَّة للآيات القُرآنيَّة، أشبه برسومات حائلة اللَّون طمسها الزَّمن وتراكم عليها الغُبَّار، وتضافرَّت عليها كل عوامل النِسيَّان.

كانت الجُدران العارِيَة من الستائر، تَظهر عليها رسومات متداخلة بعضها في بعض. وقد بَدَّت الغُرفة كلها مائلةً للصُّفرَّة

الكالحة، فكلِ شيءٍ هُنا باهت مزَّقه الزَّمن حتى ستائر النَوَّافِذ.. لا تبعث الغُرفة في داخلك سِوَىٰ الإحساس برائِحةِ التَّارِيخ العتيقة.. التَّارِيخ الكئِيب المُنْحَسِرْ.

كان المطر قد بدأ يخف شيئاً فشيئاً، حتى كاد يتوقف إلا من بعض القطرَّات المتلصِصَّة على النَوَّافِذْ.. نظر لانجور بترقب:

"تعرف يا عَمّي الشِّيخ."

ولم يرُد الشِّيخ. لم يبد عليه أنه سمع شيئاً

"يا حاج.. يا حاج الضيف بيتكلم معاك؟"

رَفع الشَّاب صوته عاليا ثم التفت إلى لانجور مضيفاً:

"يجب أن ترفع صوتك عالياً، إذا رَغِبْت أن يسمعك"

تناول الشِّيخ مسبحته من تحت المخدَّة، فرَدها على يَدِهِ اليُمنَّى وأخذ يُسبح.. غاص في دوَّامة من الذِّكر، لم يَعُد يَعِّي بعدها شيئاً مما حوله، كان قد إنفصَّل عن عالمهم تماماً.

"يبدو أنه لن يتحدَّث"

قال الشَّاب، فنهض لانجور وهو يسحَب قدميه، ببطء في طريقهِ إلى الخُروج.. عبر بقدميه المُثقلتين الباب.. ثمَّة قطرَّات مطرٍ

عَالقة في الهَواء تتناثر متفرّقة. أوقفته بَغتةً ليتأمل كل هذا الصفح الذي شمل السماء..

توقف أمام عمود النور، ليُشعِل سيجارَّة ومضى يشُق طريقهِ في أناةٍ وصَبر.

الساعة تقترِب من العَاشِرَّة مساءً، ساعة واحدة ويدخل في زَمن حظرِ التُجْوَّال. كان يجب أن يرحل منذ مساءِ الأمس، إلى حيث لا يَدرِّي.. لكن سالم لم يأتْ كما هو متوقع.

الحركة الخفيفة في الشوَّارِع بدأت تنحسِر والدُروب تهضم المارَّة شيئاً فشيئاً.. تبتلعهم في جوفِها، لا يتبق سِوَّى هو والشارع والليل، والحُزن وعواء الكِلابِ الضَّالة.

العِوَّاء المتقطع. المُختلَّط بصَدَّى جِدرَّان دَهَاليز عميقة تحت الأرض، كاد أن يَنزلِق مَرَّةً أُخرَّى، فاستند على عامود حَديدِّي مزروع في كَتفِ الطريق بمواجهته.. أحس بالألم، نَظَرَ في يَدِهِ وهو يتحسس بُقعَةِ الدَّم، كأحد لابسِي جِلدِ الفَهَدْ، مسحها على العامود وواصل المسير، كأن شيئاً لم يَكُن.. الطَرِيق إلى البيت لا تزال طويلة.. شارع.. إثنان.. ربع ساعة أُخرَّى ويَصَّل إلى البيت، يَستلقى على سَرِيرِهِ.. تذكَّر أنه شبه مُفلّس، إذ لم يَتَبَقْ من مُخصَصَّه الحِزبي المالي، سوى جُنيهاتٍ قَلِيلَّة.. سَيُنَاقِش ذلك مع سالم لاحقاً..

بعد قليل سيدفِن نفسه في الفِرَّاش المهترئ، يَتسوَّل النَّوم إلىٰ أن يحصل على غفوَّة صغيرَّة. انحرف إلىٰ اليَمين، بدىٰ البيت المسيج بسورٍ لا باب له من بعيد، كقلعَة مُغلَّفة بالضباب.

حاول أن يُدَندِّنْ بالحزن القديم.. وكرَّادارٍ اليكتروني اشتغل حِسه الأمنِّي فجأة، عندما لَمح عَرَبة لاندكروزر، تقف علىٰ الدرب الجانبي المُفضِّي إلىٰ مسكنهِ، وحولها ثلاثة أشباح تناثروا بتحفز.

أدرك مأزقه الذي أكدَّه صوت تحذِّيرِّي خَفِيض، إنبعث من وراءه:

"لانجور. لانجور. أنا تيم يا لانجور، تعال"

التفت برَهبة وشبح لم يتبينه جيداً يبرز له من زَاوِيةِ الجِدَّار، يحاول إختراقِ العَتمَّة:

"أنهم هُم زُوَّار الفجر. لقد خانك أحد رفاقك الحزبيين"

كان لانجور قد استوعب كل شيء بسرعة خاطفة وأدرك من الصَّوت أنه فعلاً تيم. كان لا يفصلهما عن العَربة البوكس سوى زَاوِّية الجِدار وأمتار قَلِيلَّة. أو خطوات بالكاد..

تعالىٰ علىٰ نحوٍّ مُباغِت صّوت أجش:

"ثابت، ثابت.. مكانك، لا تتحرك.. ثابت"

نظر لانجور إلىٰ شبج تيم نظرَّة خاطفة، ثم أنطلقا يعدوَّان، ركضا بسرعة وخطىٰ غليظة تلاحقهما..

"طاخ، طراخ.. طاخ"

أُصيب لانجور إصابة سطحية، فتأوه في ألم وطاشت رُصاصة أُخرىٰ قريباً من أُذنِ تيم، سيظل لانجور يسمع صداها في العالم الآخر لوقتٍ طويل!

أنفاس تيم اللاهِثَّة المُشتعِلَّة بالتساؤل والخوف، تُشرِع عن آخرها.

"إصابة سطحية لا تخف، يجب أن تفلت منهم"

"بل أنت من يجب أن يَفلِت، أكدت مصادِّرنا أنك أنت المستهدف، ولذلك كلفني وليم بحمايتك سراً، فكنت اراقبك كظلك لشهور دون أن تشعر بوجودي. هناك عربة تنتظرك في نهاية هذا الدرب، أُعدت لتهريبك، ستغادر البلاد الأسيرَّة.. أسرع.. وسأحاول أنا أن أشغلهم"

ركضا في مسارٍ مُتعَرِج.. أضاف تيم:

"هناك عند مطلع الشارع، يجب أن تنحرف يميناً، وسأتخذ أنا سبيلي إلى اليسَّار"

كان لانجور مرهقاً، إلى درجة الهلاك. دُخان السجائر والنزيف والذِّكريات التي أضحت أشبه بالكوَّابيس وهذه اللَّحظة المُرعِبة. كل شيءٍ يُداهِمه ليعوِّق حركته..

"ثابت. طاخ، طراخ، طاخ."

طاشت رُصاصات أُخرَّى بالقُربِ منهما، وتسارع الرَّكض خلفهما. وصلا مطلع الشارِع فافترقا في إتجَاهين متعاكِسين.

شَحَذ لانجور كل قوَّاه. احتدمت معرِّكة عابرَّة بين كلاب الحي والعسس:

"طاخ، طاخ، طاخ."

عوَّاء الكِلاب المُحتضِّرَّة، المصحوب بألمٍ عميق، كأنه نَصل ينغرِّز داخله. تعثر انزلقت قدمه اليُسرَّى، نهض مواصلاً الرَّكض، وهو يشعر بجسمه كله يتمزَّق من الألم.. سقط مَرَّةً أُخرَّى، ونَهض مواصلاً الرَّكض.. سقط عِدَّة مَرَّات، فارتطم رأسه بحجر خراصان، ملقى على قارِّعةِ الطَّرِّيق. فأخذ رأسه ينزف بغزَّارة، واصل الركض في إصرَّار، وقدماه تتعثران خلفه، وهو يجرهما جراً إلى نهاية الشارع، باتجاه العربة التي لاحت تسير نحوه ببطء، فجاهد للوصول.

وهو بين الغيبوبة والصَّحو رآها:

سلوى خلف مقود العربة، ثم سقط ولم يعُد يَعِي شيئاً!

رُبما رأى فيما يَرَى النَّازِف: نفسه وهو يفتح عينيه على جسمه المُغطى بالضمَّادات، فتدخل سلوى من بابِ الغُرفة الموَّارب، وهي كما كانت دائما، كاشواق الماضي وحنينه!

***

كانت المؤن التي مدَّ بها المورَّلي المتحرك، قد نفدت تماماً، ولم يتبق من الماء سوى القليل، العطش قاتل والمسافة بعد لا تزال طويلة.

على نحوٍ مفاجيء هطلَّت الأمطار بغزارَّة، دون سابق إنذار فأسرع الجميع إلى نصبِ البرَّاميل، وهم يُطلقون صيحات الفرح بهستيريا.

أخذوا يرقصون تحت المطر، وثيابهم تبتل بفرحتهم. لكن خلَّف هطول المطر مشكلة أُخرَى، إذ أن العربات (الداف) الخمسة عشرة، لم تتمكن من السير في الأوحال، كما أنه لم تعد هناك اسبيرات، بعد أن تم استخدام كل قطع الغِيَّار، فتوقف المتحرك تتآكله الحيرَّة..

بعد أيام، بعد أن جفت الأرض قليلاً. تحرَّك اللواء ومضى بسرعة يعوض الزَّمن الذي فقده بسبب الأمطار، ولم تلبث أن بانت له قرية (روتة) التي يحكمها السلطان لويس سلطان التبوسَة. هذه القرية كلها من صلبه من زوجاته الخمسين، يسكِنُها هو وأولاده وأحفاده فقط!

الخروج من (رَوتة) يعنِّي الاقتراب من (كبويتا)، عاصمة البلاد الكبيرة الجديدة. دوَّن سُعود في مذكراته:

سقطت كبويتا بعد طول حصارٍ وقصف ومعاناة، وتمشيط لا أول له ولا آخر. وعاود الخوارج الهجوم بغتة، لكن تمكن المتحرك من صدهم، لقد استبسلوا كفرسان التبوسا في الدفاع عن مدينتهم كبويتا، حتى وهي مؤكدة السقوط. دافعوا عنها حتى الرَّمق الأخير، جُرحٌ بجرحٍ وموتٌ بموتٍ وفرَّارٍ بفرارْ!

بعد أن هدأت الأمور تبين للمتحرك، أن المخزون الغذائي في كبويتا من الضخامة بحيث يفوق التصُّور. كانت كبويتا أشبه بالمدن العصرية: الشوارع المرصوفة بعناية، الطاقة الشمسية، المباني الفارِّهة السوبرماركتات، المستشفى العصرِّي بمشرحته الحديثة، المتاجر التي تعج بريش النَّعام والعَاج وجلود الحيوانات المفترسة، والأسلحة الاتوماتيكية الخفيفة.

كبويتا مدينة صغيرة قليلَّة السكان، الذين أغلبهم من التبوسا الشرسين، الذين إن لم يجدوا من يقاتلونه يقاتلون أنفسهم. التبوسا في وسط المدينة، والديدَنقا في الجنوب والبُويا في الشمال..

كبويتا جزء من الجنة بمناظرها الطبيعية الخلابة، ومناخها الساحر، الذي يمزج بين غموض الجنوب وسحر الشرق.. الإسم الذي يخطر عند رؤية كبويتا: الخُضرَّة والربيع الدائم.

علم البلاد الكبيرة الجديدة بلونه البني الطاغ، تتوسطه نجمة بيضاء يُرفرف عالياً خفاقاً في كل مكان، حتى في مناجم الذهب..

كبويتا مدينة مميزَّة بموقعها الحدودي الاستراتيجي، الذي يربط الجنوب بالإمتداد الإفريقي في قلب القارَّة السمراء، ويمثل هذا الامتداد خط إمداد استراتيجي..

هذه المدينة الغريبة الساحرَّة، لا يرتدي أهلها سِوَى ما يشبه وَرَّقة التوت، لستر مناطقهم الخاصَّة. هنا ريش الديك أغلى من الديك نفسه. وجلد الخروف أعلى من الخروف نفسه، لاتصالهما بالعادات والتقاليد والمعتقدات الرُوحيَّة.

كبويتا مدينة الدَّم المخلوط باللبن. لحم الضأن هنا أرخص من لحم البقر، الأبقار لا تباع إلا إذا كانت مريضة، فالأبقار كائنات مقدسة في كبويتا الأرض الحُرَّة، التي تستطيع التعامل فيها تجاريا

بأي عملة، حتى لو كانت عملة السلطان العثماني المؤسس، أو ماريا تريزا أو احدى عملات القرون الوسطى!

لكبويتا إيقاعٍ خاص ولها خطورتها أيضا، فالحريف هنا عشرة شهور، شهران فقط هما اللذان تستطيع فيهما الطائرة إمداد الجيش..

للتبوسا نفوذ كبير وحاسم على كبويتا، والجميع هنا يهابهم لما اشتهروا به من حب للقتال، أكثر من أي شيء آخر، وكثيرا ما تشتبك التبوسا مع المورَّلي أو البُويا أو الديدَنقا فتسفك ما تسفك من دماء..

التبوسي يعتقد أن كل ما في العالم من أبقارٍ هي للتبوسا، فالتبوسِي مفطور على حب الأبقار، لا يشعر بالأُلفة إلا معها، واذا أراد التبوسِي الزَّواج، عليه أن يُحضر أُذن رجل من خارج القبيلة، وجلد نمر أو فهد أو أسد، وإن لم يستطع فعليه إحضار بضع عشرات من الأبقار والضأن.

للتبوسا طقسها الغرِّيب، فالذي يقتل منهم أحد أبناء القبائل الأُخرَى يوسِّم يده اليُسرَى بالسكين، كي يعلم الجميع أنه فارس لا يُشق له غُبار، والتبوسي يا كل الحيوانات النافقة.

وجد المتحرك في كبويتا عددا من الجنود، الذين تم أسرهم منذ سنوات عديدة، وأكدت الحكومة لذويهم أنهم شهداء أحياء عند ربهم يرزقون!

أنهى سُعود كتابة مذكَّراته، وأخذ يقرأ ما سطرَّه وهو يتأمل ما تقود إليه الكلمات من أفكار!

تلك الذِكرَّى البعيدة العميقة القريبة.. ترتد ليتقوقع الصَدَّى، ينبثق في انفجارات دائرية، تتمدد في الأُذن. سئم الصمت، سئم نظراتها، سئم الأشينو المستفز، الذي يكشف مفاتنها.. سئم وحدته وسئم الفشل المُزمِن الذي يجرَّه خلفه..

لم يكن يدري أن تلك آخر أيام سلوى، لم يكن يعلم أن الموت قريباً منها هكذا، ولم يُصدق عينيه وهو يقرأ نعيها في الصُحف:

في ابشع جريمة قتل: طبيبة مشهورَّة تلقى حتفها على يد أحد الطوابير!

كانوا قد ذبحوها من الوريد إلى الوريد واتهموا تيم بها..

أجهزة الأمن تواصل البحث عن متهمين آخرين فارِّين، اعترف عليهم المتهم الأول في جريمة اغتيال الطبيبة المشهورَّة!

نظر بحزن في وجهها، وكأنه يُلقي بسؤاله إلى الفرَّاغ..

"ألا توجد وسيلة لقطع الصَّمت؟"

وكأنها كانت تنتظر إشارة منه:

"توجد وسائل عِدَّة كاستدعاء الماضي واسترجاع الذكرى"

سئمت هذا الحزن المرعب لايمكن أن تكون كل الذكريات مرعبة!.. وانطبق جفناها على حزن عميق يكذب ما ذهبت إليه.. كانت شفتاها تتحركان بطريقة تُعطي الأشِينو معنىً ساحراً وخاصاً..

"اسمي لانجور"

"تبدو مألوفاً. أنا أبْدوك"

ارتفع حاجباه في دهشة:

"ماذا؟ انت أُخت وليم أم تشابه أسماء؟"

أجابت بدهشة أكبر من دهشته:

"حقا هو أخي. كيف تعرفه؟!"

"تلك حكاية قديمة"

حكى لها وحكت له وامتدت بينهما الحكايات، فتوقف القطار..

عجلات التاكسي الذي يقلهما وهي تنهب الأرض، تمزّج صوت الطين الذي تخلف عن الصوت الغائب لعجلات القطار، في إيقاع تتسع له الأُذن..

توليفة للصدى:

لانجور/ أبْدوك.. لانجور، أبْدوك.. لانجور.. أبْدوك..

يدُب الإيقاع الهامِس في المفاصل، يتسامى.. يتسع ويتمدد شراشفا من قمرٍ وضئ على وجه طفل وامرأة وقطار يقف في قلب المحطة

أحمد ضحية

كُتبت في الفترة:

ديسمبر -1988 1999 كوستي

رُوجعت عدة مرَّات:

أبريل 2006 القاهرة

يناير2007 نيوجيرسي

سبتمبر 2010 لندن

ديسمبر 2019 فيرمونت

يونيو 2020 ميتشيغان

سيرة أدبية

أحمد محمد ضحية أحمد

مواليد مدينة كوستي 1 نوفمبر 1971، سوداني/ أميركي الجنسية.

تخرج عن كلية الآداب والعلوم شعبة الترجمة، جامعة أم درمان الأهلية 1998

عضو الاتحاد الأمريكي الوطني للكتّاب. عضو مؤسس لنادي القصة السوداني. المسؤول الإعلامي لمنظمة Darfur Rehabilition, Newark, NJ في العام 2006 وعضو مجلس أمناء منظمة Toward freedom فيرمونت، الولايات المتحدة الاميريكية (2018). يَدرُس حاليا علم الاجتماع بجامعة باركلي Barclay University- Socialogy Undergrad ويعمل كأخصائي في مجال العناية بذوي الاحتياجات الخاصة Behavior Specialist بلانسينغ، ميتشيغان، الولايات المتحدة الأمريكية.

عمل في الفترة من 1998-2002 بصحف:

أخبار اليوم، الأسبوع، الأزمنة، الدستور. كمحرر للملفات الثقافية. وكاتباً مشاركاً بصحيفة الصحافة ومسئولا عن النشاط الثقافي ببيت الثقافة بالخرطوم. وعضواً بدائرة الأدب والنقد (المجلس الأعلى لرعاية الثقافة والآداب والفنون). ورئيسا لقسم التحقيقات والقسم الثقافي بالصحافي الدولي. ومؤسسا ومسئولا عن تحرير نشرة (إضافات)، وعضو أسرة تحرير كتابات سودانية والتقرير الاستراتيجي السنوي- مركز الدراسات السودانية.

وباحثا متعاونا وكاتبا مشاركا بمركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان (2003-2006).

كما كان نشطاً قبل هجرته في الندوات الأدبية والفكرية كمحاضر: الخرطوم، كوستي، القاهرة.

صدر له:

-دروب جديدة.. أفق أول (بالاشتراك مع مجموعة من القصاصين) منشورات نادي القصة السوداني بالتعاون مع دار نشر الشريف الأكاديمية الطبعة الأولى ٢٠٠٢ الخرطوم.

-الإثنية والديموقراطية (بالاشتراك مع كتّاب آخرين) عن مركز الدراسات السودانية الخرطوم الطبعة الأولى ٢٠٠٤

-مار تجلو.. ذاكرة الحرَّاز (رواية) عن دار عزة للنشر الخرطوم الطبعة الأولى ٢٠٠٢

-صانع الفخار: آلام ذاكرة الطين (رواية) دار مدارات الخرطوم الطبعة الأولى ٢٠١٦

-أشجان البلدة القديمة (رواية) دار مدارات، الخرطوم الطبعة الأولى ٢٠١٦

تحت الطبع:

هيلدا (رواية)

لاوطن في الحنين (رواية ثلاثية في كتاب واحد)

مملكة العزلة (رواية ثلاثية في كتاب واحد)

المطاليق (رواية ثلاثية في كتاب واحد)

صانع الفخار: المقدس سره (رواية ثلاثية، ج. ثاني)

صانع الفخار: خريطة الطريق (ج. ثالث)

الاعتم إبن أبي ليل الظلامي: البدايات (رواية، ج. أول)

الأعتم بن أبي ليل الظلامي: تبلدية الفكي القنديل سراج البيت (رواية ثلاثية، ج. ثان)

ود دبرق: غواية غرف النوم (رواية ثلاثية. ج. أول)

نافذة للحنين.. نافذة الشجن (قصص)

كائنات شهرزاد العجيبة (قصص)

السرد والرؤى ٣ أجزاء (نقد)

الوردة والجرح (قراءات في سرديات المرأة السودانية)

صحارى غابة الأبنوس (قراءات في السرد الجنوبسوداني).

الإقصاء والنفي الوجودي (قراءات في سرديات المهمشين).

دارفور: وديان الدم (بحث حول جذور المشكلة وآفاق الحلول).

أنثى طائر الفينيق (إحياء ذكرى القاصة الراحلة منال حمد النيل)

حوارات مع الكاتب وكتاب عرب.

شظايا (مقالات في الفكر والثقافة والسياسة)

رحلة ذاكرة بدوية (سيرة ذاتية)

حول عالم أحمد ضحية السردي

ثلاثية مملكة العزلة

هذه ملحمة نثرية جديدة، شكل فيها السطر الواحد عالما، ورقعة متسعة من الإبداع الجميل.

أنها عوالم في التاريخ والجغرافيا والإنسان، عبر عصور عاشت الغربة بكامل وعيها وإرادتها، متمردة أو مستكينة!! هي مئات من سنين وربما مائة سنة من العزلة كانت وتجددت، وعادت من جديد لعزلتها، بين فناء وحياة متجددة ومتجذرة، اختلط فيها الواقعي بالسحري!

بل لا أغالي إذا قلت تم من خلالها فعل الحالتين، وتبدل موقعهما، معا ليشكلا أسطورة شديدة الزخم!

ظني بأحمد ضحية أكبر كثيرا من غابرييل غارثيا ماركيز.. الفارق بينهما لا أدري لصالح من فيهما: أن ماركيز أن كان بنى وأسس ماكوندو، فأحمد أسس لأكثر من ماكوندو..

هنا كانت عوالم في الزمن والتجربة الإبداعية، بكل غناها وتفجراتها وحيواتها، وهذا السحري، الذي بنى عليه ولم يقف عند حد المعرفة،عشان أو المشكل في الميثولوجيا عربيا أو أفريقيا، بل أكد على جديد في اكتشافات آنية، لم يلتفت إليها عبر العصور!

كان هناك خليط مرعب بين الكائنات، والله والأرض والسماء والكواكب و الملائكة والبشر والريح.. المدن والطوفان والعشق والكره، والموت والتحليق والمعجزة السماوية، والأسطورة والإيمان، والكفر!

أحييك أحمد على هذا التشظي والتفجر، الذي يقف مانعا عودتك الى الوراء، لنكون في انتظار عبقرية سردية قادمة بقوة، وآن لها أن تعلن عن قيامتها وبعثها!

شكرا.. وهل تصلح لك ايها العبقري؟ قرأت عزلة ماركيز وأظن أنني سأقرأ ملحمتك عشرا وربما أكثر قبل أن أصل إلى السر الكامن خلف ما أسست!

ربيع عقب الباب

قاص وروائي مصري

عضو إتحاد كتاب مصر

ثلاثية صانع الفخار:

في باب السرد اختارت الكلمة أن تقدم ثلاثية صانع الفخار للروائي السوداني أحمد ضحية حيث يغوص في التاريخ الجغرافي والبشري لرقعة السودان الشاسعة مبلورا شخصية صانع الفخار الاسطورية، رمزا لوحدة البلاد والقانون والذي يحرق في كل مرة من قبل الحكام المستبدين.

مجلة الكلمة

العدد ٨٤ أبريل ٢٠١٤

حول أشجان البلدة القديمة:

في سرد دائري تتناسل فيه التواريخ وتتناسخ الشخصيات، تكشف هذه الرواية السودانية عن واقع مترع بالقهر والاستبداد يتغلغل فيه التشوه وتستحيل الصداقة، ولايستطيع الحب أن يأسو جراح خياناتها المصمية.

دكتور صبري حافظ

كاتب وناقد مصريورئيس تحرير

مجلة الكلمة اللندنية

ثلاثية المطاليق:

يكتب الروائي السوداني عن أحوال البلاد الكبيرة، التي سيطر عليها السلطان بمطاليقه، يروعون الأهالي ويغتصبون النساء والاحلام، ويطاردون ويقتلون الثوار، ويمثل الشايب جقندي ذاكرة تلك البلاد الحافظ لتاريخها والباحث عن عالم أفضل لها أن الرمزية التي تنبني عليها الرواية تكشف عن الكيفيات التي ترسخ بها السلطة استبدادها.

محاسن الحمامصي

كاتبة أردنية

رواية لانجور

هذه الرواية :

إذا قُرأت قراءة جيدة : ستنتهي الحرب الأهلية بالسودان ,تماما كما فعلت رواية (ذهب مع الريح) لمارغريت ميتشل-

وإذا قُرأت قراءة رديئة: قتلت صاحبها -تماما كما فعلت قصائد المتنبئ.

وإذا لم تقرأ على الإطلاق، نسفت نفسها فينا جميعا، وأكدتنا في إرشيف المأساة.

عبد العزيز بركة ساكن.

كوستي

1998

***